أنيس منصور

التاريخ أنياب وأظافر!

دار الشروق

التاريخ أنياب وأظافر!

الطبعـــة الرابعـــة
١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م

الطبعـــة الخامســـة
١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م

الطبعـــة السادسـة
١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م

الطبعـــة السابعـة
١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص ب: ٣٣ البانوراما ـ تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣
فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)

فى هذا الكتاب

صفحة

هذه الحيوانات
التي مال عليها الزمن !

هـذا نوع آخر من التاريخ . انه مجموعة عظام . اى ان الحيوانات التى كانت تعيش من ملايين السـنين قد ماتت فى ظروف لا نعرفها . وتركت بقـاياها . وجاء العلم الحـديث فجعل العظام فحما . ثم درس الفحم وحلله وراح يعد ذراته ليعرف كم واحـدة من هـذه الذرات قد ماتت .. وعن طريق الذرات الباقية يعرف عمر هذه الحيوانات .

ويمكن أن يقال أن التاريخ : كومة تراب وجدها أحد العلماء فى أحد الكهوف . ففى الكهوف جاء الانسان القديم وامسك غصن شجرة وغمسه فى الدم ثم رسم على الجدران صـورا لهذه الحيوانات .. وجاءت الأجهزة الحديثة واستخرجت من الدم شهادة ميلاد الانسان وشهادة دفن هذه الحيوانات .

وجاء الانسان مرة اخرى وجمع التراب والعظم ونظم منها معانى جديدة لكل ما حدث .. فالتاريخ عمل انشـائى .. أو موضـوع انشاء .. ففيه الكثير من الكذب الجميل .

فالتاريخ هو دكان سمك .. أو حظيرة أبقار .. لأنه تاريخ الحيوان على هذه الأرض .. ولكن هذا التاريخ لهذه الحيوانات وبهذا المعنى ظلم لها جميعا . لأن الحيوانات قد قاومت ملايين السنين . واكتسبت تجارب وتصلبت ضلوعها وأرجلها وارتفعت أعناقها ونبت لها الريش والزعانف وقاومت قوى الطبيعة . وقاومت الانسان .. واستطاعت أن تبقى أكثر تنوعا وأكبر عددا واطول عمرا .. وسوف تنتهى الحياة الانسانية على هذه الأرض أو تنتقل الى كواكب اخرى . ولكن الحيوانات هى التى سترث الأرض وما عليها .

فكل الحيوانات التى تعيش الآن واضعف من الانسان كانت آلهة . عبدها الانسان وتلمس بركتها . وأقام لها المعابد وأشعل من اجلها الحروب .

وفى الكهوف والمعابد القديمة آثار باقية تدل على هذا التقديس العظيم للكلاب والقطط والطيور والثعابين والحيوانات الاخرى . فكأن هذه الحيوانات كانت فوق ، على العين والرأس ، ثم أصبحت تحت أحذية الانسان .. كانت آلهة فأصبحت عبيداً يسوقها ويذبحها . او يحبسها ويتفرج عليها .. ان كل هذه الحيوانات آلهة مال عليها الزمن !

عبدها الانسان .. ثم طاردها . وقتلها . ثم طاردها وصادها . وحاول أن يستأنسها . وتحقق له ذلك ورباها ليذبحها ويأكلها . ثم استخدم بعض هذه الحيوانات فى جر العربات وجر عربات التاريخ من قارة الى قارة ، ومن مرحلة الى مرحلة .. ففى السنة التى ولد فيها الرسول عليه السلام هاجمت الفيلة الكعبة . وكان ذلك عاما حاسما .. وسمى عام الفيل ..

والقائد هانيبال زحف الى أوربا وأثار فيها الرعب وانسحبت أمامه كل قواتها لانه استخدم الفيل لاول مرة ..

والخيول دخلت مصر مع الهكسوس .. وبدخول الخيول مصر تغير وجه التاريخ .. وتغيرت معالم المعابد وجدرانها .

وحيوانات أخرى غيرها اشتركت فى ملحمة الحياة والصبر عليها والصمود من أجل ما هو افضل لها ولصغارها .

وتاريخ الانســـان والحيوان هو ملحمة العذاب من أجل البقاء . أنها معارك الصداقة والعداوة . معارك الســيادة .. وكان من الطبيعى أن يسود الانسان بعقله . وقد سجل ذلك كله فى أغانيه وأعماله الفنية وفى أساطيره ..

والبداية قديمة جداً . فالحياة بدأت على هذه الأرض من ثلاثة آلاف مليون سنة . وكان شـــكل الحياة بسيطا بدائيا . عبارة عن خلية حية . هذه الخلية ظهرت فى الماء . والحياة على الأرض كلها خرجت من الماء . القرآن الكريم يقول : « وجعلنا من الماء كل شىء حى » . فقد كانت الأرض ملتهبة أول الأمر . وأخذت تبرد فى ملايين السنين . وتتكون من حولها السحب . ومن هذه السحب التى بها كل عناصر الحياة : الهيدروجين والاوكسيجين وثانى أوكســيد الكربون ومن ورائها ومن حولها الاشعة فوق البنفسجية التى تفيض من الشمس خرجت الحياة . أو كان « الجو » أو « البيئة » أو « الحضانة » التى لابد أن تخرج منها الحياة . وخرجت وكان ذلك فى الماء .

ومضت ملايين أخرى من السنين عندما انحسر المـــاء وأصبحت هناك محيطات وشواطىء من الوحل. والوحل هو الماء والطين معا. أو هو « الحل الوسط » بين البر والبحر ومضت ألوف السنين لتتعقد

الحياة ويكون لها شكل . وينتقل هذه الكائنات من البحر الى البر . وتعيش هنا وهناك . وما تزال فى المحيطات كائنات غريبةعجيبة. هذه الكائنات هى سلالات مستمرة من مئات ملايين السنين .

وتوجد بعض الآثار فى شمال أمريكا وشمال اوربا تشير الى هذا النوع من الحياة التى ظهرت فى البحر وتسللت الى البر ثم عادت الى البحر ..

وفى الصراع المستمر من أجل البقاء تدرعت بعض الكائنات البحرية بالعظام والأنياب حتى لا تفنى . وتطورت الأشكال العظمية وانيابها وازدادت مرونة . بل اننا نجد بعض الكائنات البحرية اصبح لها فك أكثر مرونة . وأقدر على ان يمسك وان يعض . وهذه خطوة هائلة فى تطور الكائنات البحرية .. او الأسماك .. ولا تزال بعض الأسماك محبوسة فى اقفاصها العظيمة . وهذه الاقفاص سجل تاريخى لما كانت عليه هذه الحيوانات من مئات ملايين السنين .

وفى الوقت الذى ظهرت فيه الأسماك فى البحر ، ظهرت الاعشاب على الشاطىء .. والشجيرات والأشجار الكثيفة .. وانتقلت الأسماك من البحر الى الشاطىء . وليس هذا الانتقال قصيرا كهذه العبارة . ولكنه طويل بملايين السنين . واهم ما حدث : هو أن هذه الحيوانات استطاعت ان تتنفس الهواء مباشرة — اى هواء الجو وليس الموجود فى الماء !

ومنذ ٣٠٠ مليون سنة حدث ارتفاع فى درجة حرارة الأرض . فذابت المساحات الهائلة من الجليد .وحدث طوفان . غرقت الأرض. وزحف البحر على الأرض . فكان كل شىء بحرا . وغرقت معظم الغابات وتراكم بعضها فوق بعض.ومضت الوف السنين . وانحسر الماء الساخن . أو الماء الذى يغلى . والذى جف . واحترق كل شىء

على الأرض . وتحولت الأشجار المحترقة الى فحم .. الى مناجم الفحم التى تستخدمها الحضارة الصناعية وقودا منذ مائتى عام ..

ولم تنعدم الحياة على الأرض .. بل كانت هذه الحياة قد اكتسبت تجارب جديدة ، واتخذت لها أشكالا متنوعة . وتعلمت الحشرات أن تطير من الأرض الى الشجر . ومن الشجر الى الشجر . بعض الأسماك كانت تطير أيضا . ولا يزال بعضها يرتفع من الماء الى الشاطىء . أو من البحر الى النهر . أو من النهر الى البحر .. وبعضها له زعانف كالأجنحة تماما .. أو هى أجنحة .

واجتهد العلماء فى تفسير ما حدث لهذه الحيوانات ، ذهابا وايابا من البر الى البحر .

ففى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وعلى أيام نابليون تصور العلماء أن تطور الحياة يشبه التطورات السياسية . ففى أيام نابليون كانت عروش تقام وعروش تنهار . وحدود يمحوها الانسان، وحدود جديدة يضيفها الانسان .. وتصور العلماء أن الحياة كانت على شكل ما ثم حدث ما غير هذا الشكل بعنف .. ومعنى ذلك أن تطور الحياة ، كالتطورات السياسية ، هزات عنيفة وانتكاسات وثورات . فتاريخ الحياة ينتقل من عنف الى عنف .

وظهرت نظرية تقول ان الزواحف أطول عمرا . لان الزواحف تخرج من الماء الى البر . وتعود الى الماء . وان هذه المرونة واتساع مجال الحركة والحياة قد أعطاها فرصا اكبر للبقاء لانها تضع بيضها على الشاطىء بعيدا عن الزواحف أو الاسماك المفترسة .

ويظل البيض على الشاطىء او فى الطين حتى تخرج الصغار من البيضة . واذا كان البيض يحمى الصغار حتى تخرج ، فبعد خروجها تفتقر هذه الحيوانات الصغيرة الى الحماية مرة أخرى . من مشاكل التماسيح الآن فى بحيرات أواسط افريقيا انها تضع بيضها على الشاطىء وعندما تخرج التماسيح الصغيرة من البيض تعاجلها القردة بقتلها .. أو أن القرود تحطم البيض قبل أن يفقس .. ولذلك فالقرود خطر على هذه التماسيح !

وظهرت حيوانات ضخمة . هذه الحيوانات الضخمة كانت قادرة على أن تقاوم الحيوانات الصغيرة . ولكن هذه الحيوانات قضت على نفسها أيضا . فضخامة حجمها جعلتها اثقل حركة . وجعلتها اقل مرونة . وجعلتها اذا وقعت لا تقوم . واذا قامت تنحشر بين الأشجار أو بين الجبال . وتظل كذلك حتى تموت .. فالعلم الحديث كشف لنا عن عدد من فصائل الديناصور الهائل قد حبسها احد الوديان حتى ماتت .. مع أن اصغر حيوان يستطيع أن يتسلق الأحجار وان يصعد الجبل ومنه الى الوادى أو الكهف يستأنف حياته من جديد . فضخامة الأجسام آفة هذه الحيوانات .. فالكبير عاجز عن الشىء الصغير الذى ينقذه من الموت أو من الفناء ! وقد فنيت هذه الكائنات الكبيرة، لانها كبيرة . والفيل والنمر خير دليل على ذلك . الفيل اكبر واقوى. ولكنه اقل حركة . ولذلك كان « مجاله الحيوى » ضيقا .. أى المساحة التى يستطيع ان يتحرك فيها اضيق من المساحة التى يتحرك فيها النمر ، فانقرضت فيلة كثيرة جدا ، وبقيتنمور اكثر .. فالقوة ليست العضلات ، ولكنها القدرة على مواجهة المشاكل والافلات منها ، بالدوران حولها أو عدم التعرض لها ، أو بالقضاء عليها ــ انظر الى حياتك وتذكر مواقف معينة ثم تساءل كيف هزمتك أو كيف قهرتها ؟ مع فارق واحد : ان لديك عقلا ، ولدى

الحيوانات مخالب وانياب . وانها بأنيابها واظلافها واظافرها نقشت تاريخهـــا على أنقاضها وأنقاضنا . وبقيت وبقينا ولكننا أقـــدر وأفضـــل !

ولابد من لفت نظر هنا والان وبسرعة :

حتى لا نتصور أن الحياة أخرجت نفسها من الماء الى الأرض ، وزحف وطارت وقامت وقاومت من تلقاء نفسها ، يجب الا ننسى أن هناك « ارادة عاقلة » .. أن هناك « حكمة واعيـــة » أو « عقـــلا كونيا » يعنى : الله ..

فنحن لا نقول مثلا ان فندق شيراتون عبارة عن مجموعة من قوالب الطوب .. أو مجموعة من الألواح الزجاجية أو الخشبية .. مع أن هذا الفندق مجموعة قوالب والواح واسلاك . ولكن الفندق ليس كومة من المواد المختلفة . وانما هو شكل هندسى معمارى . هذا الشكل هو مجموعة قوانين ونظريات فى العمارة والكهرباء والميكانيكا والاقتصاد والسياسة ايضا . انه صورة عقلية . صورة حكيمة . أى أن هناك عقلا أو أكثر من عقل جعل الطوب غرفا والألواح نوافذ والأســـلاك كهرباء وتليفونات وتلغرافات .. ثم هناك قواعد وقوانين تربط بين الموظفين والزبائن .. والذى يحدث فى فندق حدث فى ألوف الملايين من الكائنات عندما تحولت من خلايا الى كائنات حية .. الى كائنات متطورة .. الى زحف عنيف نحو الحيـــاة والبقاء رغم كل الظروف الطبيعية والانسانية المضادة ..

هناك ــ اذن ــ حكمة الحياة .. التى هى ارادة هذا الكون..

ارادة الله . التى لا نعرف منها الا القليل . لان وسائل المعرفة صغيرة فوسيلتنا هى العقل . والعقل ما يزال عاجزا عن الكثير جدا (الف مرة جدا) مما فى هذا الكون .. مما فى هذه الأرض .. أو مما فى هذا الجسم الانسانى أو الحيوانى .. أو فى هـــذه الخلية الحية فى حيوان او انسان أو نبات ! ـــ انتهى لفت النظر !

والنقوش فى الكهوف تصور الحيوانات على جدرانها . الحيوانات تجرى . بعض هذه الحيوانات تنزف دما . اذن لقد صورها الانسان وهو يطاردها . لانه أقوى منها . وهو يصورها دامية استعراضا لقوته . فالدم اذا نزف يدل على أنه قتلها . وانه لا يخافها . وانما يغريه ذلك بأن يكرر ذلك مرة والف مرة . ونحن لا نعرف بالضبط أن كان الانسان قد استأنس الحيوانات أولا ، ثم أكلها ، أو انه اكلها قبل أن يستأنسها . على كل حال بعض النقوش تصور لنا هذه الحيوانات هادئة ساكنة ، كأنها رضيت بحكم انسان عليها . وحكمه عليها أنه حبسها وأذلها أو ذللها حتى أصـــبحت ذيلا له .. مثل كلبه تماما . والانسان كان يستخدم الكلب فى الصيد . ومعنى هذا انه استأنس الكلب ثم اطلقه على الحيوانات . فالكلب هو أول حيوان استأنسه الانسان . وعندما عرف الانسان كيف يســـتأنس هذه الحيوانات ، عرف أيضـــا ان يبنى الأســـوار لتحمى الحيوانات وراءها . وكانت الأسوار من الأشجار ثم من الاحجار وعرف الحبال التى يمسك بها الحيوانات .. ولابد ان تلتف الحبال حول أرجل أو أعناق الحيوانات.

ولا يمكن أن تلتف الحبال دون أن يعرف الانسان كيف يصنع من الحبل « عقدة » . وعندما اهتدى الانسان الى « العقدة » كان قد

اكتشف شيئا عظيماجدا . فهذه العقدة كانت رابطة للخيوط والأنسجة والحبال . وقد تبدو العقدة عملا تافها . وهى بالفعل كذلك الآن . ولكن من مئات الالوف من السنين كانت اكتشافا لا يقل عن اختزان الكهرباء فى البطاريات الجافة فى السيارات والبطاريات والراديوهات وسفن الفضاء !

وتدل الآثار التى عثر عليها العلماء فى البرازيل ان الهنود الحمر كانوا يحبسون الخنازير دون أن يعرفوا انها طعام يمكنهم ان يعيشوا عليه .. كل انسان كان « يقتنى » بعض الحيوانات لا لانها طعام ، ولكن لانها جميلة الشكل فقط . اى أن الانســـان كان يصيد الغزال والماعز والحصان لان لها شكلا جميلا . ومعنى ذلك انالانسان كان فنانا محبا للجمال.وهذا الحب للجمال معناه أن لديه ما يأكله ، وأن لديه ما يتفرج عليه .. والانسان لا يســـتطيع أن يحقق الفائدة المادية واللذة الجمالية الا عن طريق القوة .. قوة الصيد وقدرته على حماية ما يصيده .. فاحتفاظه بهذه الحيوانات دليل على اقتداره ودليل على ذوقه .

وفى سنة ١٨٧٩ عثر الأب برويل فى أسبانيا على نقوش فى كهوف. هذه النقوش هىالقوة والجمال . فالحيوانات منطلقةبسرعة هائلة. والانسان قد سجل هـــذه الحركة . فهو اقتناها وراقب حركتها . وتمتع بذلك . ثم انتقل من مجرد الاعجاب الى تسجيل ذلك.وجاءت ابنة هذا العالم ، وبالصدفة ، فدخلت أحد الكهوف وراحت تصرخ بالأسبانية : توروس .. توروس .. أى ثيران . ولم يكن الذى رأته ثيرانا فقط وانما كانت هناك خيول ايضا . الوانها حية قوية جميلة . وكانت هذه الخيول والثيران تعيش على حدود أسبانيا وفرنسا من عشرين الف سنة .

وبعد ١٦ سنة عثر العلماء فى انحاء متفرقة من الكرة الأرضية على نقوش مماثلة تسجل ما جرى فى العالم فى نفس الوقت .

ولابد أن فكرة « رأس المال » قد ظهرت فى هذا الوقت . لان كلمة « رأس » هذه قد جاءت من رؤوس الغزلان والأبقـــار والخيول . فالذى يملك عددا كبيرا منها هو الاغنى وهو الاقوى وهو القادر على صيدها والاحتفاظ بها وحمايتها واطعامها والتباهى بها . فهـــذه الحيوانـــات ثروة وقوة . ولا يزال رأس المـــال قوة . ولا تزال بعض القبائل البدائيـــة ترى فى كثرة الحيوانات مصـــدرا للقوة والسلطة . ولا يزال « المهر » هو عددا من الأغنام أو الأبقار . ان قطيعا منها هو استعراض واضح بارز متحرك لثروة الأب واهمية العروسين عند الأهل أو القبيلة ..

وبعد ذلك عرف الانسان أن الحيوانات ليست الا طعاما مدخرا .. طعاما يمشى على أربع .. والحيوان ليس الا حارســـا للحمه حتى يجىء الانسان فيقرر أن يذبحه ليأكله او يذبحه ليبيع لحمه . أو يبيعه لغيره من الناس ..

والقصة طويلة ومتنوعة ومثيرة ومسلية وفيها الكثير من الاشارات والتلميحات الى الانسان نفسه كما سنرى .

واذا كانت الحيوانات يقتل بعضها البعض جوعا ، اى من اجل الطعام والبقاء بعد ذلك : فان الانســـان هو الحيوان الوحيد الذى يقتل الحيوان او الانسان الاخر لاســـباب اخرى غير الجوع . وقد حاول الانسان ان يقنع نفسه بالعدول عن القتل . ولكن هذه المحاولات لم تنجح بعد — مع أن حيـــوانات كثيرة قد عدلت عن ذلك من وقت طويل !



كالحيوانات
يموتون كما يولدون في الظلام!

الانسان حاول ان يفسر كل شيء حوله تفسيرا انسانيا . فهو ينظر الى سلوك الحيوانات كما ينظر الى سلوكه هو . فالحيوانات تخاف وتغضب . وتعيش حياة اجتماعية ولكل جماعة زعيم . وزعيم القطيع هو الذى يقودها يمينا وشمالا ..

واذا مات راس القطيع ارتبكت الجماعة حتى تجد لها راسا جديدا . والانسان قتل الحيوانات لياكلها او خوفا منها . ولذلك خاف الانسان من هذه الحيوانات أن تنتقم من الانسان .

وهذا الخوف من الانتقام هو الذى جعله يكف عن قتلها بالالوف . فالخوف من الانتقام يمكن أن يكون بداية ظهور فكرة الضمير عند الانسان . فالضمير يقول له : لا تفعل كذا حتى لا تصاب بكذا .

ولذلك وجدنا الانسان من مئات الالوف من السنين يعلن أن

بعض الحيوانات يجب الا يمسها بسوء .. او لا يمسها . فهى شيء ممنوع لمسه . فاللمس بمناسبة . ثم أن الانسان اتخذ من بعض الحيوانات رمزا له . أو علامة مقدسة . او شيئا مقدسا ينلمس عنده البركة والوقاية من الحيوانات الاخرى ومن أعوانه من البشر .

وكثيرا ما أصيب الانسان بكل كوارث الدنيا ، ولكنه رغم ذلك لم يكفر بهذه الحيوانات المقدسة . تماما كالجندى الذى يحارب تحت العلم . ورغم ما اصابه من هزيمة فانه لا يمزق العلم . وانما يظل ممسكا به ايمانا منه بأن العلم هو شرفه وهو كرامته .. وانه لابد أن ينتصر مرة اخرى !

وظهرت عند الانسان فكرة اخرى تقول : انه بعد أن يموت فسوف يتحول الى حيوان .. او ينتقل من جلده الانسانى الى جلود مئات الحيوانات . ويعتبر انتقاله الى اجسام الحيوانات الاخرى نوعا من الانتقام منه .. فحتى لا يكون حيوانا بعد وفاته ،فمن الأفضل الا يؤذى الحيوان بقتله او أكله !

وربما كانت هذه الفكرة هى التى ادت فيما بعد الى ان يقال أن الانسان أصله حيوان .. وانه ينتقل من الحيوانية الى الانسانية ومنها الى الحيوانية مرة أخرى — وهذه هى « الدائرة الحيوانية » التى يتحرك فيها الانسان حيا وميتا .

وعند الفراعنة كانوا يرون أن الانسان يتحول الى حيوان بعد موته . وبعد أن يبقى حيوانا ثلاثة آلاف سنة يعود انسانا مرة أخرى . وبعد فترة قصيرة يعود من الانسانية الى الحيوانية من جديد .. والمصريون القدماء يرون ان كل شيء ثابت الا الانسان ..

فالنيل له مواعيد للفيضان ، والشمس تشرق وتغرب .. والقمر يصغر ويكبر .. كل ذلك فى مواعيد ثابتة .. الا الانسان فان حياته متغيرة متبدلة .. وهذا التبدل أهم مظاهره : أن ينتقل الانسان من جسم الانسان الى جسم الحيوان . وهذا الانتقال بالروح . فهذه أولى نظريات تناسخ الأرواح . وهذه النظرية قد انتشرت لاسباب غير واضحة لنا الآن ، فى الشرق والغرب . وفى القرن السادس قبل الميلاد . فمثلا عند الفيلسوف اليونانى فيثاغورس ، وعند تلامذته من بعده . وعند الراهب الكبير بوذا فى الهند والصين . ولكن بوذا كان حريصا أن يؤكد لتلامذته أن كلامه عن الحيوانات ليس الا رمزا .وانه استخدم الحيوانات فى نصائحه لتجسيد أفكاره وجعلها واضحة عند أقل الناس قدرة على الفهم . ولكن تلاميذه أخذوا نصائحه حرفيا ..

يقول بوذا .. ايها الرهبان هناك اناس كالحيوانات . او حيوانات يعيشون على الاعشاب . ايها الرهبان انها الخيول والاغنام والابقار والحمير وكل من يحب الطعام يرى ان الحياة هى الطعام ومن اجل الطعام هو هذه الحيوانات . واذا قدر له ان يعيش بعد الموت فانه سيكون حيوانا مرة اخرى .. ايها الرهبان هناك حيوانات تأكل الزبالة مثل الكلاب والكتاكيت والخنازير . ان الزبالة تنعشها وتهبها الحياة . ولو ماتت لتمنت أن تعود الى الزبالة .. ايها الرهبان ان هناك اناسا هكذا . افهمونى . ايها الرهبان : أن هناك حيوانات ولدت فى الظلام وسوف تموت فى الظلام . النور يوجعها ويضللها ويفزعها . ان هذه الكائنات هى البراغيث والصراصير والخفافيش والبوم .. ان هناك حيوانات ولدت فى الماء وماتت فيه كالاسماك والسلاحف والتماسيح . ان الاشرار، ايها الرهبان ، هم الذين بعد موتهم يفضلون الحياة الدنيا انهم .. مشدودون اليها . انهم عاجزون عن الانسلاخ عن الجسد عن المادة عن الشهوة .. انهم حيوانات » .

ولم يفهم تلامذته مئات السنين أن المقصود ليس الحيوان ، وانما الحياة الحيوانية ..

وعند الاغريق وجدنا الآلهة يعاقبون الانسان بأن يمسخوه حيوانا. أو انهم يقومون بتهريب الانسان فى صورة حيوان .. ومن السهل جدا أن يتحول الانسان الى حيوان ثم يعود الى انسانيته . والاغريق عباقرة فى حكاية هذه الخرافات . وفلسفتها وتعميقها . والشاعر اوفين فى كتابه « التحولات أو مسخ الكائنات » من ترجمة د. ثروت عكاشة يقدم لنا روائع القصص والمغامرات وكنزا من المعانى الرائعة . ولكن الاغريق يرون أن الانسان هو اسمى الكائنات . بل انهم يرون أن الانسان أعظم من الآلهة وقادر على أن يتغلب عليهم بل أن الآلهة تحقد على الانسان وبعض الآلهة يتمنى ان يكون انسانا ولكنه لا يستطيع .. ولذلك فالاله اذا اراد ان يتفوق على الانسان كان من الضرورى أن يمسخ نفسه انسانا .. فاذا فعل تغلب عليه الانسان . ولذلك فان الآلهة تتكاتف معا ضد الانسان القادر على التمرد على كل الآلهة !

والعالم الكبير فريزر يقول : لابد أن الخنزير كان حيوانا مقدسا عند اليهود من الوف السنين . فاليهود يحرمون أكل الخنزير ويحرمون أكل الجمل . ويرون أن الجمل مصدر لكثير من الامراض . ولكن السبب الحقيقى ان الخنزير لا يناسب الحياة التى يعيشها البدو فى المناطق الحارة . فهو بطىء الحركة . وهو فى حاجة الى كثير من الطعام ، وغير قادر على أن يتحمل الجوع فكرهوه ووجدوه عبئا ثقيلا عليهم . وقد اثبت العلم الحديث ان لحم الخنزير هو مصدر متاعب المعدة والامعاء . وتحريم لحمه صحى ايضا (وفى التوراة نجد وصفات علاجية عن طريق لحم الطيور . فقد وصف الانبياء

اليهود لحم الطيور علاجا للمصابين بكثير من الامراض الجلدية التى استعصى شفاؤها) .

شىء عجيب حقا أن يتقدم الفراعنة فى كل مجـــالات المعرفة وان يسبقوا زمانهم ، وانهم لا يزالون اسبق شـــعوب العالم فى الفلك والتحنيط ، ومع ذلك يقدسون الحيوانات !

والحيوانات التى يقدسونها كثيرة . وهذا يجعلنا نعتقد أنالفراعنة كانوا نباتيين . فهم يقدسون الابقار . والعجل آبيس (بالالف الممدودة والباء الثقيلة) قد عثر عليه العالم الاثرى مارييت فى سقارة . وهذا العجل موجود بطول وعرض الحضارة المصرية . وتماثيله واضحة وهو يحمل قرص الشمس بين قرنيه . وكانت تقـــام له الحفلات . وتقام له الجنازات اذا مات . وبعد وفاته مباشرة ينطلق الكهنة بين قطعان الماشية يبحثون عن معبود له علامة خاصة فى راسه أو عنقه أو جسده ـــ فاذا وجدوه أقاموا الحفـــلات وتوجوا المعبود الجديد . واستراح الناس لانهم عثروا على رب لهم ، أو حارس لهم يحميهم من الحيوانات الاخرى . . ولذلك قدموا له طعاما خاصا وحريما من الاناث !

والفراعنة عبدوا الطائر « ابيس » ـــ بالالف المكسورة والبـــاء الخفيفة ـــ وهذا الطائر شبيه بابو قردان ولكنه ليس هو . ويقال انه الطائر أبو منجل . . ويقال ان هذا الطائر قد انقرض ولم يعد احد يراه الا فى أعالى النيـــــل وفى المتحـــــف المصرى . انه بنى العنق والذيل متوسط الحجم .

والتمساح الذى وصفه هيرودوت بانه يملأ النيل . وان سكان العاصمة المصرية لا يعرفون طعم النوم بسبب بكاء التماسيح . وقد ظل العالم كله يتصور أن التمساح يملأ النيل حتى ان زعيما عالميـا كبيرا سأل الرئيس عبد الناصر ان كانت التماسيح ما تزال فى مياه النيل عند القاهرة ؟ !

ولم يكن حيوانا مقدسا عند كل المصريين . فالناس فى «اسوان» كانوا لا يكنون له احتراما كافيا . كانوا ياكلونه . وقد جاء فى احدى الاغنيات المصرية القديمة أن واحدا يقول ما معناه : اقوم من النوم أقول يارب عدلها ، بلد حبيبى قصاد عينى ومش قادر اعدى لها .. وكان المصرى القديم يقول : بلد حبيبتى أمام عينى ولكن لا استطيع ان اذهب الى حبيبتى . ان التماسيح فى المـاء ولكن حبى جعل التماسيح ضفادع .. ثم جعل الضفادع فتاتيع فى المـاء . ولا بد أن اذهب الى حبيبتى » .

وكان المصرى القديم اشجع واصدق واكثر استعدادا للتضحية . اما المصرى الجديد فهو قد افتعل صعوبة العبور الى حبيبته ليشكو. فهو قادر على أن يذهب الى حبيبته ـــ ان كانت حبيبته ـــ فلا مشاكل فى المواصلات ولا تماسيح فى النيل ..

وفى « كتاب الموتى » الفرعونى اجد كلاما كثيرا عن « القط » الذى يمزق الافاعى تحت الاشجار المقدسة . ومن الغريب اننا لا نجد رسوما كثيرة للقط فى المصاطب القديمة . وربما كان أول ذكر للقط قد جاء قبل الميلاد بعشرين قرنا عندما عرفنا أن زوجة أحد رجـال بلاط الملك منحوتب الاول اسمها « بوسى » . وان هذا القط جاء الى

مصر من الغرب ومن الجنوب . وهناك رسومات كاريكاتورية تبين الفنان المصرى وهو يتسلى أو هو يحاول أن يجد الموعظةالاخلاقية. فهناك صور لجثث من الفئران تهاجم قطا محاصرا فى قلعة . وهناك فأر عملاق امام قط مربوط بالحبال !

أما الكلب فهو من اخلص الحيوانات للانسان ، ولذلك استحق منه عظيم الاحتقار . وقد جاء خطـــاب بعث به موظف مصرى قديم يعيش على اطراف الوادى : انه لا يكاد يفتح باب بيته حتى يتقـــدم له ۲۰۰ قط و ۳۰۰ كلب متوحش و ۱۰۰ ذئب . كلها تقف امام بابه، فلا هو قادر على أن يخرج ولا هو قادر على أن يربى ماشيته ولا على أن يأكل .. أما النوم فهذه مشكلة المشاكل !

والحمار افريقى الأصل . وهو لا يزال فى مصر كما كان من آلاف السنين . والحمار كالكلب استحق احتقار الانسان ايضا . وأول مرة رأينا فيها رسما لحمار كان هكذا : حماران احدهما يمشى وراء الآخر وأمام الاثنين جحش صغير . وقد رأينا كرســـيا على ظهر الحمار الاول . ولم يشأ الرسام أن يبين لنا ما الذى يحمله الحمـــار الآخر .. ولكن لابد انه يحمل شيئا مماثلا .

ويقال ان المصريين وصفوا أحد ملوك فارس بأنه : ملك حمار . فما كان من الملك الفارسى ارتكسركس الثالث الا أن اقام احتفـــالا للعجل ابيس ، ووضع حمارا بدلا من هذا العجل وغضب المصريون وثاروا ! !

ويقال ان المصريين القدماء كادوا يحرقون مدينة الاسكندرية ذات

الطابع الاغريقى والتى تقام فيها تماثيل ادوليس وافروديت ، لأن احد الرومان قد قتل قطا !

اما الحصان فالمصريون قد عرفوه أيام الاسرة الثامنة عشرة . ويقال ان الحصان قد اتى به الهكسوس — وهم ملوك الرعاة . ولكن ليست هذه حقيقة مؤكدة . فمن المعروف أن الحصان قد استخدمه البابليون قبل ذلك بوقت طويل . وعندما دخل الهكسوس الى مصر ، كان الحصان قد سبقهم اليها . ولا يزال الحصان يحتفظ بالاسم العربى القديم : سوسيم — اى خيول . والعربات اسمها : مركبوت .

أما الجمل فلم يدخل مصر الا فى عهد الرومان ..

والمصريون قد عرفوا الخيول التى تجر العربات قبل أن يعرفوا ركوب الخيول نفسها . وفى متحف اللوفر لوحة مشهورة اسمها لوحة النسور . ففى هذه اللوحة بعض النسور تحوم حول جثث القتلى بينما نجد احد ملوك سومر يركب عربة يجرها حصان . وكان ذلك قبل الميلاد بعشرين قرنا اى على أيام حامورابى ..

والخيول حيوانات مفضلة عند الاغريق . فهم يرون أن الحصان: حيوان نبيل جميل . وان الحصان لابد ان يكون الآلهة قد صنعوه بايديهم مباشرة . اى انهم لم يكلفوا احداً من صغار الآلهة بصنعه .. وكان الاغريق يفضلون الحصان لأن فيه تمردا اى نزوعا الى الحرية . فهو جميل نبيل حر . وكلما كان الحصان شرسا ، كان ذلك مجالا وتحديا للانسان ان يستأنسه فاذا فعل فهو بطل . الاسكندر

الاكبر مثلا كان له حصانه المشهور بوسيفالس . ولم يكن احد يقدر على ركوبه . ولكن الاسكندر استطاع عندما اتجه بحصانه ناحية الشمس . والشمس هى التى جعلت الحصان اقل انطلاقا . ولم يكن هناك شيء اعز عند الاسكندر من هذا الحيوان الجميل . فلما مات حصانه اقام له المدن باسمه . واقام مدينة فى نفس المكان الذى دفن فيه رمزا للوفاء . فقد حمله هذا الحصان حتى الهند !

واتخذ الشعراء والفنانون الكثير من الحيوانات مادة لاعمالهم الفنية . فهم يختارون للحيوانات ادوارا فى الحياة الاجتماعية والسياسية للانسان . ويجعلون للحيوانات حياة تنقذ حياة الانسان. والمؤلف المسرحى العظيم اريستوفانيس له مسرحيات : الغربان والضفادع والطيور .. وقد استخدم هذه الحيوانات للسخرية من الانسان . وقد فعل ذلك كثيرون من الادباء فى كل العصور .

والكاتب اليونانى سيمونيدس عندما يتحدث عن اصل المرأة يقول ان هناك اربعة انواع من النساء : نوع جميل نبيل انحدر من الخيول . والثانى هو الذى لا يكف عن العمل ، ولابد انه انحدر من النحل . والنوع الثالث هو الذى يدفن نفسه فى الانجاب وهو الذى انحدر من بذور القمح . والنوع الرابع القذر الدنيء ولابد ان يكون قد انحدر من كلبة ــ ولا تزال كلمة « كلبة » فى اللغة الانجليزية احط انواع الشتائم .

وهناك الفنان اليونانى الشهير ايسوب . كان عبدا واطلق سراحه. وظل يرتقى حتى اصبح سفيرا . وقد روى قصص الحيوانات ونوادرها وهو لا يرفع عينه عن الانسان وسفالته وانحلاله الخلقى.

ويقال ان ايسوب هذا قد هاجم رجال الدين . ودبر له رجال الدين مكيدة . فعندما زار معبد الفن افلح رجال الدين ان يضعوا كوبا من الذهب فى ملابسه . ثم ضبطوه وحوكم . وتقرر اعدامه قذفا من احدى الصخور ، فمات غريقا !

ـــ وظل الانسان الوف السنين ينظر الى الحيوانات على انها كائنات ناقصة التكوين ترى ولا تعرف كيف تعبر . أو اذا عبرت كان ذلك فى صمت . وراح الانسان يفسر سلوك هذه الحيوانات كما يفسر سلوكه هو . ولكن رجلا عبقريا فذا اسمه أرسطو هو الذى أرسى قواعد علوم باكملها بعقله الجبار . فهو بدأ ينظر الى الحيوانات ويلاحظ سلوكها . ويقارن بين بعضها البعض .. فهو الذى ادرك أن حيوانات لها دم وحيوانات لا دم لها .. حيوانات لهـــا فقرات وحيوانات بلا فقرات .. حيوانات تلد وحيوانات تبيض .. وهو أول من اشار الى أن هناك علاقة بين بيض الدجاجة وبين الديك. وهذا يكفيه جدا ان يقول ذلك منذ ٢٥ قرنا . وقد احصى ارسطو فى كتابه « التاريخ الطبيعى » حوالى ٥٠٠ حيوان .

ويقال أن الاسكندر الاكبر هو الذى كان يبعث اليه بالحيوانات والنباتات العجيبة من كل مكان يذهب اليه . ولكن هذه الحيوانات مهما بلغ عددها لمتكن سببا كافيا لانيهتدى ارسطو الىهذهالحقائق الحيوية . لقد اخطأ ارسطو كثيرا فى الاستنتاج . ولكن هذه اخطاء تعتبر تافهة اذا قورنت باكتشافاته العظيمة فى علوم الحياة ووظائف الاعضاء . لقد اخطأ فى عدد الاسنان وعدد الضلوع وعدد الفقرات .. ولكن اشاراته الى الحياة فى بطن الام ، هى الخطوات الاولى الباهرة فى العلم الذى سوف يظهر بعد ذلك باسم « علم الاجنة » .

وعندما سئل ارسطو فى احدى المرات : ما الذى تفعله بالضبط مع هذه الحيوانات والنباتات ؟

قال : لا شىء . اننى فقط اعلمها كيف تنطق باللغة اليونانية لعلى افهم شيئا مما تقول . ولكنها مع ذلك لا تقول كثيرا !

سوف تقول اكثر فيما بعد !



علمته وتعلمنا هذه الحيوانات !

ثلاث مراحل مرت بها الانسانية ..
مرحلة : اكلنا الرغيف وتفرقنا !
اى كل ما كان يجمع بيننا هو لقمة العيش .
ومرحلة : اننى اعــرف جانب الرغيف الذى اضع عليه الزبدة .
فهنـــاك اكثر من الرغيف .. ثم ان للرغيف جانبين ، وانا لا آكل الزبدة لاننى وجدتها . ولكنى استطعم الزبدة واختار لها المكان المناسب .
ثم ان عندى متسعا من الوقت !

ثم مرحلة : كل ما أطلبه من هذه الدنيا هو الرغيف والفرفشة !

اى آكل رغيفى وابسط نفسى بالضحك واللعب والحب . وبعد ذلك لا شىء . ويجب الا يكون هناك اى شىء آخر .

الأديب الرومانى القديم الساخر جوفينال قال : ما الذى يريده هؤلاء .. العمال .. لا شيء الا الرغيف والذهاب الى السيرك !

ولم يكن جوفينال يحترم العمال وانما يحتقرهم . فهو يرى أن الذى يعمل بيديه لا رأس له . فقط يأكل ويحب . ولا قيم أخلاقية ولا دينية ولا مثل عليا ولا طموح !

ولكن جوفينال من ١٩ قرنا كان ظالما . فهؤلاء العمال كانوا يطلبون الخبز ، لأنهم لو طلبوا شيئا آخر ما وجدوه ، لو طلبوا اللحم مثلا ، فمن أين يشترونه لو وجدوه فى الأسواق . فلم تكن الحيوانات متوافرة فى ذلك الوقت . لأن اللحوم ما تزال طعـــام القادرين . أما الفقراء فليس لهم الا الخبز والضحك على الأغنياء والسخرية من فقرهم — ولا تزال هذه مشكلة مئات الملايين فى العـــالم .

* * *

وما حدث فى الحرب العالمية الثانية دليل جدا على ذلك . ففى اثنـــاء هذه الحرب ماذا جـــرى ؟ الجنود وحدهم هم الذين يجدون اللحم . وطبيعى الا يبخل أحد عليهم بذلك . فقد ذهبوا يقـــدمون ارواحهم من أجل الآخرين .. ثم ان عمـال مصانع الذخيرة ارتفعت اجورهم واصبحوا قادرين على شراء الرغيف واللحم ومع ذلك فان امريكا نفسها قد وزعت اللحوم بالبطاقات !

فكانت اللحـــوم نوعا من الترف . لأن الأرض لا تســـتطيع أن تطعم كل الحيوانات . والحيـــوانات لا تستطيع أن تشـــبع كل الناس . والأغنياء فى الدنيا يمـــلأون موائدهم بلحوم الحيوانات

والطيور والأسماك ، والفقراء يلتقطون فتات الخبز . ومع بداية حرب الطبقات فى التاريخ ، اتخذت الحرب شكل الصراع بين الخبز واللحم .

ففى المدن الأغريقية القديمة ، كان لابد أن يجد الأغنياء وسيلة للحصول على اللحوم ، فزرعوا المراعى .. أو تركوا الحيوانات تأكل الأعشاب والغلال والأشجار ، ولم نجد فى الأدب الاغريقى القديم حديثا كثيراً عن الحيوانات ولحومها وطعامها وطعامهم .

ولكن عند الرومان نجد هذا التخصص فى الاستمتاع بالطعام ونقرأ نثرا وشعرا عن الخبز والقبلات واللحم .

(ومن المناسب هنا أن أنبه الى اننا الآن نتعلق من ذيل بقرة او جاموسة أو كلب ونمشى معه أو وراءه فى تاريخ الانسان .. فأنا وأنت معا نقرأ « بصمات » الحيوانات على عقل وقلب ومعدة ملايين الناس فى ألوف السنين — انتهى التنبيه الذى اضفته حتى لا تنسى ولا أنسى أنا أيضا عن أى شىء نتكلم منذ أسبوعين وفى الأسابيع التالية .

وهذا يذكرنى بما قاله داروين عندما وجدوه يجمع الأصداف وجذور النباتات وجماجم الحيوانات فقال : لا شىء سوى أننى أقفز من شجرة الى شجرة وراء قرد فيه شبه كبير جدا بالانسان) ! ..

* * *

نعود الى صورة غريبة لرجل عظيم مات منذ أكثر من عشرين قرنا . هذا الرجل اسمه « لوكولوس » . هذا الاسم يتردد فى كتب كثيرة فى التاريخ . ففى تاريخ المعارك كان قائدا عظيما .

ذهب بقواته الى أرمينيا وهزمها . وسحقها ومات من جيشه خمسة من الضباط وجرح مائة جندى . جيشه كله كان ١٨ الفا . هذا الرجل عندما اتجه الى روما توقف عند احدى المدن الأرمنية وبكى ، فقد أحالها جنوده ترابا !

هذا الرجل أيضا كان يحب الكلام ، أو يحب الكلام اثناء الطعام. وهو أول من قال : ان الكلام يساعد على الهضم . وكان سابقا لعصره بعشرين قرنا . فالأطباء اليوم يرون أن الجلوس الى المائدة يجب أن يطول قدر استطاعتك فلم تعرف الانسانية قرحة المعدة الا عندما عرفت السندوتش . أى عندما عرفت الأكل أثناء المشى وأثناء القراءة وأثناء العمل وأثناء الفرجة على المسرح وعلى السينما وعلى التليفزيون .. ولم تعرف الانسانية أوجاع المصران الغليظ الا عندما عرفت الموائد الصغيرة فى المطاعم اذ يجلس الزبون وحده وقد أدار وجهه الى الحائط . وهو قد أدار وجهه الى الحائط لأنه مشغول بهمومه الخاصة . وهو ــ ككل أبناء المدن الكبرى ــ حريص على أن يكون مع همومه وحده .. وتتأكد له هذه الوحدة ، والقرحة أيضا !

* * *

وهذا الرجل أيضا عندما توفى حاول الناس أن يدفنوه فى احتفال ضخم . ولكنه قد سبقهم جميعا وأوصى بأن يموت على مزاجه . فطلب الى أقاربه أن يملأوا قبره بالتفاح وأن يتغطى به وبالورود!

وبعد وفاته جاء الصيادون وجمعوا من البحيرات التى أنشأها حول قصره ٢٥ الف كيلو سمكا !

واذا جاء ذكر الفلاسـفة فلم يكن هذا الرجل مفكرا عظيما . وانما كان عاشـقا لكل صاحب فكر عظيم . وكان اذا أراد ان يتحدث مع احد طلب اليه أن يزوره فى بيته . فاذا جاء الى البيت راح الاثنان يأكلان ويشربان ومن المؤكد انه قد شهد ميلاد الكثير من القضايا الفلسفية والاجتماعية والسياسية . وكان يضحك دائما ويقول : مساكين هؤلاء الفلاسفة . انهم لا يجدون ما يأكلون واذا وجدوه لا يستطعمونه . انهم اناس لديهم مشاكل فى احشائهم — ولم يكن فى هذا مبالغة . بل كان سابقا لعصره بمئات السنين!

لأسباب أخرى يهمنا هذا الرجل لوكولوس . فهو أول من ابتدع « البيسين » .. أى حفر الارض وملأها بالماء . ثم القى فى الماء الأسماك . وكلمة « بيسين » معناها فى اللاتينية حوض السمك. وهو كان حريصا على ذلك لانه يريد أن يأكل السمك طازجا . وكان يأتى بالأسماك من اماكن مختلفة من العالم . وهو ايضـا أول من ابتدع « الكباريه » .. فهو قد صنع كهوفا تحت الأرض .. واضاءها .. وجعل الراقصات والمغنيات يفرفشن الضيوف .. ثم أول من جعل الحيوانات تمر بين الصفوف ليتفرجوا عليهـا . وكان يأتى بالحيـوانات والطيور النـادرة من أفريقيا . وكانت الكهوف ملونة . وكانت عليها نقوش للآلهة وأسـاطير الاغريق وأساطير الشعوب القديمة .

وهو أول من اتى بثمرة الكريز من البحر الأسود . وقـدمه لضيوفه .

. وهو أيضا أول من اتى بالحيوانات المفترسة وأطلقها فى غابة لها أسوار . فكان أول من اقام حديقة حيوانات فى أوروبا . وهذه

الفكرة مأخوذة عن الشرق ، فقد كان من عادة الملوك فى الشرق ان يحتفظوا فى حدائقهم الخاصة بالحيوانات النادرة . وعندما جاء الاسكندر الأكبر الى الشرق كان يضع الى جوار خيمة القيادة أسدا أسيرا — رمزا لقوته هو ، وأنه سوف يفعل نفس الشىء مع أعدائه !

وكل هذه العناية بالحيوانات والطيور والأسماك كان من أجل متعة الأغنياء والحكام . ولذلك كان النـاس — ولا يزالون الى حد ما — يحتقرون صناعة الجزارة . لأنها قتل للحيوان بينمـا الأغنياء يفضلون أن يبقى الحيوان حيـا . فهم ليسوا فى حاجة اليه . أو أن لديهم ما يكفيهم . ولذلك يجب أن يتفرجوا ويستمتعوا. فأكل اللحوم ليس مشكلة . وانما هم انتقلوا من مشكلة الطعام الى الاستمتاع به والتفرج على الذى زاد على حاجتهم !

ومن الغريب أن الرومان كانوا يشربون البـان الحيوانات . ويصنعون منها الجبنة .. ولكنهم يحتقرون من يأكل الزبدة .. ولكن هذا المعنى تغير عندما اهتدت احدى الغانيات الى أن الزبدة اذا وضعت على الوجه أو على البشرة فانها تجعلها ناعمة لينة. فارتفع ثمن الزبدة ، وأصبحت الزبدة هى صناعة كل البيوت ، ومطلب كل النسـاء .. ووجدنا فى الأدب اللاتينى مثـل هـذه العبارات : انها زبدة .. انها تذيبك كمـا لو كنت زبدة .. ان بشرتها لم تعرف الزبدة . انها هكذا خلقها الله !

وعرف الرومان أيضا « حظائر » الأبقـار . فكانوا يحبسون الثور مع سبعين بقرة . ويشترطون أن يكون الثور ابن سنة أو ابن سنتين على الأكثر . أما الثيران التى تزيد أعمارها عن ذلك

فانهم « يعقمونها » ويطعمونها لتزداد سمنة فيتكدس لحمها على موائد الأغنياء والقواد ..

* * *

يقول لوكولوس وهو يهذى على فراش الموت : يا خسارة لم تشأ الآلهة أن تجعل لى معدتين . لعلها أرادت الرفق بالفقراء وبالحيوانات وبالطيور وبالأسماك وبمعشوقاتى .. لو كانت الآلهة تجيب لى طلبا أخيرا فاعرف منها ما الذى سوف يأكله الناس فى بيتى وهم يبكون حزنا على فقد صديق ظريف كريم .. ثم ينسون هذا كله وهم يشربون النبيذ ويتفرجون على الراقصات .. أننى اعرف أن المائدة سوف ينقصها المرح وسوف ينقصها ذلك الرجل الضخم الذى كان زينة المجالس .. والذى ذاق كل شىء فى دنياه.. وحصل على كل ما يريد .. وحقق كل غاياته من الدنيا .. ولكن الآلهة بخلت عليه أن تكون له معدة أخرى .. ادفنونى .. ضعوا سكر القصب فى فمى .. بل لا أريد قصب السكر وانما أريد عسل النحل فانا لست مريضا . وانما ميت من شدة الشبع واللذه .. انتهيت » !

وكان من عادة الرومان أن يعالجوا مرضاهم بقصب السكر الذى جاءهم من الهند . أما عسل النحل فهو المصدر الوحيد للسكر عندهم .. أو للحلاوة . وكان هذا طعام الشعب . وقد عرف الفراعنة فوائد العسل قبل أن تعرفه كل شعوب العالم. فالفراعنة كانوا يضعون العسل على الدمامل وعلى الجروح . وكانوا يضعونه فى العين . وكانوا يضعونه على البشرة ليجعلها ناعمة . وكانوا يحنطون به الموتى . ولم يكن الفراعنة يعرفون ما الذى سوف يكشفه العلم الحديث بعد ذلك من أن العسل قاتل لأى ميكروب . ولكن الفراعنة اهتدوا الى ذلك من التجربة .

وربما كان شمشون الجبار أول من لاحظ أن أسدا ميتا متعفنا ومع ذلك جاء النحل واقام خلية فى هذا الجسد الكريه الرائحة . ومن هنا كانت الفزورة التى دوخ بها شمشون ابناء غزة عندما قال : ما هو الحى فى الميت . وما هو الحلو فى المر ؟ ولم يعرف أحد كيف يجيب على ذلك . ولكن دليلة راحت الى شمشون واغرقته بالقبلات والأحضان . وعرفت تفسير هذا اللغز بعد أن قصت شعره ، الذى هو مصدر قوته ، قال لها : الحى فى الميت ، هو النحل فى جثمان الأسد الميت .. والحلو المر هو العسل فى جسمه المتعفن !

ومضت مئات السنين لنعرف أن عفونة جسم الأسد لا تنتقل الى طعم العسل . فالعسل قاتل لكل ميكروب !

وفى أمريكا نجد أن شركات كبرى تنقل النحل بالملايين من حديقة الى حديقة . ليقوم النحل بتلقيح الزهور . ثم تجمعه وتعيده الى مكانه .. وقد عرف الفراعنة ذلك من الوف السنين . فقد كان الفراعنة يأتون بملايين النحل فى احدى السفن . ويقفون عند المدن ويتركون النحل ينطلق الى الحقول والحدائق ، يجمع رحيق الزهور ويلقحها .. ثم ينقلونه فى النيل الى أماكن اخرى وهكذا !

* * *

وعرف الاغريق والرومان والفراعنة ضرورة ذبح الحيوانات تقربا للآلهة . ولكن الرومان ذهبوا الى أبعد من ذلك . فكانوا لا يكتفون بتقديم الذبيح ، وانما يجيء الرجل العراف ويفتح بطن

الحيوان وينظر الى الأمعاء . ثم ينظر الى الـكبد . ومن شكل الأمعاء يعرف مستقبل صاحب الذبيحة . ومن حجم الكبد ولونها وشكلها يعرف كم يكون عمر صاحب هذا القربان . وكانت قراءة الامعاء والكبد ، نوعا من قراءة الكف . ومن الغريب أن الرومان تفوقوا فى ذلك . بل ان احد العرافين قال ليوليوس قيصر : اليوم اسوأ يوم فى حياتك . اجلس فى بيتـك سوف تجىء الأنباء تحت قدميك .. فلا ترفع سيفك على أحد .. ولكن غدا سوف تسمع اسعد نبأ فى حياتك ان شكل كبد الخنزير يؤكد ذلك . ولو كنت نبحت الخنزير قبل هذا الثور لجاءت أخبارك السـعيدة أولا . وفى نفس اليوم تآمر بعض الرومان على أعز صديق ليوليوس قيصر فقتلوه وهو مخمور . وفى اليوم التالى انجبت احدى عشيقاته طفلا ذكرا . وكان هو يتمنى ذلك !

ولا يزال بعض العرافين فى افريقيا يعرفون الطالع من مجـرد النظر الى ريش الطيور وقد تراكم على الأرض .. أو عظام الطيور وقد القيت على الأرض فجاء ثعلب او ذئب وقلب فيها بأرجله ولم يذقها .. ولا يزال العرافون فى هونج كونج يعرفون مستقبلك من قطعة اللحم النيئة الدامية اذا أنت قلبتها فى طبق ثم هززت الطبق . وتركتها . من مجرد النظر الى وضعها فى الطبق وشكل الدم حولها يستطيع العراف أن يحدثك عن مستقبلك !

واهتدى الرومان الى ضرورة ان يشغلوا الشعب بشىء . وكان الشعب مشغولا بالخيول . وسـباق الخيول وسباق العربات . وأقام الرومان « مسارح » لسباق العربات .. واشهرها ملعب

كولسيوم فى روما الذى يتسع لتسعين الف متفرج . وكانت العربات تجرها الخيول ويتفرج عليها الناس ويتعصبون لحصان معين .. أو لأسره معينة .. او لسائق أو لصاحب خيول . وكانت تربية الخيول هواية وتجارة الأغنياء . وقد أقيمت للخيول اصطبلات واسعة وفخمة . واتى الأغنياء بمربين للخيول من آسيا .

وكان من المألوف أن يرتدى سائق العربة زيا أحمر او أخضر او أزرق .. وينقسم الناس الى مشجعى الأحمر او الأخضر او الأزرق واختفى اللون الأخضر . وأصبح الناس فريقين مقامرين ويتقاتلون. وتحول الاختلافات على الخيول الى اختلاف فى السياسة وفى الدين. وكانت هذه الخلافات حادة وأستهلكتهم وابعدتهم عن السياسة . واستراح الاباطرة الرومان الى ان هذه المسابقات قد استغرقت الناس فشجعوهم على ذلك .

ولكن حدث أن قامت مظاهرات عنيفة فى القسطنطينية بين مشجعى « الفانلة الحمراء » — النطق الصحيح « فالنة » لأنها كلمة انجليزية وفرنسية وايطالية وألمانية — ومشجعى « الفانلة الزرقاء » . وقرر الامبراطور جوستنيان فى يناير سنة ٥٣٢ أن يعصف بهذا العبث الرياضى السياسى . وجمع فريقا من الطرفين. وهددهم . ولكن الجماهير تظاهرت والتفت حول قصر الامبراطور . وكاد يهرب من المدينة لولا أن زوجته الماكرة ثيودورا طلبت اليه أن يقول للجماهير شيئا . فقال اننى لا اعترض على الفريقين ولكننى أحب الفريق الأخضر الذى ليس له مشجعون !

وفرحت الجماهير بانها اغلبيـــة والأمبراطور اقليـــة .. وبان الامبراطور ايضا يحب مسابقة الخيول !

ولكن ثيودورا ابنة رجل مشغول أيضا بتربية الخيول ومجنون بمشاهدتها .. ولكن جوستنيان انزل قواته وقتل ثلاثين الفا من مشجعى هذه الرياضة فى يوم واحد !

* * *

ولم يكتف الانسان الذى يريد أن يمزج اللذة بالألم ، والمتعــة بالقسوة من الفرجة على الخيول . وانما أتى بالحيوانات المتوحشة من افريقيا وأطلقها بعضها على بعض . والنـــاس يصرخون من الفزع ومن اللذة . اطلق الأسود على النمور . وأطلق الذئاب على الكـــلاب . ثم أطلق كل هـــذه الحيـــوانات على المجرمين وعلى المعارضين السياسيين . والناس يصرخون فى متعة ، أو يستمتعون فى صراخ . ويطلبون المزيد ..

واول مصارعة بين الانســـان والحيوان شـــهدتها روما كانت فى سنة ١٨٦ قبل الميلاد . وكان ذلك بعد غزو الرومان لسوريا . ولكن هذه الرياضة الدموية قد أتى بها الرومان من العراق . فقد كانت منتشرة قبل ذلك بمئات السنين .

والى جانب هذه اللذات العنيفة : ذبح الانسان للحيوان ، وذبح الحيوان للانسان ، عاد الرومان الى رياضات هادئة . عادوا الى

عربات الخيول ولكنهم علقوا فيها الجمال . الامبراطور نيرون أول من فعل ذلك . ثم عادوا الى الغزلان وعلقوها فى العربات . والنمور والأسود .. ثم الفيلة .

والاسكندر الاكبر قد شاهد الفيلة فى معاركه . وخصوصا فى الهند . ولاحظ الاسكندر ان الفيلة شكلها مخيف . ولكنها تعوق الحركة . ولذلك أمر جنوده بأن يحتموا فى الفيلة ويطلقوا سهامهم ونبالهم على العدو . ثم اهتدى الاسكندر الى حيلة وذلك بأن يجعل الفيلة فى مواجهه العدو ثم يكويها فتنطلق هائجة تمزق خطـوط عدوه وتأخذ معها فيلة اعدائه أيضا . وعدل عن استخدام الفيلة فى المعارك . واكتفى بأن جعلها تنقل الخيام . وكان له فيل مشهور اطلق عليه اسم « اجاكس » . ويقال أن هـذا الفيل كان يرفع الاسكندر من الأرض ليحيى جنوده ولم يكن يفعل ذلك لأحد سواه !

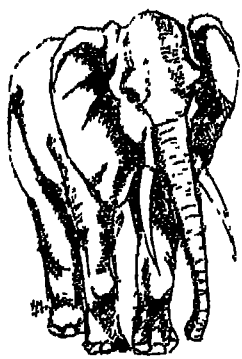
والقائد هانيبال عنـدما ارهب أوروبا بقواته كان يدفع امامه خمسين فيلا .. ولم يصل منها الى نهر الرون فى فرنسا سوى ثلاثين فيلا ولما عبر بها جبال الألب لم يبق منها سوى ثمانية .. وعندما هبط جبال الالب . لم يبق سوى فيل واحد .. ولكن الرومان كانوا قد أستعدوا له أيضا بعـدد من الفيلة .. ثم عـدل الجميع عن استخدام الفيلة ونقلوها الى السرك للفرجة عليها ..

* * *

نعود لآخر مرة الى القائد الاكول لوكولوس . فقـد سئل فى احدى ولائمه وهو يقلب عينيه ويديه بين الطعام والشراب والثمار ويقول : نحن حقيقة أولاد حيوانات .. فالحيوانات تأكل النباتات

ونحن نأكل الحيوانات .. ثم نحن نموت فى الأرض وعلينـــا تنمو النباتات .. وسوف يجيء يوم تأكلنا الحيوانات حتى نفنى ، فتعيش الحيوانات على النبات حتى تفنى فيأكل بعضها البعض ولا يبقى أحد فى هذه الدنيا .. لماذا ؟ لأن هناك معـــدة تأكل معـــدة أخرى .. والأرض هذه هى اكبر معدة عرفناها !

وكان هـــذا الرجل الذى اشتهر بأنه صاحب اكبر معـــدة فى التاريخ ، سابقا لعصره ولكل الأطباء وعلماء الحيوان والنبـــات والفلك ، لأنه لم يرفع عينه ولا يده عن هذه الحيوانات ؟ !



وراء جنكيز خان

ربع مليون حصان !

لو جاء هؤلاء الوحوش سيرا على الاقدام لاستراحت منهم اوروبا مئات السنين — عبارة قالها مؤرخ اغريقى وهو يصف هجرة القبائل البدائية الآسيوية فى القرن الرابع الميلادى . فهذه القبائل قد تركت بلادها متجهة الى أوروبا غربا ، ومتجهة الى الجنوب . وليس معروفا بوضوح لماذا هاجرت هذه القبائل . ولكن المعروف انها قد ركبت الخيول فكانت حركاتها اسرع واخطر .

وقد وصف المؤرخ الاغريقى هؤلاء الآسيويين بأن اشكالهم دميمة . وشعورهم منكوشة . وانهم لا يأكلون الا اللحم النىء وانهم لا يغسلون ايديهم أو وجوههم . ويرون فى منظر الدم دليلا على النعمة وعلى الثراء . ويعيب عليهم انهم يحبون الذهب وانهم من اجل الذهب يبيعون الابن والزوجة والحصان ، وربما كان هذا التقديس للذهب هو الشىء الوحيد الذى يربطهم ببقية الانسانية ! . .

وهي صورة كاريكاتورية . والحقيقة ان هذه القبائل الاسيويه راكبة الخيول ، عندها قدرات هائلة على القتال وعندها شجاعة . وعندها تراثها الفني والادبي وطقوسها الدينية .. وهؤلاء « الوحوش » أكثر حضارة من « البرابرة » الاوربيين في ذلك الوقت.

وبسبب هذه الخيول التي لديهم اقاموا امبراطوريتهم بسرعة وجعلوها واسعة أما هذه الخيول التي ركبوها واقاموا عليها قوتهم وعروشهم فهي متوسطة الحجم . صغيرة الراس طويلة الشعر ، وظهورها سريعة الانحدار . وسيقانها قصيرة . ولا تحتاج هذه الخيول الى ماء كثير اذا سارت في الصحراء . وهؤلاء « الوحوش » الآسيويون ككل الرعاة يعيشون على اللبن والنباتات والثمار ولا يأكلون اللحم . فاللحم هو الخيول . والخيول قوتهم في القتال والهرب .

وفي ذلك الوقت سقطت الامبراطورية الرومانية القوية . لماذا ؟ يقال أن الخيول رفست هذه الامبراطورية فسقطت . وهذه عبارة مبالغ فيها الى حد كبير . فسقوط الامبراطورية كان لاسباب كثيرة. ولكن هذه الخيول الزاحفة بمئات الالوف قد عجلت بانهيار الامبراطورية الرومانية . لان هذه « القوات المحمولة » على اربع والقادمة من قلب آسيا هي التي هدمت الامبراطورية الرومانية . ولم يكن الرومان في ذلك الوقت قادرون على مواجهة الزحف الاسيوى كما أن الرومان كانوا يجهلون او يتجاهلون قدرة الخيول ، والفرسان والفروسية . فالجيش الروماني به فارس واحد لكل عشرين جنديا .. أو به حصان واحد أبيض يركبه القائد العام ! ولذلك فالجيوش الرومانية ابطأ في الحركة وفي الهجوم وفي الانسحاب .

وقد وجدنا في التاريخ ان الفرسان الجرمان يطلقون على أنفسهم كلمة « ريتر » ومعناها : راكب .. فراكب الحصان هو الفارس . وكان الرومان يسمون راكب الحصان « أكويس » — وهي كلمة

لاتينية معناها راكب . ولكن ليس كل من ركب الحصان فارسا . ولذلك كان الاسيويون « فرسانا » وكان الاوربيون « ركابا » فقط !

وفى أوربا فى ذلك الوقت كانوا يطلقون اسم الفارس على كل من يركب الحصان أو يملكه . ولم يكن يملك الخيول الا الاغنياء أو النبلاء . وكان الرجل الحر هو الذى يركب الحصان . فهو يستمد حريته من قدرة حصانه على الحركة والجرى والهرب .. ومن التعبيرات الشائعة فى ذلك الوقت : اركب حصانك .. أليس لك حصان ؟ لو كان عندى حصان ما رضيت بهذه الحياة دقيقة واحدة ! ركب فلان اسرع خيوله وهرب ..

وجاءت القوات الاسيوية الراكبة واسقطت الامبراطورية الرومانية الواقفة أو الماشية أو الجالسة !

وظل الحصان مصدر القوة العسكرية فى أوربا ألف عام بعد ذلك . وكان سلاح الفرسان هو السلاح الافضل . وكان سلاح ابناء الذوات والنبلاء . فالجندى يرتدى بدلته المدرعة ويركب حصانه .. والبدلة غالية والحصان اغلى والموت بعيد عن هذا الفارس . ولا يستطيع أحد أن يحمى نفسه هكذا الا اذا كان غنيا . فالمشاة فقراء والفرسان أغنياء !

ولم تكن الخيول الاوربية الا حيوانات غليظة ضخمة . خطواتها ثقيلة . وأشكالها دميمة .. ولكن أوربا عرفت بعد ذلك أن تستورد هذه الكائنات الجميلة النبيلة من شمال افريقيا ومن شبه الجزيرة العربية . ومن منطقة نجد . وظهرت الخيول العربية بأجسامها الممدودة الانسيابية ورشاقتها وروعتها .. ولم يعرف الاوربيون هذه الكائنات الرائعة الا بعد أن اتصلوا بالعرب .. وقرأوا عن عشق العرب لهذه الخيول .. بل أن أمير

الشعراء الانجليز روبرت جريفز يؤمن بأن الادب العربى لم يعرف معنى « الفروسية » الا من العرب . فالعرب هم أول من اهتدى الى أن الفارس ليس من يركب الحصان . وانما هو الذى له شجاعة الحصان ونبله وكرمه واحترامه للعواطف الانسانية . والفارس هو الرجل الشهم . أو العاشق الذى يضحى بحياته من أجل محبوبته . وهو الذى يرى أن الحياة هى الحب . والحب هو الحياة . والحياة هى ان يموت الفارس من أجل المحبوبة . يكفى أن تراه يتعذب فتسقط على جثمانه دمعة واحدة . بل ان دمعة واحدة كثيرة . لانه يرضى بأقل من ذلك .

ويقول روبرت جريفز ايضا : ان أوربا لم تعرف معنى الحب العذرى أو الحب العفيف أو الحب « الأفلاطونى » الا من العرب . فعند العرب قبيلة اسمها قبيلة « بنى عذرة » . هذه القبيلة قد نذرت نفسها للحب الشريف . وهذه هى الفروسية .

ويقول روبرت جريفز ايضا : ان الشعراء المتجولين « الطروبادور » أى شعراء الطرب — لم يتعلموا فن الصعلكة النبيلة الا من الادب العربى . فالشاعر العربى لا يكتفى بأن يتعذب من أجل المحبوبة ، وانما يروح ينقل عذابه للآخرين . فيتجول من مكان الى مكان ويروى للناس كيف انه لم ير الا ثوب محبوبته .. طرف ثوبها .. وهو لا يفضحها وانما هو يتغنى بها ويقيم لها حفلات التكريم .. فهو محطة اذاعية .. هو فيلم .. هو اسطوانة تدور فى كل مكان . هؤلاء الشعراء كانوا فرسانا ، يركبون الخيول .. وفيهم أخلاق الخيول : شموخ وجمال وصمود واستعداد للتضحية !

وفى التاريخ الاسلامى نجد الرسول عليه السلام كان يركب الناقة وكان يركب الحصان . وكان — ككل العرب — يدعو الى

حب الخيل والى اقتنائها . وهو الذى قال : « الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة » . وكان يدعو ابناء المسلمين الى ركوب الخيل .. وعندما أسرى الله به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى تقول كتب السيرة انه ركب « البراق » وهو حيوان متوسط فى حجمه بين الحصان والحمار .. وفى المكان الذى وقف فيه البراق أقام عمر مسجده فى القدس . ويقول اليهود ان هذا المسجد أقيم فوق حطام معبد سليمان ..

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة وردت فيها كلمة «الخيل» .وهى ترد بمناسبة الاستعداد للقتال وضرورة محاربة العدو .والقرآن الكريم يقول : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم . » وفى القرآن الكريم سور تحمل اسماء الحيوانات والحشرات والخيول : البقرة والنحل والنمل والانعام . اما سورة « العاديات » فالمقصود بها « الخيل » والسورة تقول : «والعاديات ضبحا . فالموريات قدحا .فالمغيرات صبحا . فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا . » وهذه الآيات تصف الخيل فى حركتها واثارتها للتراب وسط القوات المعادية . والله فى هذه السورة يقسم بهذه المخلوقات الجميلة . وفى ذلك اقصى درجات التكريم ..

والعربى يستمد نبله وقوته من هذا الحيوان المتسق القوام . ويستمد أيضا كبرياءه . وقد وصف العرب حاتم الطائى بأنه اكرم العرب لانه ذبح حصانه لاحد ضيوفه !

وعمر بن الخطاب عندما دخل القدس لم يشأ أن يركب حصانا وانما ركب ناقة وعلى هذه الناقة وضع طعامه من الماء والتمر والقمح . ودخل القدس حانى الرأس . ولم يركب حصانا يتبختر به كما يفعل الفرسان أو كما يفعل الغزاة المنتصرون !

والتاريخ يسجل للعرب انتصاراتهم الهائلة شرقا وغربا بقوات صغيرة وخيول محدودة . وقد حاول الفرس أن يصدوا العرب مستخدمين الخيول . ولكنهم فشلوا . فقد كانت عندهم الخيول، ولم تكن لديهم الفروسية — أى روح الشجاعة والاستعداد للموت فى سبيل الله ! ودخل العرب اسبانيا بجيش متواضـــع : ٣٠٠ فارس عربى وثلاثة آلاف من قوات البربر !

وبعد ذلك بخمسة قرون جـاء جيش من الشرق محمولا على الخيول ومزق اوربا كلها ، وداس مقدساتها وفتح عيون العـــرب على ان هناك حضارة اخرى .. او شعوبا اخرى تستطيع أن تفعل ما عجزت عنه الحضارة الاوربية المريضة المتداعية . كان ذلك جيش جنكيز خان .

وقد وصف الرحالة الايطالى ماركو بولو جيش جنكيز خـــان (١١٦٢ — ١٢٢٧) بانه كان يتحرك فوق ربع مليون حصان !

واصبح من المالوف فى اوروبا فى ذلك الوقت ان الرجل النبيل هو الذى يملك قطعة من الارض وحصانا . او يملك حصانا دون ان يملك ارضا او يملك الحصان والبدلة المدرعة دون ان يكون جنديا فى اى جيش . وانما يكفى أن يكون هذا « عاليا » فوق حصان ، و « منيعا » وراء بدلة من حديد .. وهو بكل مقـــاييس العصر يعتبر رجلا محظوظا !

وعرفت أوربا تربية الخيول . واستخراج الســـلالات الجيدة منها . لان الخيول التى هاجرت الى اوربا من الشمال فى العصور الجليدية كانت صغيرة هزيلة . او قبيحة التكوين . وقد احس الاوربيون بذلك اثناء الحروب الصليبية . لم تكن لديهم هذهالخيول

العربية الرائعة . وحتى عندما انسحب الصليبيون من الشـــرق كانوا يحملون امتعتهم على ظهور الابقار والماعز والخنازير !

والخيول حتى ذلك الوقت كانت مظهرا من مظـــاهر الثراء والقوة . ولكن اوربا لم تعرف « الفروسية » او رياضـــة ركوب الخيول . واذا حدث أن أراد بعض الفرسان ان يتريض جاءت هذه الرياضة عنيفة دموية . فيلتقى الفرسان ويتحاربون .وتكون النهاية دموية مميتة . ان الملك هنرى الثانى ملك فرنسا قد سقط من فوق حصانه ميتا سنة ١٥٥٩ . ولم يكن ذلك فى الحرب وانما كان فى معركة مع احد الفرسان . ولم يكن ذلك الا على ســـبيل اللهو !

ولكن رجلا فرنسيا اسمه جيوفروا دى بروى هو أول من وضع لرياضة الخيل أو للفروسية قواعد واصولا وطلب من كل الفرسان أن يحترموها وكانت هذه القواعد تؤدى الى الابقاء على حيـــاة الفارس والحصان . وان تكون استعراضـــا للخفـــة والسرعة والمناورة دون دماء !

والتاريخ الذى كتبته الخيول فى حياة الانسان والشعوب كلها طويل جدا ـــ انه يشبه تاريخ الدبابة والمدرعات والطائرات . فالخيول هى دبابات وطائرات الانسان من ألوف السنين !

واذا كان الانسان قد استخدم الخيول فى الرعى وفى الصيد ،فانه استعان ايضا بطائر غريب يساعده على ذلك . فالصياد كان يركب حصانه ويحمل على ذراعه طائرا هو « الصقر » ثم يطلق الصقر على الفريسة ويجرى وراءه . وبعد لحظات يكون الصقر قد أوقف له الفريسة . فالصقر ينطلق وينقض بسرعة على الطيور الاخرى أو على الأرانب أو على الغزلان . ويقف على رأسها ويرفرف بجناحيه

فيجعلها عاجزة عن الرؤية . او يضربها فى رأسها أو يفقأ عينيها .. حتى يجيء الصياد ويمسك الفريسة.ولا تزال هذه الصقور وسيلة من وسائل الصيد فى مناطق شبه الجزيرة العربية . فبدلا من ان يطلق الصياد سهامه ونباله ورصاصه على الفريسة ، فانه يطلق الصقر لكي يمسكها وهي حية دون أن يشوه مكانا واحدا من جسمها.

وفى العصور الوسطى كانوا يستخدمون الصقور لاصطياد الخنازير البرية . ففى فرنسا ، وهى كبرى الدول الزراعية فى اوربا ، قد أرهقتها حروب المائة عام حتى لم يبق لدى الناس ما ياكلونه من الخضراوات والفواكه والحيوانات . وحتى أصبح من الضرورى أن يلتزم صاحب البيت أو صاحب القصر باطعام خدمه وحاشيته والا فلن يجد احدا يعمل لديه . ففى سنة ١٤٣٣ صدر قانون يقول: وللخادم ان ياكل اللحم مرتين فى الاسبوع وان يشرب زجاجة نبيذ . وفى أيام الصوم يجب أن يجد السمك .

أما الاغنياء فكانوا يضعون على موائدهم كل ما لا يجده الفقراء من لحوم : الخنزير والبقر والاوز والبجع والشواء والمسلوق وكانوا يأكلون الطاووس أيضا (وقد فعل ذلك شاه ايران عندما أقام مهرجانه التاريخى بمناسبة مرور خمسة وعشرين قرنا على تأسيس الملك كوروش للدولة الفارسية ..)

ولكن طائرا واحدا نجا من الموت : الصقر .

ويقال أن المؤرخ الاغريقى كتسياس وكان طبيبا خاصا للملك الفارسى ارتكسركس فى القرن الرابع قبل الميلاد ، هو اول من نقل الصقر الى أوربا . وأول من استخدمه فى الصيد . ولكن هذه العادة لم تنتشر فى اوربا الا بعد أن هاجر الاسيويون الى أوربا . وعرف الغرب أن الصقور يمكن استخدامها فى صيد الذئاب التى تهدد قطعان الاغنام والابقار ..

وفى احدى لوحات لويس السادس عشر نجده واقفا وعلى ذراعه اليسرى وقف الصقر شامخا براسه .

كما أن الملك فريدريش الثانى ، لم يكتف بتربية هذه الصقور الصيادة ، وانما اصدر كتابا فى تربية الصقور وتعليمها . كتابه اسمه « فن الصيد بالطيور » . وفى الكتاب يحدث القارىء عن اخلاقيات هذا الطائر . وكيف يأكل وكيف يشرب . وكيف يجب تجويعه قبل اطلاقه على الفريسة . ثم مكافاته بعد ذلك بان يعطى القلب والكبد وعينى الفريسة . والذى يقرأ كتاب الامبراطور يشعر بأن تدريب الصقور الصيادة عمل شاق . ولكنه من انبل الاعمال فى ذلك الوقت .

والفراعنة أنفسهم كانوا يرمزون بالصقر — حورس — الى السماء .. او الى الفضاء الخارجى . ويرون أن هذا الصقر له عينان هما : الشمس والقمر . وكان هذا الطائر فى أعلى مراتب القداسة عندهم ..

وحيوان آخر رافق الانسان سنوات طويلة . او كان أول من صادقة ؟ الكلب . وكان الانسان يستخدم الكلب فى حراسة الاغنام، ولم يكن الكلب حارسا لها تماما ، وانما كان يحميها من الذئاب والثعالب . وكان الكلب حيوانا محتقرا رغم احساس الانسان بفائدته . وكان من عادة الاغنياء أن يضعوا كلابهم فى غرف الخدم.

ولكن فى العصور الوسطى ظهرت الكلاب فى قصور النبلاء والملوك . ثم ظهرت الكلاب فى لوحاتهم الفنية . وظهرت انواع نادرة من الكلاب . وكان الكلب يستمد « مكانته » هو ايضا من مكانة سيده . بل أن الفنان كان يعكس طبيعة السيد على طبيعة الكلب. فاذا كان السيد مثل « فيليب الطبيب » دوق بورجانديا ظهر الكلب هادئا جالسا عند قدمى سيده ، واذا كان السيد شريرا مثل «شارل

السيىء » ملك مقاطعة نفارة الاسبانية ظهر الكلب شرسا يقضم الطعام عند قدمى سيده ..

وظهرت حيوانات وطيور اخرى كثيرة فى اللوحات الفنية بل وفى النقوش القديمة . ففى احدى مقابر المملكة الوسطى الفرعونية نجد نقشا به تسعة وعشرون نوعا من الطيور .. وفى مقبرة الكاتب المصرى حور محب فى عهد تحتمس الرابع نجد نقوشا لطيور كثيرة .. كما ظهرت الحيوانات المفترسة على دروع الجنود رمزا للقوة والمنعة . بل لا يزال « وحيد القرن » منقوشا مع عظيم الاحترام على الاسلحة الملكية البريطانية . وكان القدماء يتصورون أن وحيد القرن حيوان نادر أو حيوان خراف . فالمؤرخ الرومانى بلينى كان يعتقد وكذلك الفيلسوف الاغريقى ارسطو ان وحيد القرن لا وجود له.

ولما نقلت التوراة من اللغة العبرية الى اللغة اليونانية ترجمت الكلمة العبرية « ريم » ومعناها : ابقار الى الكلمة اليونانية « مونوكيروس » ومعناها : وحيد القرن .

وقد استخدم القدماء اسم « وحيد القرن » للدلالة على العفة والعذرية وقوة الفضيلة .وذهب القدماء الى أبعد من ذلك فتصوروا ان قرن وحيد القرن هذا يحقق المعجزات . وان الذى يحتفظ به تحدث له البركات .. وان الذى يسحق القرن ويشربه مع النبيذ تكون له قوة جنسية هائلة .

عجيب امر الانسان : انه يبدأ بتقديس الحيوانات ثم تكديسه ثم القضاء عليه ، ثم الحزن عليه والعمل على انقاذه وتربيته والبحث عن شىء جديد يقدسه تمهيدا للقضاء عليه .. وهذا ما فعله بنفسه أيضا !



خنازير كولمبوس ملأت العالم الجديد !

مع اكتشاف أمريكا ظهرت حيوانات وطيور جديدة ، فالخنازير الثمانية التى حملها كولمبوس معه قد اصبحت الآن مئات الملايين فى العالم الجديد ، ولم يكن اكتشاف أمريكا عملا بارعا بالصدفة ، ولكنه نتيجة لمحاولات ومغامرات استغرقت مئات السنين ..

ويجب ان نذكر دائما أن الصيادين هم الذين لمسوا كل شواطىء العالم الجديد . فالصيادون من أبناء الشمال هم الذين اكتشفوا « جرينلاند » أى الأرض الخضراء ولم تكن الأرض خضراء عندما اهتدى اليها « أريك الأحمر » وانما كانت جرداء جليدية صحراوية مميتة . ولكنه اختار لها هذا الاسم ليستدرج الناس الى الحياة فيها . وكان هو وابنه أول من أقام فيها . وبعد ذلك تكاثر المهاجرون جيلا بعد جيل ..

يقول « اريك الأحمر » فى مذكراته : كنت أطلب من ابنى أن يقوم بدور الكلب واحيانا بدور الدب ، لنشعر نحن أن هناك كائنات أخرى ترانا أو تخافنا أو تعمل لنا اى حساب ! ..

ويقال ان « أريك الأحمر » هذا استطاع أن يصل فى مغامراته البحرية الى شواطىء امريكا . والى جزيرة « رود » بالذات . ولكنه يوم اهتدى الى هذا المكان النائى لم يكن يعرف بالضبط ، ما الذى يراه عن بعد ..

وبعد ذلك توالت مغامرات ابناء جنوه الايطالية ، والبحارة الاسبان والبرتغاليين . كلهم اتجهوا عبر المحيط الأطلسى . لماذا ؟ لأن لديهم معلومات ما ، بأن شيئا ما ، يوجد فى الناحية الأخرى .. ما هو هذا الشىء ؟ يقال : انها بلاد التوابل : بلاد الهند . أو بلاد الحرير : بلاد الصين .

واكتشفوا جزر الكنارى وجزر ماديرا وجزر الأزورس ..

ومن الملاحظ أن كل الجزر التى اكتشفت قد حملت اما أسماء القديسين أو أسماء الطيور . فقد كانت الطيور بألوانها الزاهية الصارخة واصواتها المغردة هى أهم ما رأى وما سمع الأوربيون. فجزر الكنارى نسبة لطائر الكناريا .. وجزر أزروس أيضا . فالكلمة البرتغالية « اسورث » معناها : الصقور . والجزيرة مليئة بالصقور .

وكانت هذه الطيور تستقبل سفن المغامرين من بعيد ، وتحلق حولها فى كبرياء . وقد فتن الأوربيون بالببغاء . وانتقل هذا الطائر الى ادبهم وشعرهم واغانيهم وخرافاتهم أيضا .

وأول ما واجه الأوربيين المكتشفين أن هذه الجزيرة فقيرة . وان أهلها بدائيون متخلفون تماما.ولذلك احتاج الأوروبيون الى أن يأتوا معهم بالطعام من اللحوم . فنقلوا الحيوانات الأليفة الى هذه الجزر . ونشروها . وامتلأت بها الدنيا الجديدة . وقد أدى وجود بعض هذه الحيوانات الى ظواهر غريبة لم تكن فى حسابهم .

فمثلا عندما نقلوا الارانب الى جزيرة اسمها « الجزيرة المقدسة » تكاثرت بمئات الألوف فى سنوات قليلة ، حتى أكلت ما فى الجزيرة من أعشـــاب ، بل انها كانت تتســلق الاشجار وتأكل أوراقهـــا الخضراء ..

يقول بعض المؤرخين : ان الذى ينظر الى الجزيرة بعينيــه من بعيد يجد سطحها يتحرك .. يعلو ويهبط ، كأن أمواج المحيط قد استقرت فوقها . فاذا اقترب منها أكثر وجد أن الذى يتحرك هو موجات من الأرانب !

* * *

نفس التجربة حدثت عندما اكتشفت استراليا . كانت الأرانب قد أكلت المزارع فأتوا لها بالقطط . فأكلت الأرانب واصبحت القطط متوحشة . فأتوا لها بالكلاب . فتحولت الكلاب الى ذئاب متوحشة ويقال انهم فى استراليا قضوا على الكلاب التى قضت على القطط التى قضت على الأرانب ، فانتشرت الفئران بصورة شرسة .. وفى الهند عندهم مشكلة مماثلة . ففى الهنـــد يحتاجون الى جلود الثعابين فيصيدونها . وكانت الثعــابين تأكل الفئران التى تأكل محصول القمح والذرة . ولذلك أصبح ممنوعا صيد الأفاعى لأنها تقضى على الفئران ، وبذلك ينجو القمح والذرة ؟ .

والمستعمرون الأوروبيون الجدد لهذه الجزر أو لهـــذه الأراضى المكتشفة يحتاجون الى ضمان طعــامهم . والى ضرورة معــرفة الحيوانات والطيور الجديدة.وان كان فى الامكان ذبحها أو تصديرها الى أوربا .. وبعـــد ذلك معرفة حدود الأرض الجــديدة والبحث عما فيها من ثروات طبيعية .

واذا كانت الأرانب هى أول المهاجرين الأوربيين الى العالم الجديد ، فقد جاءت بعد الأرانب الأبقار والأغنام والماعز والخنازير والدواجن وكذلك البذور .

وكولمبوس عندما اكتشف امريكا سنة ١٤٩٢ كان يحمل فى سفنه بعض اللحوم والأسماك الجافة .. ولكن رحلة كولمبوس الأولى كانت استطلاعية فقط وبعد ذلك جاءت رحلته الثانية الباهرة ويقول كولمبوس فى مذكراته بتاريخ ٩ أكتوبر سنة ١٤٩٢ أى بعد ٣١ يوما من السفر من جزر الكنارى : ظللنا طول الليل نسمع اجنحة الطيور . ولا نعرف أين نحن بالضبط . ولكنى مؤمن بأن الأرض قريبة جداً »

وبعد ثلاثة ايام توقف كولمبوس عند جزيرة هى جنة الطيور . كل شىء فيها غريب عجيب . اشجارها وارضها وثمارها . واهم من ذلك كله عدد لا نهائى من الببغاوات . وقد حمل منها عددا كبيرا الى أوربا . ووجد بالصدفة بعض الأحجار اللامعة على الشاطىء فظن انها ذهب . ولم تكن كذلك . وايقن انه قد اهتدى الى الهند. وكولمبوس هو الذى أطلق خنازيره فى الدنيا الجديدة .. وهربت الخنازير الى الغابات واختفت منه .. وبعد مئات السنين أصبحت الوف الملايين .. طعاما سائغا للرجل الأوروبى والأمريكى ..

* * *

ومما حمله الأوربيون الى العالم الجديد : الخيول .

وكانوا يركبون الخيول ويمسكون السهام والنبال ويطلقون النار على الهنود الحمر . فخافوا أول الأمر . وبعد ذلك لم تعد هذه الخيول تخيفهم وكانوا يظنون ان الحصان وراكبه كائن واحد .

ولمـــا تشجع الهنود الحمر وأطلقوا سهامهم على الأوربيين سقط منهم الكثيرون على الأرض . واندهش الهنود الحمر كيف أن هذا الحيوان ـــ اى الحصان وراكبه ـــ يمكن أن ينشطر نصفين بهذه السهولة !

(وعندما اكتشف كوك أيضا جزر هاواى كان يضع يديه فى جيب البنطلون فكان أهل هاواى يعجبون لذلك اذ كيف يخفى يديه فى بطنه ويخرجها . ولمـــا راح يدخن السجائر ، أدهشهم كيف أن النار فى أحشائه ولا يموت .. ولمـــا قتلوا رجـــاله البيض فزعوا لذلك . ولكنهم تشجعوا حتى قتلوا كوك نفسه) .

والشاعرة المكسيكية الراهبة خوانا كروث تقول سنة ١٦٨٨ عن الأوربيين الذين غزوا بلادها بالحديد والنار : من هؤلاءالوحوش الذين جاءوا عـــبر المحيط يدوسون أرضى المقـــدسة ؟ ويذبحون أجدادى وينهشون لحمهم ، وينهبون ثرواتهم بلا سبب ؟ .. ان أجدادى متحضرون أما هؤلاء القادمون من وراء البحـــر فوحوش بربريـــة .. !

واهتدى الانســـان الى حيلة أخرى غـــير استخدام الخيول ، استعملوا الكلاب المدربة . وأخذوا يطلقونها على قبائل الانكاس. وكانت الكلاب تمسك بهم وتعوقهم لتصيبهم نيران الاسبان .وعرف الانكاس حيلا أخـــرى جديدة . كان الواحـــد منهم يتغطى بمواد مسمومة فاذا هجم عليه الكلب مات لتوه . أما لماذا لم يمت الانكاس من السموم التى تنفذ الى ما تحت الجلد ، فذلك ما لم يعـــرفه أحد بعـــد .

ويصف لنا المؤرخون الاســـبان كيف راوا قصر الملك مونتزوما الثانى « ملك المكسيك » قال أحد المؤرخين : وكان قصره قطعـــة

من الجحيم . تعيش الاسود والنمور فيه.وترى الطيور الصارخة. والطيور المغردة والطيور الجارحة .. وفيه اخطر من هذا كله : انواع عجيبة من الافاعى التى لها ريش . وكانوا يضعون الافاعى فى الصناديق ثم يلقون اليها بلحوم الكلاب وكان من عادة الملك اذا زاره الضيوف او الأوربيون الجدد ، أن يقدم لهم الطعام وسط هذه الوحوش . وكان حريصا على أن يجعلها جائعة فتعوى وتنبح وتصرخ ــ أما الثعابين فيكون لها فحيح غريب رهيب .

وفى الرسائل التى وجهها كولمبوس الى الملوك الكاثوليك فى اوربا سنة ١٥٠٣ ، وكان فى ذلك الوقت فى جامايكا يقول : ان فى هـذه البلاد اسودا وقططا ضخمة فى حجم الانسان نفسه .

وفى هذا العالم الجديد لا احد يشرب اللبن او يذوق لحم الحيوانات ــ الاغنياء والنبلاء ورجال الدين فقط ــ اما بقية الناس فلا قدرة لهم على هذا الترف العظيم .

* * *

وعندما استولى البرتغاليون على البرازيل اطلقوا عليها اسم ارض الببغاوات . وان كانت كلمة « البرازيل » فى اللغة البرتغالية تعنى نوعا من الخشب الثقيل الذى يخرجون منه الصبغة الحمراء. ولكنهم كانوا يسمون هذه البلاد بجنة الطيور . وكان من عادة البرتغاليـين ان يدرسوا ويسجلوا ملاحظـاتهم على كل الطيور والحيوانات والنباتات التى تلفت عيونهم . بينمـا كان الأسـبان مشغولين فقط بالبحث عن الذهب .

وعلى الرغم من أن الثمار فى العالم الجديد كبيرة الحجم ، فان الحيوانات كانت صغيرة الحجم . وهذا العالم الجديد لم يعـرف الفيل الهندى الحبشى ولم يعرف التمساح النيلى الكبير . وانمـا فى العالم الجديد تماسيح صغيرة . ولم يكن يضـايق المستعمرين الجدد سوى الحشرات التى تلسع . وسوى الأفاعى التى تمص دمهم فى الليل .

اما الهنود الحمر فهم يأكلون كل الحيوانات فيما عدا حيوان آكل النمــل .

وبعض القبائل تأكل الانسان نفسه وعندها أسباب كثيرة لذلك. اما أن يكون ذلك بدافع الانتقام .. أو بدافع المحبة .. فنجد القبيلة تأكل شخصــا من قبيلة أخــرى ، ومعنى ذلك ان دمها واحد . وجسمها واحد . والروح واحدة . وتقام لذلك طقوس هائلةبالطبول والرقص والبخور .

من عادة هذه القبائل اذا أسرت عدوا أن تكرمه فتعطيه الطعام الذى يجعله اسمن . بل ان بعض القبــائل عنــدما كانت تاسر الأوربيين كانت تحبسهم وتقدم لهم افضل الطعام وتقدم لهم بنــات القبيلة ليكون زواج وأطفال . أما الذكور — فلأنهم اولاد الرجل — فياكلونهم . أما الأناث — فلأنهن بنات المرأة — فلا ياكلهن احد . ثم لابد من اكل الذكر حتى لا ينتقم لوالده .

وقد روى للعالم كله مثل هذه القصص رجل أوربى وقع فى الأسر. ورفضوا ان ياكلوه رغم ما قــدموا له من طعام ، لأنه كان جلدا على عظم !

وقاوم الأوروبيون هذه الوحشــية ، فاصدروا القوانــين التى لا تحرم قتل الانسان ، وانما تحرم أكله . .وبينما صدرت هــذه القوانين كان بعض الأوروبيين يبيع للهنود الحمر سكاكين اكبر لكى يتمكنوا من ذبح الانسان بسهولة !

ولم تتوقف هذه الاعمــال الوحشية الا عندما انتقلت الابقــار والجواميس والأغنــام من اوروبا لكى تكون فــداء للانسان من الانسان .. فماتت هذه الحيوانات من اجل ان يعيش الانســان يربيها ويطعمها ويذبحها بعد ذلك !

لكل عصر خرافات خاصة !

كانت الملكة كاترين دمدتيشي شديدة القلق . وهذا طبيعى جدا ، فهذه ليلة زفافها . وكانت اذا نظرت الى احدى الوصيفات تسال عن شيء ، ترد عليها الوصيفة وهى تضحك او وهى تغمز بعينها ، وفى كثير من الأحيان كانت الملكة تسال قائلة : هل جاء الخاتم الـ ... وقبل أن تكمل سؤالها يجيء الرد : نعم جاء الخاتم ذو الأربعين فصـا ..

وتسال الملكة : والصندوق الـ ..

فترد وصيفة اخرى : جاء الصندوق البيضاوى وبه كل المجوهرات حتى الخنجر الذهبى المرصع بالماس .

وتقول الملكة : وهذا الذى يسمونه « عطر الحياة الأبدية » هل هو أيضـا .. ؟

ــ نعم يا مولاتى جاء وبكميات كبيرة تكفى لاسعاد الف عروس فى الف ليلة .. !

ــ و ــ

— نعم جاء وهو الآن تحت المخدة ..

— و ..

— نعم يا مولاتى .. وانا التى وضعته بنفسى فى كأس الشمبانيا التى سوف يشربها الملك قبل أن يدخل الى غرفتك .. اطمئنى فقد أعددنا لسعادتكما الليلة كل شيء ..

— وهل نسيت ذلك الذى أهدته لى الامبراطورة لأتناوله قبل النوم بلحظات .

— موجود يا مولاتى ..

ولم تكن الملكة كاترين دمديتشى تريد أن تعرف كل هذه الاحتياطات من أجل ليلة العمر مع احد ملوك فرنسا . وانما كانت قلقة على شيء آخر هام جدا .. ولكنها تخشى أن تبوح باسمه أمام الوصيفات الايطاليات والفرنسيات .. واخيرا تشجعت وقالت : هل جاء الكاردينال .. ؟

وصرخت الوصيفات فى نفس واحد : طبعا يا مولاتى ..

وظهرت السعادة على وجه الملكة واحس الجميع أن هذا الذى جاء أهم من كل شيء سمعته حتى الآن . أما هذا الكاردينال فقد حمل رسالة خاصة من عمها كليمنت السابع بابا الفاتيكان .

وقد وعدها بهذه الهدية قبل زواجها . ولما حضر الكاردينال ادخلوه فورا للغرفة الصغيرة المجاورة لسرير الملكة . ورفع الكاردينال عباءته القرمزية ووضع علبة ذهبية كبيرة ، وفى داخل العلبة الذهبية مسحوق نادر .

ان هذا المسحوق هو معالجة طبيـــة لجزء من قرن خلعوه من راس « وحيد القرن » الذى يبلغ من العمر سنتين ويومين !

هذا المسحوق مهم جدا . فالملكة اذا احست بالسم قد وضعوه لها فى طعامها ، فانهــا بسرعة تضع المسحوق على شرابهــا أو طعامها . وهذا المسحوق قادر على أن يمتص السم وتعيش الملكة.

* * *

وكان ذلك فى القرن السادس عشر فاوربا كلها تؤمن بأن قــرن وحيد القرن قادر على شفاء الناس من اكثر الأمراض خطورة . ولذلك فهو هدية من بابا روما — وهى هدية اغلى من كل الهدايا واهم .. !

وحيوانات اخرى سيطرت على الحياة الطبية فى أوروبا بعــد اكتشاف أمريكا . أكثر هذه الحيوانات خرافية .

ومن الملاحظ أن الانسان الأوروبى اتجه الى أمركا ، بينمــا الحيوانات الأمريكية قد اتجهت الى اوربا . واذا كان كولمبوس قد اهدى أمريكا ثمــانية من الخنازير ، فان أمريكا قــد أعادت الى الخنازير الأوروبية طعامها ، بل ان أمريكا هى التى انقذت خنازير أوربا .. فعندما كانت هناك أزمة اللحوم أو الطعام عموما فى أوربا، انتقلت الذرة الى اوربا ، ولم تكن تعرفها قط . وانتقل سكر القصب ايضا . صحيح أن أوربا هى التى نقلت قصب السكر الى امريكا ، ولكن امريكا هى التى صنعت سكر القصب بكميات هائلة،مستخدمة العبيد من افريقيا فى هذه الصناعة الجديدة . وقد ادى ظهور السكر فى أوربا الى كساد عسل النحل والنحل نفسه . وهذه هى أول مرة

فى التاريخ نجد السكر الذى هو ناتج نباتى يطرد العسل الذى هو ناتج حيوانى .

ثم ان الذرة والبطاطس وغيرهما من الأطعمة قد ادت الى انقاذ حياة الملايين من الطيور والحيوانات التى اعتاد النـــاس فى أوربا ان يأكلوها . ولم تكن البطاطس هذه معـــروفة تماما فى أوربا .. وقد رأينا فى القرن السابع عشر الأمراء يتهادون بالبطاطس على انها شيء غريب عجيب . بل ان بعض الأطباء فى ذلك الوقت قـــد افتى بتحريم اكل البطاطس لأنها تؤدى الى الأمراض الخبيثة !

وظهر الديك الرومى فى أوربا ، قادما من أمريكا بكميات كثيرة . وربما قيل ان الديك الرومى ليس جـــديدا على أوربا ، فالانجليز يسمونه الديك التركى . والانجليز عرفوه عن طريق الشرق الأوسط . ولكن النـــوع الذى جاء من أمريكا كان أضخم واكثر تنوعا ، وكان لظهور الديك الرومى اثره الكبير فى الحياة الأوربية .. فى حفلات الأمراء والنبلاء والملوك . ومن يرجع الى ادب البـــلاط فى أوربا يجد الديك الرومى صاحب الصفحات الأولى والعبارات الأولى على السنة الرجال والنســاء . كان يقال مثلا : جميـــل الديك الرومى واجمل منه أن ينظر اليه الانسان فى عينيك !

يقال هذا الكلام عادة لفتاة جميلة . ويكون رد الفعل التقليدى أن تحنى الجميلة رأسها ، وأن يتقدم صاحب الكلام ويحنى رأســـه على يديها ويقبلها .. ويمضى الكلام عن الديك وبقية الأطعمـــة . وينتهى مثل هذا الكلام عادة بأن تـــكون هذه الجميلة قد وقعت فى غرام هذا الذئب الذواقة للطعام والجمال !

***

ومع هذه الحيوانات الواردة من أمريكا ظهرت أمراض كثيرة . فى مقدمتها أمراض الزهرى والسيلان التى نقلها كولمبوس ورجاله الى أوربا ــ هذه حقيقة مؤكدة !

واطلق الانجليز عليهــا : الأمراض الفرنسية . والفرنســيون وصفوها بأنها : أمراض انجليزية !

وفى مذكرات كولمبوس نجده يقول مثلا : وفجأة شعرنا بظهور دمامل .. وفجأة شعرنا بنوع غريب من النزيف . ولا نذكر طعاما معينا ادى الى ظهور هذه الأعراض الغريبة !

ولم يكن كولمبوس يعرف هذه الأمراض السرية ، فهى لا تجىء بعد الأكل وانما بعد المعاشرة لنساء الهنود الحمر !

وحاول أحــد بحارة كولمبوس أن « يتفلسف » فوصف هــذه الأعراض ، ولكنه عندما أراد أن يجد لها سببا معقولا قال : بسبب النبيذ الفاسد على الريق !

ولكن اهم ما ظهر فى الفــكر الاوربى الأدبى والحيوانى أن هذه الرحلات الى العالم الجديد قد أدت الى ظهور حيوانات غريبة الأحجام عجيبــة الألوان . هذه الحيوانات يؤكد كل النــاس انهم رأوها بأنفسهم . وانهم لم يسمعوا عنها من أحد . وكل كتب القرون الـ ١٥ و الـ ١٦ و الـ ١٧ قد فاضــت بهذه الكائنــات الغريبة . فعشرات المغامرين الكبار يقولون أنهم رأوا الذئب الذى له رأس انســان ، أو الانســان الذى له رأس ذئب .. وانهم حاولوا صــيده . وانهم قتلوه ، ولكن جاءت ذئاب أخرى وحملت جثته ودفنتها فى ضوء القمر!

واكثر الناس رواية لهذه القصص هم البحارة . وهم يتغنون فى وصف هذه الحيوانات المائية أو البرمائية (واذكر اننا عندما ذهبنا الى البصرة بالعراق مهد « الف ليلة وليلة » أعلن كثيرون من الأدباء أنهم شاهدوا عروس البحر .. شاهدوها واقفة وجالسة ، وانهم يقسمون على ذلك ؟ !) وكل بحارة القرن السادس عشر قد اقسموا على ذلك أيضا . وتؤكد بعض الكتب أن هناك نوعا من الأفاعى طولها ٥٠٠ قدم . وان هذه الأفاعى تلتف حول السفن فتسحقها وتبتلع ركابها واحدا بعد واحد . فاذا امتلأت هذه الأفاعى بالطعام يستطيع الطفل الصغير أن يقتلها بقطعة حجر ! ولكن اين يكون هذا الطفل وكيف يمكن أن يقتلها ؟

ان الكاتب أولاس ماجنوس قد أصدر كتابا فى سنة ١٥٥٥ يصف فيه الكائنات البحرية المخيفة . وقد خصص صفحات طويلة لهــذه الأفعى الكبيرة

وفى القرن ١٦ ظهرت كتب تتحدث عن عريس البحر ــ سمك على شكل رجل . وهذا السمك لا يأكل الا الزنوج والهنود الحمر ..

أما عروس البحر فلا تأكل الا البيض .. ويقال لا تحب من لحوم الاوربيين سوى لحم الأسبان ! واذا كان عريس البحر يأكل عيون الفريسة فان عروس البحر تاكل قلوبهم .. تماما كما أنسمك القرش يأكل الذراعين والساقين .. وهناك نوع خاص من السمك يقفز من البحر وبقدرة غريبة يستقر على جسم الانسان . ويلتصق به ولايأكل الا نهود النساء ــ الفتيات الصغيرات بصفة خاصة !

وربما كان هيرودوت المؤرخ الاغريقى هو أول من وصف لنا طائر

« العنقاء » وقال ان هذا الطائر ينطلق كل خمسة قرون من شبه الجزيرة العربية الى مصر الجديدة حيث مات اجداده . ويظل يبكى على اجداده فى مصر الجديدة خمسة قرون ، ثم يعود بعدها الى شبه الجزيرة العربية ، فى مكان ما منها :

وتقول الكتب الأوربية فى القرن ١٦ أو مؤلفيها رأو العنقاء هذه . وان العنقاء قد لفت حول عنقها ثعبانا ضخما . هذا الثعبان اذا نظر الى انسان تحول الانسان الى حجر . . أو ما يشبه الحجر . وبسرعة ينقض الثعبان على الانسان يمتص دمه . أما العنقاء فتكون قد سلبته عينيه ! وقد صور الفنان الايطالى تشلليني هذه المعانى وروى هو نفسه قصصا من هذا النوع ، ويقسم انه رأى ذلك بعينيه — كلهم يقسمون على ذلك ويطلبون منا أن نصدقهم !

حتى الفنان العظيم دافنشى يؤكد فى مذكراته انه رأى بعض هذه الحيوانات ، التى لم نعثر لها على أثر بعد ذلك . . ودافنشى ليس عبقريا مخرفا ، وانما هى حالة نشاط مجنون لخيال فنان عبقرى تجعله يرى ما يرى . . انها « حالة سيريالية » أى حالة يطير فيها الفنان الى ما فوق الواقع — كما يقول عنه العالم النفسى الكبير فرويد . .

وشىء من هذا قد أصاب الفنانين والمفكرين بعد اكتشاف أمريكا . .

وقد ظهر عند الأطباء جنون جديد لعلاج كل الأمراض . أو نوع من الطموح الطبى . فتوهموا أن هناك مواد نادرة لعلاج الأمراض . من ذلك مادة فى مخ الغزال . اذا عثرنا عليها ، كان الشفاء فى أيدينا . . وأحيانا يستخرجونها من الحصوات فى كلية الغزال . هذه المادة أطلق

عليها الفيلسوف العربى ابن سيناء مادة : البادزهر . وهى شفاء من كل سم ومن كل مرض .

ومن العجيب أن الفيلسوف العربى ابن سينا ، قد شخص الكثير من الأمراض . وجعل مادة البادزهر شفاء لكل داء . . وهذه المادة نادرة جدا ، ولذلك فكانت تساوى وزنها ذهبا . . أو أضعاف وزنها ذهبا . ولا أحد يعرف ان كنت تشفى حقيقة من كل داء . فالذين كانوا يتناولونها لم يقولوا لنا شيئا !

وظل هذا « الوهم » سائدا مئات السنين . . ولكن استطاع أحد الأطباء فى بلاط الملكة كاترين دمديتشى أن يثبت لها أن مسحوق قرن « وحيد القرن » ليس ترياقا يشفى من كل مرض . فقد وضع السم لديك ، ثم أعطى الديك هذا المسحوق السحرى فمات الديك رغم ذلك . . ولكن أحدا فى بلاط الملكة لم يصدق هذا الطبيب «المخرف» .

ويقال أن البابا كليمنت السابع عندما قارب الوفاة تلفت حوله يسأل الكرادلة ان كان أحد قد وضع له السم — فانحنوا وبكوا وقالوا : أعوذ بالله ومن يجرؤ على هذه الخطيئة !

ولكن البابا كان يعلم طبيعة الانسان ، ان واحدا من الحواريين حول المسيح قد سلمه لاعدائه . . فليس غريبا أن يقتله واحد من الذين حوله . . وكان احد الكرادلة أسرع الجميع الى فهم ما يدور فى رأس البابا فأسرع وأتى بمسحوق القرن . . ووضعه فى كوب من الماء . . ثم وضع كمية أخرى . . وظهرت السعادة على وجه البابا . . وشرب الكوب ومات . . وقد اهتدى الأطباء بعد ذلك عندما أرادوا

ان يعرفوا سبب وفاة البابا ، الى أن السبب الحقيقى هو مســـحوق القرن السحرى !

ومات البابا وسره معه .. ولكن الخرافات تعيش بعد ذلك اطول عمرا من البابا ، لانها تنبع من جهل الانسان بما لا يعرف ورغبته فى ان يعرف بسرعة . وكل عصر من العصـــور له حقائقه الجديدة ، وأوهامه الجديدة .. فلا عصر بلا خرافات !



ذهب كل أرض تدوسها الأغنام!

يقال ان احدى اميرات الصين قررت ان تسعد شعبها . فظلت تفكر فى احسن الطرق . ولم تهد الى شىء . يقال نامت وقامت وهى سعيدة جدا . ماذا رات فى نومها ؟ رات دودة صغيرة تمشى بين اوراق الشــجر . ثم تاوى الى بعض الاوراق عندما يخرج من فمها خيط ناعم .. وتظل الدودة تفعل ذلك حتى يتكون من الحرير كفن تموت فيه هى التى دفنت نفسها . ثم بعد ان تموت تصحو مرة اخرى .. لتموت بعد ذلك .. وذهبت الاميرة الى احد رجال الدين تروى قصتها . طمانها رجل الدين قائلا : ستكون لك حماة قاســية القلب . تحاول ان تدفنك حية . ولكنها هى التى ستموت فى النهاية !

ولم تقتنع الأميرة بتفسير رجل الدين . فذهبت الى كبير الكهنة . وقال لها : ان الذى رايت فى نومك حقيقــة . اذهبى الى الغابات وابحثى عن هذه الدودة ففيها سر الصين كلها !

وعثرت الأميرة على دودة القز ..

واصبح دود القز سرا ملكيا منذ اكثر من اربعة آلاف سنة .. وكانت للصين أعياد للحرير . يتهادى فيها الناس دود القز وبعض شرانق هذه الدودة العجيبة ..

وانتقل السر من قصور الملوك الى بيوت الشعب . وظلت الصين تضن بهذه الدودة على كل الشعوب الاخرى وكان يكفى أن يقال أن مواطنا اخذ معه بعض الدود خارج الحدود ليصدر قرار بأعدامه فورا .

وتسللت الدودة الى كوريا .. ومنها الى اليابان . ومن اليابان اصبحت صناعة الحرير ونسيج خيوطه من أهم مخصصات الاسرة المالكة .. ويقال أن الامبراطورة اذا غضبت لسبب ما ، وكثيرا ما كانت تفعل ذلك مما ادى الى قصف عمر زوجها ، فانها تأخذ ديدان القز معها وتظل تتامل قدرة الله ..

ويقال أن احدى الامبراطورات كانت تنظم الشعر . ومما قالته : « حياتى كهذه الدودة .. هادئة ناعمة راضية . وفى النهاية ماذا ؟أنا الذى أعمل وأنا الذى أتغطى بأكفان من الحرير وأموت فى صمت فالصمت حياتى والصمت مماتى .. ولاأحد يدرى بذلك » مفهومطبعا أنها تريد أن تقول انها تتعذب وتعمل وتموت دون أن يشعر احد بوجودها — زوجها واولادها طبعا . والشكوى من الرجل والأولاد قديمة وتتجدد فى كل بيت ومن كل زوجة وأم !

ولم تعرف أوربا الحرير هذا الا بعد ذلك بالوف السنين. . فملابس الاغريق والرومان بسيطة جدا . وعندما عرفوا الحرير كان ذلك شيئا نادرا . ولم يقدر على شرائه الا الملوك والاباطرة . وفى نفس الوقت

كانوا يرون أن هذه الملابس الناعمة لا يصح أن يرتديها الرجال . لانها ناعمة لينة . ولا يصح أن ترتديها النساء لانها تكشف الجسم.

وفى القرون السابقة على المسيحية لم يكن الرومان والاغريق قد عرفوا الملابس الداخلية وانما ظهرت هذه الملابس الداخلية عندما اقبل الرجال على النساء . وفى بلاد الاغريق أيام الفلاسفة سقراط وافلاطون وأرسطو ، كان المثل الأعلى للجمال هو جسم الرجل والرجل نفسه . وفى هذا العصر انشغلت المرأة من أرضاء الرجل . ولكن بعد أن اتجه اليها الرجل ، بدأت المرأة تختفى وراء ملابس داخلية وخارجية .. وكلما التفت الرجل الى المرأة أكثر عرفت الملابس الضيقة التى تكشفها وفى نفس الوقت تغطيها أيضا . فمع الميول الجنسية الشديدة عرفت المرأة الأقمشة الحريرية .. ولكن نساء الطبقة الغنية فقط . فقد كان الحرير غالى الثمن ..

ان الامبراطور يوليوس قيصر قد اشترى قماشا حريريا ليزين به احد المسارح . ولكنه لم يجرؤ على ارتداء ملابس حريرية . لا يسمح بها لنفسه ولا لغيره . بل اننا نقرأ فى احدى المحاكمات من يقول : ولكن كيف اصدق رجلا يرتدى ملابس حريرية .. انه ليس رجلا !

أما الامبراطور الشاذ جنسيا واسمه هليوجبالوس السورى ، فقد ارتدى ثوبا من الحرير الأحمر فى احدى الحفلات . والتفت اليه الناس بدهشة . ويبدو أن الامبراطور لم يلفت النظر بدرجة كافية فانسحب من الحفلة وارتدى الثوب على اللحم وراح يتمرغ على الأرض أمام النبلاء .

ولم يكن هذا الحرير الذى عرفته اوروبا فى أوائل العصور المسيحية

قد جاء من الصين . انه نوع ردىء من الحرير . ولكنه غالى الثمن. . اما الحرير الصينى فلم يظهر الا بعد ذلك بالف سنة . ووصل الى اوروبا من طرق مختلفة . .

فالامبراطور جستنيان فى القرن السادس الميلادى قد اتفق مع اثنين من الرهبان على ان يخفيا الحرير فىملابسهما . وجاء الراهبان وقد حمل كل منهما عصا مفرغة . اخفى فيها بيضات الحرير . ودخل الحرير الى بلاد الامبراطور وتولت زوجته الغانية الفاتنة الفاجرة ثيودورا صناعة الحرير . فقد كان لها فى قصرها عشرات الحجرات اعدتها لدودة القز . وكانت الامبراطورة تغزل الحرير . أو تأتى بمن يستطيع ذلك . ويقال أن الامبراطورة ثيودورا قد تعاونت مع أحد أمراء الحبشة على زراعة اشجار التوت فى تركيا القديمة . ونجحت الأشجار وانتشرت صناعة الحرير فى ذلك الوقت . واحتكرت الامبراطورة غزل الحرير وحرمته علىكل الناس. وكانت الامبراطورة تستعين بالفتيات فقط فى تربية وغزل الحرير .

وكان من عادة الامبراطورة ثيودورا كلما فرغت من عمل ثوب حريرى أقامت حفلة خاصة للملك . واتت بالراقصات والمغنيات ورقصت هى امام الامبراطور فى ثوب من الحرير ثم اتت بثوبها والقت به فى برميل النبيذ . . وراحت تمشى عارية تعصر النبيذ فى افواه الضيوف !

وكانت تسمى تلك الليلة « الحرير من النبيذ » . . أو « النبيذ من الحرير » . . وكانت لهذه الامبراطورة ايام اخرى كثيرة . ولكن اروعها هى ليلة : عصير الحرير !

وكانت هناك امبراطورة أخرى اسمها نيودويسيا . هى أول من ابتكر مسابقات الجمال فى العالم .. أو اختيار ملكة الجمال . فقد كان لها ابن جميل وكانت تريد أن تختار له أجمل الفتيات . فكانت تدعو كل أسبوع أجمل عشر فتيات ليختار واحدة منهن . الفتيات جميلات طبعا وقد ارتدت كل منهن فستانا من الحرير . ويرحن ويجئن على ايقاع موسيقى . ومع الليل والموسيقى والشراب ترتفع اطراف الفساتين لتكشف كل منهم على اماكن الجمال . ويختار الفتى بنت الحلال ، ومن الغريب أنه لم يكن يفعل ذلك . ولم تكن الفتيات يضقن بما لايفعل الأمير . فقد اسعدهن جدا أن يقع عليهن الاختيار وأن يتعرين أمام أمراء وشبان آخرين ..

كل ذلك بعد أن تكون كل واحدة قد خلعت أكثر ملابسها الحريرية التى تدل على أنها من أسرة قادرة على شراء فساتين من الحرير الصينى !

واصبح العالم كله يتحدث عن طريق الحرير ، أو طريق تجارة الحرير الذى يبدأ من بكين مارا بالهند وايران وتركيا .. وسوريا . وقد انتقل الحرير من شمال افريقيا الى اوروبا فى القرن الثامن عن طريق العرب . فالعرب أدخلوا صناعة الحرير الى ايطاليا وجزيرة صقلية والى اسبانيا . صحيح ان دودة القز لم تكن قادرة على الحياة فى الاجواء الباردة . فماتت بالملايين . وكذلك أشجار التوت لم تتحمل البرودة والجليد فذبلت . ولكن استطاع الانسان أن يتغلب على هذه الصعوبات .

وقد شهدت أوروبا الملكة اليزابث وهى ترتدى جوربا من الحرير،

صنعته احدى وصيفاتها . اسم الوصيفة أصـــبح ماركة للقمصان الانجليزية : مونتاجى . وكانت ملكة انجلترا تستورد خيوط الحرير من أسبانيا . وظلت انجلترا تستوردا الحرير من أسبانيا فى أشـــد الظروف قسوة ، وفى نفس الوقت كانت انجلترا تحرم تصدير الصوف الى الخارج .. وبينما كانت اسبانيا تحتكر دودة القز كانت انجلترا تحتكر اغنام الصوف .

وفى سنة ١٥٩٨ اعلنت الملكة اليزابيث فى احدى الحفلات الرسمية أن لديها ستة أزواج من الجوارب الحريرية . ويبدو ان هذا خبر شخصى جدا . ولكن الملكة ارادت ان تقول أن هذه هى البداية .. وسوف تظهر جوارب أخـــرى كثيرة ، ولم تظهر الا بعد ذلك بوقت طويل !

فى ذلك الوقت كان احد المهندسين الانجليز واسمه « لى » يعانى من ازمة حب شديدة . انه يحب فتاة جميلة . ولكن اذا ذهب اليهـــا تنشغل عنه تماما . فيظل هو وحده يتكلم . وهى لا ترد . واذا ردت فانها لا ترفع رأسها لكى يرى عينيها . ان عينيها تركزتا على شىء فى يديها . انها تغزل خيوط الصوف لعلها تصنع جوربا أو شالا .. ولكنها لا ترد . هو يحبها . وهى أيضا . ولكن الحب كلام ، ولا كلام بينهما . أو هو الذى يتكلم وهى التى تسمع دون أن تقول شيئا . وانكسر قلب هذا المهندس . واختفى عن العيون سنة . ثم عاد يطلب مقابلة الملكة اليزابيث وأذنت له . وقدم لها جهازاً من اختراعه يعفى المرأة من غزل الصوف بيديها . لانه لا يريد حبيبته أن تفعل ذلك . وان تتحدث معه بعض الوقت . وقالت الملكة : كنت أظنك قد اخترعت شيئا لغزل الحرير .

وقال المهندس : افعل ذلك حالا !

واختفى المهندس سنة ليعود الى الملكة بجهاز جديد لغزل الحرير حتى لا تنشغل عنه حبيبته . ولكن الملكة لم تفرح بذلك . لان هـذا الجهاز سوف يجعل الحرير فى متناول كل الناس . وهى تريد الحرير خاصا بها وبالاسرة المالكة . ثم أن مغازل الحرير أو الصوف سوف تؤدى الى تعطيل ألوف الأيدى العاملة . فذهب الرجل الى فرنسـا يعرض اختراعه الجديد . ولكن فرنسا كانت مشغولة فى الأحداث التى أعقبت اغتيال الملك هنرى الرابع .. وزاد حزن الرجل وعاد الى حبيبته فوجدها تتكلم وتنتظره .. انهـا الآن لم تعد تغـزل لا الصوف ولا الحرير ـ لقد فقدت بصرها !

وفى عصر لويس الثالث عشر عرفت فرنسا التقشف والبهدلة فى اللبس . وكان هذا الملك متشددا ، فخربت مغازل كثيرة فى معظم المدن الفرنسية .. وتشرد الدود على الشـجر . وماتت الشرانق وطرد الحرير من بلاد الاناقة !

ولكن اعيدت كل هذه الصـناعات بعد ذلك . وأعلن الكاردينال ريشليو : أنه من الحماقة أن نحرم على أنفسنا ما أراده الله لنا من جمال ـ اعيدوا الدود الى الشجر ، والحرير الى الأزياء !

* * *

واذا كانت « دودة القز » هذه قد زحفت من آسيا ، فان «الأغنام» أيضا قد جاءت من آسيا ، ولكن فى عصور قديمة جدا . وربما كانت

الأغنام اكثر الحيوانات هجرة من مكان الى مكان .. ففى كل عصور التاريخ كان هناك رعاة ، لان الأغنام قد سبقت الانسان .. ولكن الاغنام التى ظهرت فى أوروبا كانت ضئيلة الحجم وكان شعرها خشنا جافا . أما الأغنام الجيدة فهى التى جاءت من آسيا ، ومن شبه الجزيرة العربية بصفة خاصة ..

وظلت هذه الأغنام يختلط بعضها ببعض حتى كان هذا النوع الأسبانى الشهير باسم مرينو . وهذه الأغنام وصلت الى اسبانيا تماما كما وصلت دودة القز عن طريق شمال افريقيا .. وبوصول الأغنام الى اسبانيا بدأت حرب الخيوط بينها وبين بريطانيا .. خيوط الحرير وخيوط الصوف .. احتكرت أسبانيا الحرير ، واحتكرت بريطانيا الصوف . وبدأت معركة السيادة على الأسواق .. ومعركة السيادة على البحار . واهتدت بريطانيا الى انه من الأفضل أن تنقل الأغنام من بلادها الى المستعمرات . فانتقلت الأغنام الى المراعى الاكثر غنى فى مستعمراتها . وفى عصر حرب الخيوط ، أكلت الأغنام الأرض المزروعة .. بل ان الناس فى بريطانيا كانوا يقتلعون الأشجار ويتركون الحشائش غذاء للاغنام التى تعيش عليها بريطانيا . بل ان رجال الدين الانجليز كانوا يخطبون فى الكنائس يطلبون من الله أن يرفع عنهم لعنة الأغنام التى أكلت الأشجار وحولت المدن الى مرعى تأكل عليه .. وكانوا يقولون : ان الله خلق الأرض للانسان فتركها الانسان للاغنام . فاستحق الانسان لعنة الله !

وكان الناس يقولون : ذهب كل أرض تدوسها الأغنام !

ولما اهتدت بريطانيا الى أماكن اغنى وادفأ خارج جزيرتها ،انتقلت اليها الأغنام . وعادت الزراعة الى الأرض . وعادت الارض الى الانسان !

واخترع الانسان الآلة لتعاون دودة القز وتعاون الاغنام ..

ثم عاد الانسان يخترع اجهزة اخرى لتاخذ مكان الديدان والاغنام، عندما اخترع الخيوط الصناعية ..

ولكن لا تزال هذه المنتجات الطبيعيـــة ــ خيوط الحرير وخيوط الصوف وخيوط القطن ــ اروع واجمل ..

ان دودة صغيرة ضعيفة قد طردت امامها ملايين الاغنام . فما اكثر ما تفعله دودة فى حياة الانسان .



اكاديمية لتعليم الانسان
كيف يكون حصانا بنيلا !

لم يفهم القـاضى طبيعـة الخـلاف بين رجل وزوجته . وعاد يسال الرجل :

ولكن لماذا اصبح هذا الخلاف حادا الى هـذه الدرجة . اليست هى زوجتك !

يقول الرجل : بلى واحبها !

تقول الزوجة : كذاب يا حضرة القاضى ! كان يحبنى فيما مضى . اما الآن فلا .. ضحك على حتى جعلنى اترك اهلى ودينى . وبعد ان تمكن منى ، وصلنا الى ما نحن عليه .

يقول الرجل : ولكن ما الذى نحن عليه .. انه خلاف اخترعته . وهى التى طلبت ان اجىء اليك وان تكون مشـاكلنا فضائح . فاذا اصبحت فضائح ضعفت انا امام الراى العام . ولكن لن اغير موقفى .

يقول القاضى : كنت تحبها ؟

ـــ نعم . ولا ازال .
هى تقول : كان يحبنى !

القاضى : فى وقت من الأوقات كان هناك حب .. وفجاة تغير كل شىء .

الاثنان يقولان فى نفس واحد : نعم ! .

القاضى : منذ متى ؟

الاثنان : منذ أسبوع .

القاضى : وانتما متزوجان منذ متى ؟

الاثنان : منذ اسبوع !

والقضية ليست عاطفية . وانما جلس هذان الزوجان من أبناء البرتغال يحلمان بعدد الأطفال الذى سوف يكون . قالت الزوجة : اريدهم جميعا من البنات . وقال الرجل : بل من الأولاد ..

واتفق الاثنان على ان يكون ثلاثة من الأولاد واثنتان من البنات . وجلس الزوجان يحلمان ويفكران فى أحسن الأسماء . وقالتالزوجة: أنت الذى تحسن الكلام والتعبير . وهذا هو الذى جعلنى أموت فيك هياما .. انت تختار الأسماء . انا آتى لك بالأولاد والبنات وانت الذى تسمى هذه الذرية الصالحة ان شاء الله ..

وفجاة صرخ الزوج : وجدت الأسماء ..

وسمعت الزوجة الأسماء وصرخت . ولطمت خديها . وشــقت ثوبها .

وقالت : الطلاق .. لا حياة معك . انت رجل مجنون !

اما لماذا هو مجنون فقد اختار هذه الأسماء لأولاده : النمر .. الفيل .. الخرتيت ــ للذكور . أما الاناث : الغزالة .. النسناسة!

ولم يكن الرجل يداعب زوجته . ولا يريد أن يطلقها . وانما هو « ابن عصره » . وفى ذلك العصر انشــغل ابناء أوربا بالحيوانات القادمة من الشرق . وراوا فيها أجمل واروع ما خلق الله .

صحيح أن كولمبوس اكتشف امريكا ولكنه فتح أبواب الشرق :الى افريقيا وآسيا .. والى الهند .. وأصبح كل الذين يرتادون الطرق الى الشرق السحرى ، أهم من الذين يزحفون على أمريكا ، بل ان الرحلة فاسكو داجاما أهم من كولمبوس .. وافريقيا اهم من امريكا .. وهزيمة الاسطول التركى فى المياه اليونانية ، أروع عند الاسبان من كل معاركهم وفتوحاتهم .. وأصبحت هدايا قبائل افريقيا أعظم وأغلى عند أهل البرتغال من كل ما يجىء من مستعمراتهم الكبرى : البرازيل ..

وفى القرن السابع عشر أعلن أديب اسبانيا العظيم سرفانتس :ان مدينة لشبونة هى مركز الدنيا . اليها يجىء الذهب . ومنها يخرج الرجال الى مجاهل الشرق الساحر الباهر ..

وأصبح من مظاهر الثراء عند الناس فى أوربا أن يستعرض كل منهم ما لديه من حيوانات غريبة .. فكان الذى يمشى فى شــوارع مدريد يرى الحيوانات من نوافذ البيوت .. ويرى الطيور الملونة .. وبسرعة تحولت القصور الى حظائر للحيوانات الافريقية ..

ومن الغريب ان هذه الحيوانات لم تظهر فى لوحات الفنانين . ولكن فى حالات نادرة ظهرت بعض الطيور بألوانها الزاهية .

وكانت اشهر الحيوانات التى لفتت الاوربيين وشغلت الصيادين: الأسد والفيل والنمر والضبع والنعامة والخرتيت .

وكان الامبراطور الألمانى فريدريش الثانى (١١٩٤ — ١٢٥٠) من اكثر الناس حبا للحيوانات . وكان يقيم لها حديقة ملحقة بقصره . وحدائق الحيوانات عادة استعارتها أوروبا من ملوك الشرق .

وبعد ذلك تعود الناس فى أوروبا ايضا ان يجدوا حدائق للحيوانات ملحقة بقصور الملوك والنبلاء . وربما كانت اشهر حدائق الحيوان فى اوروبا يملكها البابا بيوس العاشر (١٨٣٥ — ١٩١٤) وهو واحد من أسرة مديتشى الشهيرة العريقة . وكان هذا البابا يحب الحيوانات ويرعاها ويدعو الى الرحمة بها والعطف عليها . وكان يعطف على الفنانين . « فالفنان حيوان يحب الحيوان . لانه يحب الحياة وجمال الحياة وحكمة الله » .

* * *

وحدث قبل ذلك عندما زار البابا بيوس الثانى (١٥٠٤ — ١٥٦٤) احد النبلاء من اسرة مديتشى أن اقام له موكبا فخما .وجعل الحيوانات تتقدم هذا الموكب . ووقف الناس يتفرجون على هذه المخلوقات العجيبة . وكان عدد هذه الحيوانات كبيرا . ولكن لم تكد الاسود ترى بعضها البعض حتى افلتت من قيودها . وتحولت الى اشلاء ودماء .. الا زرافة . هذه الزرافة كانت هدية من أحد سلاطين مماليك مصر الى أسرة مديتشى . ويقال ان أحد الشعراء قد ارتجل قصيدة عندما جاءت هذه الزرافة الى مدينة فلورنسه .

يقـول فى قصـيدته : طـال كل شىء فيـك . عنقـك وسيقانك الأربع وأذنك وانفـك .. أمـا عينـاك فهما مسروقتـان من وجه حبيبتى .. اما لونك فمسـتعار من براكين صـقلية .. أما مقامك العالى فلا يعيبه الا أن رأسك صغير وعقلك أيضا .. ولكن ليس من الضرورى أن يكون الجميل عاقلا .. يكفى أن يكون الجمال والجميل أكبر لصين لكل العقول » .

وهناك يوم فى تاريخ الانسان أو فى تاريخ المغامرات أو فى تاريخ الحيوان لا ينساه احد عندما أرسل ملك البرتغال مانويل هدية الى بابا الفاتيكان بيوس العاشر . الهدية : فيل واثنان من النمور وضبع قد ركب حصانا عربيا . أما الخرتيت الذى أرسله الملك مانويل فقد غرقت به السفينة فى البحر الأبيض .. ويقال أن الخرتيت ظل يضرب السفينة حتى خرقها واندفعت المياه . والقى الخرتيت بنفسـه فى البحـر ..

ومشى الموكب فى شوارع روما .. والناس يتفرجون على أعاجيب الهدية الافريقية . ودقت أجراس الكنائس .. ووقف البابا يشير الى أن تضرب المدافع .. وانطلقت المدافع ووقف الفيل على رجليه الخلفيتين ورفع زلومته الى أعلى يحيى البابا والكرادلة أمراء الكنيسة .. وبسرعة تقدم احد الحرس الملكى البـرتغالى بثلاثة جرادل من الماء المعطر .. ووضعها أمام الفيل .. ومد الفيل خرطومه وملأه بالماء وراح يرش البابا والكرادلة والناس يصرخون من الفرحة .. وكان يوما مشهودا فى تاريخ الحيوان ، والعلاقة بين عرش البرتغال وكنيسة روما !

وأرهق رجال الدين أنفسهم فى شرح ما حدث . قالوا : ان الفكرة

هى أن يدرك الانسان بوضوح انه مهما كانت الحيوانات قوية ، فان الانسان هو الاقوى بذكائه . ان هذه الحيوانات قادرة على سحق اقوى الرجال ، ولكن الحيلة تغلب القوة . والذكاء يقهر الوحوش.. فهذه الحيوانات كلها قد احتال عليها الانسان واتى بها من غابات لتكون ذليلة ذلولا أمام اصغر الأطفال . ثم أنها مخلوقات الله . ومن الواجب العطف عليها ومحبتها !

* * *

وأول مظهر من مظاهر الحب والعطف والاعجاب كان بالحصان. ان تاريخ الحصان والانسان طويل . فالحصان فى العصور الوسطى كان « أداة » عسكرية يركبه الجندى المغطى بالحديد ، ويتغطى الحصان بالحديد ، ويدخل الاثنان المعارك حتى الموت — الحصان هو الذى يموت غالبا . وكان من الصعب على الانسان أن يرى ملامح الحصان فهو مثل دبابة ذات اربع أرجل . ولكن احدا لم يلتفت الى جمال ورشاقة هذا الحيوان النبيل . فهو وسيلة لشىء ، ولم يكن غاية . فلا أحد قد فكر فيه ، أو التفت اليه .. أو نظر الى تركيبه الجسمى الجميل او الى خطوته .. وانما كان الحصان مصفحة أو قذيفة يركبها المقاتل .

ولكن بعض النبلاء الايطاليين فى القرن السادس عشر تنبه فجأة الى ان هذا الحيوان الجميل.يقول النبيل الايطالى فدريكو جريسونة فى مذكراته : « كل شىء حدث فجأة . وكأننى لم أر الحصان فى حياتى قط .. لقد نظرت اليه .. وتأملته .. وأحسست كأننى نبى مكلف بانقاذ هذا الحيوان من الانسان .. فهذا الحيوان شكله جميل ،

وخطوته قوية ناعمة . وحركته رشيقة .. وهامته مرفوعة .. انه واحد من النبلاء هجر حياة الانسان واحتبس فى هذه القلعة الفخمة من اللحم والشحم . ان هذا الحيوان أسير، وأنا الذى سوف أحرره»

وبدأ النبيل جريسونة يعلم الحصان كيف يخطو . وكيف يقفز من فوق الحواجز .. وافتتح مدرسة لتعليم الخيول . أو على الأصح ليعلم الناس كيف يعاملون الخيول، بما تستحقه من التقدير والاحترام والحب ..

وانتشرت اخبار هذه المدرسة . وجاء النبلاء . وجاءت الخيول وتعانق الانسان والحيوان فى اطارات من الحركة الجميلة . ويمكن أن تسمى هذه الحركة الفروسية : أى أن يكون الانسان فى سمو الحصان وفى جماله .. وان يكون شهما نبيلا . محبا للحياة والحيوان والانسان ..

ومن بعده جاء رجل ايطالى آخر اسمه بنياتللى . هذا الرجل هو الذى وجه الدعوة الى بلاط الملوك والامراء وهو الذى وجد الشجاعة ليقول : « مولاى » صاحب الجلالة يجب الا يكون القصر الملكى زريبة للخيول . وانما يجب أن يكون مقرا شتويا وصيفيا لعدد من الأصدقاء الأوفياء لهم أربع أرجل وذيل وعنق وبشرة حريرية لامعة .. يجب أن يكون النبلاء والامراء اصدقاء للخيول ، أى أصدقاء لطراز من الكائنات تعلمت منها معنى الشرف والشهامة والشجاعة والجمال والاناقة .. مولاى صاحب الجلالة .. ان كل قصر يضم خيولا تأكل وتشرب من أجل أن تموت فى القتال ، ليست الا مجزرة الا زريبة ملكية .. مولاى أنت حر فى اختيار أصدقائك وأصفيائك .. ولكن

يجب ، يا مولاى ، الا تنسى هذه العبارة التى تعلمتها من الخيول :قل لى كيف تعامل حصانك اقل لك من أنت » .

وجاءت الخيول بالمئات والنبـــلاء بالالوف الى « اكاديمية تعليم الانسان كيف يمشى كالحصان » فى مدينـــة نابلى الايطالية . وكان بنياتللى يعلم الخيـــول كيف تمشى على الايقاع الموســـيقى . وكيف ترقص وحدها . . أو قد امتطاها أحد النبلاء . . ان عصرا من احترام الانسان للانســان أو للحيوان قد بدأ . . وكانت البداية هذه المعاملة النبيلة لحيوانات اكثر نبلا هى : الخيول !

* * *

ولاسباب متعلقة بمزاج الشعب الاسبانى ، لقيت الثيران نوعا آخر من المعاملة . فمصارعة الثيران قديمة . ويقال قديمة جدا لدرجة ان علماء الآثار يجدون نقوشا على الكهوف القديمة لثيران قدأصابتها السهام . وهى تنزف وتجرى . . والانسان لم يظهر فى هذه النقوش . اما لانه من المفهوم انه هو الذى أصابها ، أو لان رسام النقوش اراد ان يقول ان الثيران كانت اسرع منه فى الهرب لدرجة انه لم يستطع ان يلحق بها فيظهر فى هذه النقوش !

ويقال ان هذه الثيران متعددة الاصـــول . بعضها ثيران اوربية وحشية . . وبعض هذه الثيران جاء من افريقيا . .ومن مصر . وبعض الثيران تشبه الأبقار الفرعونية القديمة .

وقصص ،الثيران ونوادرها فى تاريخ أسبانيا والبرتغال كثيرة جدا،

ولاتزال .. يقال أن الملك الفونسو السابع ، أحد ملوك البرتغال أقام مصارعة للثيران بمناسبة تتويجه . ولم يكتف بالدماء التى سالت فى هذه الحفلة ، فقرر أن يتولى هو اطلاق السهام على عشرين ثورا حتى قتلها والجماهير سعيدة بمهارة مليكها !

وعندئذ ولد للملك الاسبانى كارلوس الخامس ابنه فيليب الثانى سنة ١٥٢٧ قرر الملك بهذه المناسبة السعيدة أن تقام مصارعة للثيران . وان يكون هو فارسها الأوحد . وظل يقتل من الثيران حتى همسوا فى أذنه بأنه لم تبق فى المملكة ثيران . قال : اذن تؤجل الحفلة يا سادة الى أن تجيء ثيران أخرى من بلاد أخرى !

ويقال أن السياسى الايطالى الكبير الاسبانى الاصل شيزاره بورجيا (١٤٧٦ ــ ١٥٠٧) قرر أن يتسلى فى احدى الليالى . وكان له عشرون ثورا فى أحدى القلاع .. فظل يطلق عليها السهام حتى قتلها فى ليلة بدأت بغروب الشمس حتى مطلعها . فنقلوه الى فراشه مرهقا وهو يقول : لقد كان عملى شاقا هذه الليلة !

وكان من عادة النبلاء فى أسبانيا أن يصارعوا الثيران وهم على ظهر الخيل . حتى اذا هاجمتهم الثيران أفلحوا فى الهرب منها . وفى عصر الملكة ايزابيلا غطيت قرون الثيران . ولكن الجماهير لم تسعد بذلك .. فاهتدى الأسبان الى طريقة جديدة تجعل قرون الثيران حادة مدببة لكى تكون مفزعة لمصارعى الثيران وللمتفرجين ..

وفى البرتغال كانوا يضعون طبقة من الجلد على قرون الثيران ..

وعلى الرغم من أن مصارعة الثيران نوع من الرياضة العنيفة ،

فان شكلها أقرب الى الصيد منه الى الرياضة. فالمصارع لايداعب الثور بعنف ، وانما هو يصيده ، ويقتله فى النهاية .. فهم يضعون الثور فى حظيرة مظلمة لبضعة أيام ثم يفتحون الحظيرة فجأة ويخرج الثور الى النور . ثم يجىء من يمسك له غطاء أحمر داميا .. ثم من يضربه بالرماح .. ثم يصيب كتفيه ويسيل دماؤه .. كل ذلك لكى يثور الثور . فاذا ثار وهاج ، تقدم الفـــارس أو « المتادور » — ومعناها الجزار — وراح يعاكس الثور ويدور به حتى يدوخ . فاذا داخ انقض عليه .. ومن العجيب أن الثور يخرج من الحظيرة مرهقا. وكأنه يعرف ما سوف يحدث له ، فانه لا يريد ان يشترك فى صراع مع احد .. بل انه يريد أن يهرب من النور الى الظلام ، غير أن باب الحظيرة قد اغلق .. وليس له الا أن يقاوم ، وهو مرهق تماما .. فكأن المصارع قد خرج يصارع حيوانات مكدودة . ولكن الجماهير تصرخ .. وأحيانا الأعيرة النارية .. ولابد أن يقتله ، سواء صارعة او لم يصرعه .. لان الجماهير لا ترضى بما دون الدم وموت الثور. والرقص والغناء للبطل الذى قتل الثور أمام ملايين العيون فى كل مكان.

وأصبحت مصارعة الثيران مهنة . حرفة .. غالية الثمن .. ومريحة . وأصبح للثيران تاريخ . وهم يحرصـــون على اختيارها وتربيتها . وهم لا يطلقون سراح الثور بعد المعركة ، ولا يحيلونه الى التقاعد ثم يأكلون لحمه بعد ذلك .. لابد أن يموت !

وحاولت أسبانيا كثيرا أن تشغل الناس بمصارعة الديوك .. ولكن هذه المصارعة موجودة فى المستعمرات الاسبانية القديمة .. نجدها فى الفيلبين ، وبعض الجزر الآسيوية .. وهذه المصارعة تلقى نفس الاهتمام ، ولكن أحدا لا يستطيع أن يقيم مصارعة للثيران لانها غالية الثمن .. ولكن هناك مقامرات على الديوك التى تشترك فى

المصارعة أو فى القتال .. ويضعون الأمواس والسكاكين القاطعة فى أرجل الديوك . فلا يكاد يبدأ الشجار بين الديوك عندما ترتفع فى الهواء وتضرب الخصوم بأرجلها ، حتى تسيل الدماء ..

ويقيت مصارعة الثيران هى « الرياضة » العنيفة التى يقبل عليها الأسبان .. ويعرفون تاريخ ثيرانها وابطالها .. هؤلاء الأبطال الذين اثاروا الفزع بين المتفرجين : وفازوا بالمال والمجد فى النهاية ، من مئات السنين ، وحتى اليوم !



من يعرف الإنسان كثيراً
يحترم الحيوان أكثر !

ه على باب احــدى خلايا النحل وقف رجل انجليزى فى دهشة . وانتهت دهشته بان صرخ، فقد لسعته نحلة . وعاد الى البيت ليقول : شىء فظيع . كذب كل ما قاله الشعراء . الحقيقة شىء آخر .. ان هؤلاء الشعراء قد اخروا الحضارة الانسانية الوف السنين . لو استطيع أن اجمعهم فى مكان واحد واطلق عليهم النحل .. لو استطيع ذلك لأرحت الانسانية كلها ! ..

ولم يستطع هذا الكاتب مندفيل أن يحشر الشعراء فى خلية واحدة ويستريح منهم . ما الذى حدث لهذا الكاتب الانجليزى سنة ١٧٢٠؟ لقد رأى احدى خلايا النحل . ووجد بها حركة ونشــاطا عظيما . وفجأة وجد النحل يتزاحم على دبور ، طردوه . ثم عاد الى الخلية. طردوه وعاد مرة ثانية واخيرا تكاثر النحل عليه .. وســقط الدبور ميتــا !

واندهش الرجل كيف يحدث هذا فى مملكة النحل . كان رأيه مثل

الشعراء انها مملكة تصنع العسل بالدموع . مملكة تكرم المرأة وتقبلها حاكمة عليها .. وان خلية النحل تطعم الملكة لتكبر الملكة ويتحول الجميع الى خدام لها .. كل ذلك يتم فى هدوء وسلام .. والنتيجة عسل . ولكن هذا الحادث الاليم جعله يعاود التفكير فى أحوال هذه الخلية .. وأصدر الكاتب الانجليزى كتابا عنوانه « خلية النحل او كيف تتحول الرذائل الشخصية الى فضيلة عامة » يقول:

هذه الخلية قائمة على الظلم . فالنحل الشغال يعمل . وهناك أنواع اخرى من النحل لا تعمل . وانما تدور حول الملكة وتحميها وتتابعها . النحل الشغال يجمع الرحيق من كل مكان ويفرزه ولا يذوقه . والملكة لا تقوم بأى دور سوى أن تأكل وتشرب وتبيض ويقول فى كتابه أيضا أن النحل طلب من آلهة الاغريق أن تعاونه ولكن الآلهة تعبت من انقاذ النحل من نفسه وخربت الخلايا وماتت الملكة واحترق النحل الشغال . أما الدبابير فقد أوت الى جذع نخلة وعاشت أياما لتموت بعدها بقليل .

وهاجت الحكومة الانجليزية ولعنت هذا الكتاب واتهمت المؤلف بانه يريد افساد الاخلاقيات العامة .. وانه يهاجم النظام الملكى .. وانه يريد أن يشوه كل شىء جميل فى هذه الدنيا .. وانه هو الذى يقوم بدور الدبور وانه سوف يلقى نفس المصير .. ولم يلق الرجل نفس المصير ، وانما عاش الكتاب بعد ذلك مئات السنين كصورة جميلة لمحاولة اصلاح الانسان !

وبعد ذلك بسنوات ظهر قسيس ايرلندى اسمه سويفت . وقد وضع فى جيبه نسخة من كتاب مطبوع تحت اسم مستعار ، اسم

ابن أخيه . الكتاب اسمه : « رحلات فى بلاد بعيدة لجيلفر ، كان طبيبا أول الأمر ثم بحارا لعدة سفن بعد ذلك .. » ومن مغامرات جيلفر هذا أن سفينته قد رست عند أرض سكانها من الخيول ان الخيول اذكى واشجع واعقل وأكثر نبلا . ولكنها تجد صعوبة فى الكلام . وفى هـذه الأرض سـمع عن حيوان منحط غبى . وأن هـذه الخيول تحاول أن تروضه وان تعلمه ولكن يبدو انه لا امل فى ذلك .. هذا الحيوان الذى تسميه الخيول « ياهوه » ليس الا الانسان نفسه !

كان جيلفر يريد أن يقول : أن الانسان ليس أسمى الحيوانات . وانما هو حيوان من نوع ردىء ولكنه لن يتأكد من ذلك الا اذا سافر الى بلاد أخرى .

وعلى الرغم من أن رحلات جيلفر من اروع الأعمـال الأدبيـة والفلسفية ، فان هذه الرحلات قد أصبحت قصصا للاطفال ذات دلالة اخلاقية . أو ذات مغزى فلسفى .. ولكنهارغم ذلك من الاعمال الابقى والأمتع .

وقبل هذه المقارنات السـاخرة بين الانسان والحيوان ، أو بين الانسان والحشرات ، وجدنا فى عصر النهضة تساؤلا استغرق مئات السنين : لماذا نجد الانسان يقتل الانسان ، ان الحيوانات لا تفعل ذلك ؟ أيهما الحيوان : الانسان أم الحيوان ؟

وكانت الاجابات كثيرة .

فمن بين الاجابات فى عصر النهضة ان الانسان حيوان لانه قليل

الدين . ولو عرف الدين ، لارتفع بالايمان عن مستوى الحيوان .ولكن الانسان حريص على كفره ، فاصبح هـــذا الحيوان الكريه . وان الانسان قد حلت به لعنة الخطيئة الاولى . خطيئة آدم فى الجنة عندما اكل من الشجرة التى حرمها الله عليه وعلى زوجته .

ثم ظلت المقارنة بين الانسان وبين الحيوان فترة طويلة . فاذا أراد الانسان أن يفهم نفسه نظر الى هذه الحيوانات . لان هـــذه الحيوانات ليست الا نوعا من الانســـان عاجزة عن التعبير ولانهـــا عاجزة عن التعبير فهى عاجزة عن الكذب واخفاء مشاعرها . فهى اصدق من الانسان . اى أن الحيوان هو الانسان قبل أن يتعـلم الكذب . فالحيوان افضل من الانسان .

واكن المعنى فى كل عصر النهضـــة الاوربية هو هذه العبـــارة البليغة التى قالها الفنان بأوبوتس من الوف السنين : الانســـان ذئب لأخيه الانسان Homo homini Lupus .

وحتى عندما قال الفيلسوف العظيم ارسطو : ان الانسان حيوان سياسى Zooir Politikon

لم يكن بذلك يرفع من قدر الانسان وانما اراد أن يقول أنه حيوان لايستطيع أن يعيش بمفرده . ولكن لابد ان يعيش مع الآخرين وبهم— والحيوانات تفعل ذلك ايضا !

فقط عندما ظهر الساخر الفرنسي الكبير مونتنى بدأ الفكر الانسانى كله يتجه ناحية اخرى . فهذا الفيلسوف الفرنسى يقول : لا اظن ان الانسان افضل من الحيوان . انه أحط من الحيوان . واعتقـــد

انني تجنيت على الحيوان عندما وصفته بأنه منحط . فالانسان هو الذى قال انه اسمى من الحيوان . وهو قال ذلك لانه مغرور فقط .

فلا توجد صفة واحدة عند الانسان لا نجد صفة افضل منها عند الحيوان فالحيوان أقوى واشجع . واكثر تضحية من أجل الزوجة والابن . أن ذكور الذئاب تفدى اناثها وصغارها بالموت فى مقدمة القطيع ودفاعا عن الجميع .. وان الحيوانات اكثر نبلا من الانسان .. ان الطيور تفرغ بطونها فى بطون صغارها وتكاد تمـوت من الجوع .. ان الاسد يصيد الفريسة ثم يتركها لبقية الحيوانات فى الغابة ويجد المتعة الكبرى فى ان يرى الجميع تفعل ذلك .. أرونى حاكما يفعل ذلك من أجل شعبه !

ثم ان الحيوانات محبة للسلام . انها لا تشن الحروب . ولاتعتدى على احد . كل ما تريده هو أن تظل فى مكانها تأكل وتشرب فى هدوء .. الا اذا هاجمها أحد . ويكون هذا الاحد هو الانسان عادة . فهو الغاشم المعتدى والحيوانات هى الضحية !

واذا اشتبكت الحيوانات مع الانسان فى عراك فلبعض الوقت ، وبعد ذلك تهدأ او تسكن كأن شيئا لم يحدث ، وكأن دماء لم تسل ، وكأن صغارا لم تمت .

وتوجد حيوانات يساعد بعضها البعض .. يقول موئتنى : انه رأى عددا من الطيور المهاجرة قد تقاربت وتلاحقت لانها تحمل طائرا مهيض الجناح . ورأى هذه الطيور تقوم بعملية تدليك لعضـلات الطائر .. فهى تشد ريشه بمنقارها .. ثم ترخى هذا الريش مرة

بعد مرة .. ثم تبلل جراحه بريقها .. يوما بعد يوم .. حتى تمكن الطائر من الارتفاع فى الجو .. ولما لم يستطع أن يطير ، عادت فحملته على اجنحتها وركبت الهواء !

ويروى الفيلسوف مونتنى ان هناك حيوانات لها ذكاء الانسان . ولها خبثه أيضا . ولكن الانسان قد تفوق على الحيوان بخياله وقدرته على الابداع ..

والفضل الوحيد للفيلسوف الفرنسى مونتنى هو أنه لفت العيون والافكار الى الحيوان والى الانسان .. والى تقريب المسافة بين الاثنين .

وأهم من ذلك يقول مونتنى : كل ما عملته هو اننى سحبت الانسان من انفه ووضعته فى اقفاص الحيوان وتركته هناك . ثم نظرت الى الناس جميعا لاقول لهم : تعالوا نختبر ذكاءنا جميعا : أين هو الانسان واين هو الحيوان !

ومونتنى هو أول من وضع أسس « علم النفس الحيوانى » أو علم نفس الحيوان .

وكثير من افكار الفيلسوف الفرنسى مونتنى ليست جديدة ولكنه استطاع بسخريته الشديدة وذكائه الحاد ان يضعها فى عبارة جميلة .

ولكن هل للحيوان « نفس » كالتى للانسان ؟ هل الانسان فقط

هو الذى له نفس وله روح .. اى ان الحيوان بلا نفس ولا روح وانما مجرد حياة : أن يولد ويكبر ثم يموت دون أن يدرى من هـــذه الدنيا شيئا ؟

مفكرون كثيرون قالوا : الحيوان ليس له نفس .. الانسان فقط هو الذى له نفس عاقلة . انه يتكلم . يكتب . يتخيل . اما الحيوان فليس « له نفس . واذا ضربته على راسه فلن يقول : آه .. وما دام لم يتوجع هكذا فليس له احساس !

وهناك فرق كبير جدا بين كلب يقف امامك يلعب بذيله يريد منك قطعة لحم ، وبين طفل ينظر اليك يريد نفس الشىء .. الطفل فقط هو الذى يعرف معنى اللحم والفرق بين اللحم والعظم !

وجاء فيلسوف المانى كبير اسمه ليبنتس يقول : لا فرق بين الشاعر والحمار .. كل واحد منهما جسمه مكون من ذرات . هذه الذرات هى بذور الحياة نفسها . فالانسان هو هذه الأشـــياء الصغيرة . والحيوان كذلك . ولكن ذرات الانسان أو « بذور حياة » الانسان احسن أو اعقل من (بذور حياة) الحيوان .. ولكن كل انســـان وحيوان مكون من بذور الحياة او زرات الحياة . أو من الحيـــاة البذرية او الحياة الذرية .

ولما ظهر الميكروسكوب ونظرنا الى الخليـــة الحية الميتة .. او الحيوان المنوى للانسان والحيوان كانت النتيجة واحدة .. فتحت الميكروسكوب توجد حياة تروح وتجىء هذه الأشياء الصغيرة الحية

هى « فتامنيت الحياة » وكل شىء فى الدنيا يبدأ من هنا .. ولا فرق بين الخلية لانسان أو حيوان أو نبات .. فالكل واحد . والله اراد أن يكون كل شىء واحدا . هذا الكل الواحد دليل على قدرة الله .. فالكل امام الله صغير جدا .. فالانسان ليس اكبر من الحيوان ، والحيوان ليس ارفع من النبات .. الكل ليس الا كلمات أو مفردات فى قاموس الكون الأعظم من تاليف الله جل جلاله !

ومن ستة قرون فى اوروبا وصفوا الحيوان بأنه آلة .. مجرد تكوينات فوق بعضها البعض تروح وتجىء .. انظر الى الكلب .. انه ظلك .. يمشى وراءك ولا يفكر فى هذا الذى يفعله .. والقطة .. والحيوانات المفترسة تراك فتهرب .. أو تراك فتهجم عليك دون أن تقدر أن كان الذى فى يدك عصا أو مدفع .. انها آلات مندفعة ــ فلا عقل لها !

واصبحت كلمة « الآلة » صفة للحيوان ، واهانة للانسان طبعا. حتى تقدمت صناعة الآلات فى القرن الثامن عشر .. واصبحت الآلات دقيقة ومعقدة . وقائمة على كثير من النظريات الهندسية . هنا فقط اصبحت كلمة الآلة شرفا للانسان اذا وصفناه بها . بل الانسان يتمنى لو كان آلة دقيقة مضبوطة . تعمل باتقان ولا تحابى أحدا . واصبح المجتمع كله جهازا ضخما ، أو يجب ان يكون كذلك .. ولذلك لم يعد الحيوان آلة . ولم يصبح الانسان آلة ، وانما هو يحلم بان يكون فى استمرارها ونزاهتها !

وكانت فلسفة القرن الثامن عشر ردا عميقا عمليا على فلسفة رجل فرنسى اسمه « لا مترى » . هذا الرجل يقول ان الانسان

والحيوان كليهما آلة . وانه لا فرق بين انسان وحيوان . وانما الحيوان كان من الممكن ان يكون انسانا لو أعطى الفرصة .. تماما كما أن الخادم كان من الممكن أن يكون السيد ، وأن يكون السيد خادما لو تغيرت الظروف . اذن : اعطوا الحيوان الفرصة لكى يكون انسانا ايها الناس !

ويقول لامترى أيضا : القرود : مثلا ما الذى ينقصها ؟ الكلام ! لو روضناها لو دربناها لقالت كثيرا كالانسان !

ويقول أيضا : ان هناك انواعا مختلفة من الحشرات اذا حطمتها دبت الحياة فى كل جزء من أجزائها .. الدودة تقسمها نصفين .. كل نصف يتحرك وكأنك لم تفعل شيئا .. ولكن الانسان اذا قطعت يده أو ساقه .. ماتت اليد والساق .. واذا انكسر رأسه او نزعت قلبه مات .. ومعنى ذلك أن حياة الانسان أضيق نطاقا .. وانه اسهل كسرا وموتا من أحقر الحشرات .

والذى قاله هذا المفكر الفرنسى ليس دقيقا . ولكنه أثار الكنيسة واغضب المجتمع السياسى فى فرنسا واستدعاه الامبراطور الالمانى فريدريش الاول وطلب اليه ان يبقى بعيدا عن الغضب الفرنسى على كل المستويات . والمفكر لامترى لا يعرف أن عددا كبيرا من العلماء حاول يائسا ان يعلم القرود كيف تنطق ، فلم يفلحوا . فالقرود عاجزة تماما عن الكلام .

ثم أن ما تحتاجه الدودة من مراكز عصبية بسيطة يجعلها تتحرك

يمينا وشمالا بنصفها أو ربعها .. ولكن الانسان جهاز شديد التطور وشديد التعقيد .

وكانت وفاة هذا الفيلسوف نكتة ضحكت لها أوروبا وشمتت فيها الكنيســـة وقتا طـــويلا . أن وفاته تذكرنا بوفاة الخديو المصرى اسماعيل فقد جلس هذا الكاتب مع بعض اصدقائه . وكانت أمامه فطيرة محشوة بالتفاح وزجاجة من الشمبانيا . وكان يملأ فمه من الشمبانيا وتراهن مع اصدقائه انه يستطيع أن يدخل الفطيرة فى فمه دون أن تسيل قطرة شمبانيا من بين شفتيه .. وفعلها مرة وفى المرة الثانية ، مات مختنقا اما الخديو اسماعيل فكان يضع زجاجتين من الشمبانيا فى فمه وقد استلقى على ظهره وجعل يفرغ الزجاجتين فى وقت واحد ـــ ومات هو أيضا !

ولكن الشعور العام فى أوروبا فى العصور الحديثة : أن الحيوان أكثر نبلا من الانسان ـــ منتهى اليأس من الانسان !

ولم يكن الفيلسوف الالمانى المتشائم شوبنهور مبالغا عندما فكر قبل أن يموت بقليل أن يلقى بأمواله فى البحر ولما سئل عن ذلك قال : ان احدا لا يستحقها من بعدى !

ولما سئل مرة أخرى : ولا حتى كلبك !

فنهض واقفا : انا الكلب حقيقة . فقد نسيت هذا الذى اخلص لى فى كل الظروف !

ثم أوصى بأمواله كلها الى كلبه !

والفيلسوف الالمانى نيتشه كان يحب الفتاة اليهودية سالومى وكان ينافسه فى حبها العالم اليهودى فرويد والشاعر الالمانى ريلكه .. ولم يتفق الثلاثة على شىء لانهم جميعا مختلفون تماما .. واخيرا قرروا أن يقيموا لها حفلة تكريم .. فأتوا بعربة واركبوها العربة واعطوها كرباجا .. ثم سحبوا العربة .. كأنهم خيول أو حمير لها !

وعندما ذهب الفيلسوف نيتشه الى مدينة ميلانو الايطالية رأى فى ميدانها العام حصانا جميلا .. فراح يجرى وراءه ويصرخ ويعانقه : يا انبل كائن يمشى على اربع او على اثنتين !

هو يسقط والريش يطير!

« لو كان يقول أى شىء » — ولم يقل حيوان الكانجرو اى شىء . وانما ظل الكابتن كوك الذى اكتشف استراليا وعشرات الجزر يتامل هذا الحيوان العجيب الذى ليس له نظير فى القارات الأربع . وكتب فى مذكراته يقول : له راس غزال وله ذيل طويل واذا مشى فانه يقفز كالضفدعة .

ثم مضى الكابتن كوك فى وصف هذا الحيوان . كيف يأكل وكيف يشرب . ورغم قدرته الهائلة على الملاحظة فانه لم يتنبه الى أن هذا الحيوان يحمل صغاره فى جيب فى بطنه . ولم يعرف ان هذا الحيوان الذى يصل طوله الى عشرة اقدام عندما يضع صغاره فان الواحد منها يكون طوله بوصة فقط !

ولم يكن هذا هو الحيوان الوحيد فى أستراليا او القارة الجديدة ؛ وانما هناك حيوانات اخرى انقرضت مثل هذا الحيوان الذى كان يصيده البدائيون ليأكلوا لحمه ويصيده الأوروبيون ليسلخوا

جلده .. والبدائيون هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم . ويقال أن سبب هذه التسمية أن هذا الحيوان عندما يولد فانه ينطق كلمة : كانج .. وعندما يموت فآخر كلماته كلمة : رو ..

ومعنى ذلك أن البدائيين يريدون ان يقولوا أن الحيوان يولد ليموت! ـ هذه العبارة قالها الفلاسفة الوجوديون فى خمسينات هذا القرن وصفقنا لهم طويلا لاكتشافهم هذه الحقيقة المؤلمة !

وعندما زرت حديقة الحيوانات فى مدينة سيدنى باستراليا لم أجد الا ثلاثة من الكانجرو . وسألت ان كان هذا الحيوان قد أصبح نادرا . فكان الرد نعم . حتى أن جزيرة فى مدخل خليج سـانت فنسنت اسمها « جزيرة الكانجرو » أصبح الآن اسمها : جزيرة الكانجرو سابقا .. أو جزيرة الـ .. حيوان الذى كان هنا !

* * *

وأهم ما جاء فى مذكرات الكابتن جيمس كوك فى سنة ١٧٧١ هذه العبـارة : انشـغلنا جدا بهذه الحيوانات الغريبـة والطيـور العجيبة ومن أين جاءت وكيف جاءت .. ولكن لم يتسع وقتى لفهم أشياء كثيرة فمن الاشياء التى لاحظها أن حيوان الكانجرو هذا اذا مرض أمتنع عن الطعام ، وانزوى وحده وأبعد صغاره عنه .. وأحيانا تجىء اناث أخريات وتتولى كل واحدة اطعام هذه الصغار .. واذا أحس هذا الحيوان بأنه سوف يموت ، فانه يحفر الارض بقدميه الاماميتين .. وكلما كانت الحفرة عميقة كان اقترابه من الموت .. فاذا مات فانه يتمرغ فى حفرته .. ولا يسكن تماما الا وقد

انهال عليه التراب كله .. كأنه حفر قبرا ثم دفن نفسه فيه تماما .»

والكابتن كوك يكرر ما شغل العلماء والاطباء من الوف السنين. فهم جميعا كانوا ينظرون الى الحيوان بهيام ويقــارنون بينه وبين الانسان . وعندما يريدون أن يعرفوا الانسان يفتحون بطن الحيوان. يريدون أن يعرفوا جلد الانسان فيسلخوا جلد الحيوان . يريدون أن يعرفوا ما الذى يضخه قلب الانسان فيفتحوا قلب الحيوان .. ان العالم الفرنسى هارفى عندما اهتدى الى الدورة الدموية كان ذلك عن طريق تأملاته وتشريحاته للحيوانات.. والعالم الكبير مالبيجى عرف التنفس عند الحيوان عندما اخذ يكتم انفاس الحيوان . بل انه قد اهتدى الى الكريات الحمراء عندما راى ذلك فى حيوان القنفذ .وكان يظن أن هذه الكريات هى أنواع من الدهن .. ثم انه نقل دم الكلاب بعضها الى بعض ، قبل أن ينقل دم الاغنام الى الانسان .

وعندما اهتدى الانسان فى أوائل القرن الثامن عشر الى الجهاز العصبى كان ذلك عن طريق تعذيب الحيوانات بالابر والنــار ، ليلا ونهار .. هنا ادرك الأطباء والعلماء ، أن الاجهزة التى تحرك الانسان هى نفسها التى تحرك الحيوان .. وان للجميع اعصابا وان هذه الاعصاب تمسك كل اعضائه وعضــلاته .. وتؤثر على وظائفه ــ يكفى أن ننظر الى هذه الحيوانات !

* * *

ولا شىء يدل على طموح الانسان ورغبته المستمرة فى العــلو والتخلص من متاعب المسافات بين الناس وبين البــلاد ، مثــل اعجابه بالطيور وخفتها ورشاقتها فى الحركة وركوب الهواء .. كل

النقوش القديمة تدل على هذا الاعجاب بالصقور والنسور . ولكن الانســـان نفســـه لم يعجب بالذباب مع انه اعجوبة الحشرات . ! لان الذباب مرتبط فى ذهنه بالقذارة وبأنه يضايقه عند النوم والاكل. واذا نظرنا الى تكوين الذبابة لوجدنا أنه يفوق فى اعجازه تكوين النسر .. ان جناح الذبابة تحفة هندسية حيوية . ان سرعة الذبابة فى الطيران والانقضاض تذهل اعظم المهندسين . فسرعتها لا تتناسب مع طول الاجنحة ومع جسمها . ولكن أحدا لم يلتفت الى ذبابة . وانما كان الانسان مشـــغولا بالطـــيران .. وعند الاغريق ، وفى اساطيرهم الرائعة حكاية ديادلوس .. كان فنانا قادرا على صناعة الكثير من الادوات التى استخدمها الفلاح والطبيب والمهندس .وهو الذى اخترع شراع الســـفن . هـــو ايضـــا الذى اخترع الدفة والسنارة والمصيدة . وكان عبقرية عظيمة . يكره أن ينافسه أحد . ويبدو أن له ابن اخت سوف يكون اعظم ، فالقى به من النافذة ومات الشاب قتيلا . وهرب العبقرى الشرير الى احدى الجزر . وصنع لاحدى الملكات سجنا لا يمكن أن يهرب منه احد ، لكثرة سراديبه . ولكنها لم تأمن اليه . وخشيت أن يهرب ويصنع سجنا مماثلا فى جزيرة أخرى ولملكة أخرى . فحبسته فى هذا السجن . واستطاع أن يصنع لنفسه ولابنه الصغير ايكاروس جناحين من الريش الطويل والصق الريش بالشمع . وهرب الاب وابنه .. ويقال ان ابنـــه ارتفع فى السماء فأذابت الشمس الشمع من جناحيه وسقط الابن ميتا .. أما الاب فنزل فى احدى الجزر . ويقال انهم وجدوه ميتا ووجدوا حبالا طويلة فى عنقه .. ووجدوا فى هذه الحبال عشرات من النسور .. يبدو انه كان يريد هذه النسور أن تحمله .. ان تطير به الى مكان بعيد . ولكن النسور حملته بعض الوقت وشدته جاذبية الارض ، فمات وماتت النسور !

وقد حاول أحد علماء الاندلس واسمه عباس بن فرناس أن يطير

هو أيضا . وكانت محاولته فى القرن التاسـع الميلادى . وغطى جسمه بالريش والقى بنفسه من جبل .. وحمله الريش قليلا .. ثم سقط ميتا وارتفع الريش فى الهواء ..

ولم تمت فكرة الطيران عند الانسان وانما تجددت فى كل العصور .. ففى القرن الثامن عشر فى فرنسا ، حاول كثيرون ان يستخدموا بالونات الورق فى الطـيران . ولم يفضـلوا على الورق بالون الحرير . وارتفع الورق وهبط على مدى قريب . وفى سنة ١٧٨٣ ارتفع من باريس بالون ورق . وهبط البالون بعد مسافة عشرين كيلو مترا . ولم يكد الفلاحون يرون البالون الطائر ، حتى ظنوا ان القمر نفسه قد سقط من السماء . واقتربوا منه . ومزقوه . وربطوا البالون المحطم فى ذيل احد الخيول ، وراحوا ينقلونه بين القرى ، احتفالا بالنصر . فأصدرت الحكومة الفرنسية بيانا تصف فيه هذه التجربة وتؤكد اهميتها للانسانية . وانه لا خوف على أحد ولا ضرر له فى ماله وعياله .

وفى ١٩ سبتمبر ١٧٨٣ ارتفع بالون اكبر ومن الورق أيضا . وكان صاحب البالون اكثر خيالا واعنف طموحا . فعلق فى البالون صندوقا من الخشب . وفى الصندوق خروف ودجاجة وبطة . وارتفع البالون. ومضى تحمله الريح بعيدا . ثم هبط . ونزلت الحيوانات منه سالمة .. وبعد ذلك بسنوات ركب البالون بعض المغامرين وعبروا به المانش . واتجه الانسان الى اساليب وحيل جـديدة فى صـناعة الاجنحة الهندسية لكى تطير به من مكان الى مكان ابعد واسرع من الطيور نفسها . ويكفى ان ننظر الى ماركات شركات الطيران العالمية لنجد ان هذه الماركات ليست الا مباراة رائعة فى تصوير معنى الطيران والطيور . فكل هذه الماركات تشير الى خفة الحركة ورشاقتها

وسلامتها هبوطا من الجو وصعودا اليه .. كأنها طيور آمنة مطمئنة لا خوف عليها ، ولا خوف منها على أحد !

فالاعجاب بالطيور وتقليدها ومحاولة فهمها ليمكن فهم الانسان هو هدف العلماء من الوف السنين . وليست الطيور وحدها التى يريد الانسان أن يتخذها وسيلة لفهم الانسان . وانما كل الحيوانات . ومن اقدم العصور كان الملوك يهدون اطباءهم أناسا مجرمين ليجربوا فيهم المشارط والسكاكين . فالملك كان يفتح السجون للطبيب الخاص ليختار واحدا من هؤلاء النزلاء ليشرح جثته ويعرف ما هى هذه الحياة .. ما القلب ما الكبد ما الامعاء .. ما المعدة .. وكان يحدث ذلك فى مصر الفرعونية وفى فارس القديمة ..

وكان رجال الدين فى كل العصور يحرمون قتل الحيوان بقصد البحث العلمى . وانما يرون القتل للصيد او للاكل ممكنا .. أما اسالة دم الحيوان وتقطيع أطرافه ، مهما كان الهدف نبيلا فشىء حرام . ولعل الفنان العظيم ليوناردو دافنشى قد هرب الى روما لهذا السبب . فقد كان يريد أن يشرح جثة خنزير أو بقرة ليعرف تكوين السيقان والراس . وكان يعلم أن رجال الدين يرفضون هذه النظرة العلمية الواقعية للاشياء . ولا يرون فيها الا خروجا على الدين ..

وعندما انتشر القتل بالسم كان الملوك ، وخصوصا لويس الرابع عشر ، يطلبون الى الاطباء أن يذوقوا الطعام قبلهم .. واحيانا يموت الأطباء ، ثم لجأ الملوك الى استخدام المجرمين واللصوص الذين يعتقلونهم فى مكان خاص بالقرب من القصور .. واخيرا اهتدى

الاطباء الى وسيلة لانقاذ ارواحهم هم ، فأتوا بالحيوانات يطعمونها ما يقدمونه للملك .. وكان السم احيانا شديداً فيتلوى الحيوان تحت قدمى الملك .. فيرفض الملك الطعام أياماً من شدة الخوف ..

* * *

ومن حوالى مائة سنة فقط ، ظهر شعور انسانى يغمر أوروبا كلها ويدعو الى الرفق بالحيوان والرحمة به . فهو أيضا يتألم ويتعذب مثلنا . والذى يرحم الانسان ، هو نفسه الذى يرحم الحيوان . والذى يقسو على الحيوان هو نفسه الذى يعذب الانسان . ولذلك يجب أن نتواصى بالرحمة بهذه المخلوقات لنكون رحماء بأنفسنا .. والاطفال يجب أن نعلمهم حب الحيوانات ليحبوا بعضهم بعضا .

بل أننا رأينا الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو يدعو الى أن نعلم الاطفال الرحمة بالحيوان حتى اذا كبروا كرهوا القسوة على أحد من الناس ..

وقبل روسو بعشرين قرنا اقام الملك الهندى اشوكا أول مستشفى للحيوانات المريضة ، وجعل علاجها اجباريا . وكان يقول :لا أصدق أن أبا يحب أطفاله ، اذا رأى كلبا مريضا ولم يساعده بلقمة أو قليل من اللبن .. لا أصدق ان الأم لا تأكل بنيها ، اذا رأت هرة تلد ثم القت عليها بالتراب ، لانها تتشاءم من منظر الحيوان وهو يلد !

وفى أيام الحروب كانت تقام الحظائر للخيول . ولكن اذا مرض حصان قتلوه . حتى لا تنتقل عدواه الى بقية الخيول !

حتى كانت سنة ١٧٤١ . فى هذا العام أقام رجل فرنسى اسمه كلود بوجيلا مدرسة يعلم الناس فيها كيف يعالجون الحيوانات . مدرسة للطب البيطرى . صحيح كانت هناك محاولات مماثلة وضيقة النطاق فى هولندا او سويسرا أو بروسيا . ولكن هذه المدرسة الفرنسية اكتسبت شهرة عالمية . وجاءها طلاب الطب والعلاج من كل مكان. وكانت هذه المدرسة تنصح الطالب : بأن يكون انسانا فى معاملة الحيوان .. وان يؤمن ايمانا مطلقا بأن هذا الحيوان ، لأسباب لا نعرفها ، عاجز عن الكلام .. اى عاجز عن الشكوى من العطش والجوع أو الألم .. وان هذه الحيوانات تحب من يحبها — والكلب اكبر دليل على ذلك . وأن فى هذه الحيوانات شهامة ونبلا — الحصان اقوى دليل على ذلك ..

وظهر من هذه المدرسة عدد كبير من الاطباء لعلاج الحيوانات التى تنفع الانسان : الحيوانات التى نأكل لحمها أو نبيع جلدها او تجر العربات أو تحرس له العربة والحصان والبيت ..

ولا تزال فى العالم عشرات الالوف من مستشفيات الحيوان .. والوف المجلات للحيوان .. ومئات الشركات تعد الطعام الخاص للحيوان والطيور . وعشرات من أصحاب الملايين يتركون ثرواتهم للحيوان — حبا فى الحيوان ، او كرها فى الانسان !

ويوم ارتفعت الكلبة لايكا فى احدى سفن الفضاء تدور حول العالم ثارت جمعيات الرفق بالحيوان . تقول : وحشية.. جريمة!..

مع ان فى المعامل فى كل مكان الوف الحيوانات تموت فداء للانسان. ولكن هذه القلوب الرحيمة بالكلبة لايكا نسيت الانجاز العلمى

العظيم الذى رفع الكلب تمهيدا لارتفاع عشرات من رواد الفضاء .. فماتت الكلبة لايكا ودفنت فى قبر من نوع غريب ، قبر يدور حول الناس وعلى ارتفاع مئات الكيلو مترات من الارض وبسرعة عشرات الألوف من الاميال فى الساعة ..

وكانت هذه الجنازة العجيبة التى اشترك فيها كل سكان الارض : جنازة حارة والميت كلب !

لو نام الأرنب قليلاً لأدركته السلحفاة !

*** فى القرن الثامن عشر تاكد لدى الناس ذلك المعنى الذى جاء فى الكتاب المقدس : ان الناس ولدوا ليندموا على انهم ولدوا .. فقــد كانت الحياة قاسية : ارهاق ومرض وموت بعد ذلك. ولا يتسع وقت الانسان ليسال نفسه : صحيح ما معنى هذا كله ؟ ماذا اخذت ؟ ماذا اعطيت ؟ ما الذى يتبقى منى لاحد من الناس . والجواب عادة : لا شىء ! كان الناس ولدوا ليكونوا بعــد ذلك : لا شىء ، كما كانوا قبل ان يولدوا — انها نظرة مثل الحياة ومثل مداخن المصانع الجديدة: ســوداء ! ..**

وفى سنة ١٣٨٤ اعلن البابا كلمنس السادس أن عدد الاوروبيين الذين أبادهم « الموت الاسود » ذلك المرض اللعين قد بلغ ٤٢ مليونا!

ولم يكن المرض هو الحاصـــد الوحيد للأرواح . لانه اذا لم يكن مرض اخترع الانسان الحروب . واذا لم تكن حروب اخترع الانسان

الكراهية التى تؤدى الى القتل ـــ اثنان من أولاد آدم قد فعلا ذلك وكان عدد سكان الأرض أيامها ستة أشخاص !

كما أن حرب المائة عام هدت حيل فرنسا .. وحرب الثلاثين عاما مزقت قلب المانيا ..

وفى انجلترا جاءت حرب الخمسين عاما فأطاحت بالكثير من الرجال والشباب ..

ولم تفت هذه الظاهرة عددا من المؤرخين ، الذين وضعوا ساقا على ساق وقالوا : ان هذا يحدث كل عشرسنوات ، ويجب أن نتوقع ذلك ، فالنساء يلدن والرجال يحصدون ماوضعته النساء .. وبذلك يظل عدد سكان العالم رقما ثابتا . انها حكمة السماء منذ نزل ثمانية من البشر من سفينة نوح فوق جبل أرارات !

ولكن ما هذا الذى يجرى بين الناس .. انهم يتزايدون رغم ذلك، والطعام لا يكفيهم ، ولابد أن يجد الانسان وسيلة ليكون هناك طعام من النباتات ومن الحيوانات .. ليكون هناك كساء وغطاء ومشروبات ومساكن ليوالى الانسان زيادة عدده ورفاهيته ، ويموت من أبنائه اقل عدد ممكن .

وفى احدى القصص التى ظهرت فى أواخر القرن الثامن عشر يقول الكاتب : لم نعرف بالضبط كيف يجىء هؤلاء الأطفال ، ان الرجال عادة يخطئون فى عدد أولادهم الشرعيين وغير الشرعيين .. ولكن

الامهات لا يخطئن ، ويستحيل عليهن ذلك . فالام تحمل طفلها تسعة شهور ، ولكن الرجل يحمل ذلك الطفل ساعة أو اقل من ذلك كثيرا، فالرجل لايدرى به ولكن الام تعرف ذلك جيدا ولن يتحمس الرجال لان يكون عندهم أولاد اقل .. ولكنها المرأة هى التى يجب ان تفعل شيئا ـــ ن نساء الاغريق ضربن ازواجهن لان الرجال يدخلون الفراش دون أن يضعوا فى شعورهم شيئا من العطر ، او على اجسادهم شيئا من الزيت الذى يكسب الرجل حيوية وقدرة على امتاع المراة.. فلتفعل المراة شيئا .

والمعنى هو ان الكاتب يطلب الى المراة ان ترفس الرجل حتى لايقربها وحتى لايزيد عدد الناس فى كل مكان .. ومن حقها أن تفعل ذلك فهى التى تتعب وهى التى تتعذب . اما الرجال فلا يشعرون بشىء .. وهذه القصة الانجليزية تذكرنا بموقف قديم قبل ذلك بالف سنة . عندما اختلف ابو الاسود الدؤلى مع زوجته على الطلاق وحضانة الأطفال قالت الزوجة أمام القاضى : انا تعبت انا حملت أطفالى . انا اولى بهم .. قال الزوج : انا حملت الطفل قبل أن تحمليه انت . قالت الزوجة : انت حملته فى ظهرك خفيفا ، وانا حملته فى بطنى ثقيلا .

وحكم القاضى للزوجة بحضانة الأطفال !

واستطاع قسيس انجليزى ان يحدد بالضبط مشكلة تزايد السكان فى العالم انه القسيس مالثوس . وكان ذلك سنة ١٧٩٨ عندما أصدر كتابا بلا امضاء .. انه يقول : ان الطعام فى العالم يتزايد بصورة حسابية : ١ ـــ ٢ ـــ ٣ ـــ ٤ بينما يتزايد عدد سكان العالم بصورة هندسية ٢ ـــ ٤ ـــ ٨ ـــ ١٦ وهكذا .

ومعنى ذلك أن الطعام لن يكفى الانسان ، وان الانسان يعيش ويكبر ليموت جوعا ، الا اذا توقف الانسان عن النمو ، أو الا اذا ضاعف طعامه وشرابه بنفس السرعة ، ويبدو أن هذا غير ممكن فالمطلوب من الانسان أن يتوقف عن التكاثر .

وهذا القسيس يقول : وليس من مصلحة الانسان أن يوفر الطعام الكثير لانه كلما زاد الطعام تزايد عدد الناس فكأن الطعام يؤدى الى النتيجة غير المطلوبة .. فالأفضل هو الا نزيد الطعام حتى يموت الناس من الجوع . ويكون الجوع هو أول منظم للنسل ومحدد له، او يبحث الناس عن طريقة لانقاص عددهم .

يقول القسيس مالثوس : صحيح أن الارنب والسلحفاة لو دخلا فى سباق فمن المؤكد أن الأرنب هو الذى سوف يصل الى الهدف أسرع . لا شك فى ذلك ولكن لو طلبنا من الأرنب أن ينام قليلا فى الطريق فان السلحفاة سوف تصل قبل الأرنب ، أو تصل معه فى وقت واحد !

وسارعت الهيئات الدينية بتفسيرات جديدة لتحديد النسل ، فالانسان حيوان تحكمه الغريزة ، ولذلك لا يستطيع ان يحدد عدد صغاره . ولكن الانسان يتصرف بالعقل ولذلك يجب أن يستخدم عقله ، وقال القساوسةفى أوروبا فىذلك الوقت : الطهارة يارجال.. الطهارة . فالذى يعف عن الجنس هو الذى يجد الرغيف فجزاء العفة ان تجد الطعام والشراب .. والنزوات عقابها الجوع !

أما رجال الصناعات وأصحاب رءوس الأموال فقد انزعجوا ،لان

تحديد النسل معناه ان يصبح عدد العمال اقل . فاذا قل عددهم ارتفعت اجورهم ، واذا ارتفعت اجورهم نقص ما يكسبه أصحاب المصانع والمتاجر .. ولذلك وقفوا ضد القسيس مالتوس الذى يدعو الى تخريب بيوت المال فى أوروبا كلها !

وقال السياسيون المحافظون : بل يجب ان يحدد الناس نسلهم، والا زاد عدد الجياع ، فاذا زاد عددهم قاموا بثورة كثورة فرنسا، واطاحوا بالملكية فى انجلترا . وقلبوا الأوضاع واختلت الموازين والقيم الاجتماعية .. ولذلك فنظرية القسيس مالتوس هى أعظم ما اكتشف الانسان فى كل العصور !

واخذت الجامعات تلقى عليه نياشينها العلمية ، وتطلب اليه أن يحاضر فيها ، فهو الذى وضع أصابعه على داء البشرية ، واقوى قوى التاريخ الانسانى !

ولو نظرنا الى عالم الحيوان لوجدنا شيئا مخيفا ، ففى عالم الأسماك مثلا : نجد ان انثى سمك الرنجة تضع أربعين الف بيضة بينما تضع سمك موسى تسعة ملايين بيضة والسلامون تضع ثمانية وعشرين مليون بيضة .. وسرطان البحر الامريكى يضع مائة مليون بيضة ، وهذا يتكرر خمس مرات فى السنة .

وفى عالم الحشرات : نجد ان ملكة النحل تضع فى السنوات الثلاثه الاولى خمسة ملايين بيضة .

اما الضفدعة فانها تلقح ٥٤ الف مليون بيضة فى السنوات الثلاث

الاولى من حياتها ، وربما كان هذا هو السر فى أن عدد الضفادع فى العالم يتوازن دائما — هناك الكثير فى كل مكان فى أى وقت !

***

وهناك مسافة كبيرة جدا بين عدد البيض وعدد البيض الذى تم اخصابه .. وهذه المسافة تصبح أوضح واكبر فى الانسان ، فعدد الحيوانات المنوية عند الرجل طول حياته تقدر بالوف الملايين وعدد البويضات عند المراة مئات الالوف .. ولكن لابد من حيوان واحد من الرجل لبويضة واحدة من المراة ليكون هناك طفل .

ولان المراة لاتقوى على حمل أكثر من طفل فان هذه الحيوانات المنوية والبويضات لا ضرورة لها .. وفى عالم الحيوان والحشرات نجد أن الذكر ليست له اهميته . فاذا قتل او اكلته الانثى فان الطبيعة لاتخسر شيئا بالمرة ، بل‌ان الملايين من‌البويضات المخصبة تحل محله بسرعة ، فالذكر ليس شيئا هاما لكى تستمر الحياة .

ولو كانت كل الحيوانات المنوية عند الرجل تلتحم بكل بويضات المراة لكان عدد سكان الأرض ضعف هذا العدد بألوف الملايين من المرات . ولكن انثى الرجل هى التى تحدد النسل . ومن المعروف ان‌المراة لاتستطيع أن تحمل أكثر من عشرين مرة فى العمركله .. وهذه هى الحالة النادرة ، ولكنها عادة لا تتجاوز الثلاثة أوالأربعة الا قليلا .. وهذا ينطبق أيضا على كل الحيوانات الاخرى التى ياكلها الانسان !

والأغنياء وحدهم هم الذين انشغلوا كثيرا بعدد أطفالهم وبالجوع. فهم لا يريدون لاطفالهم أن يجوعوا . أما الفقراء فان الجوع لا يشغلهم . لأنهم الجوع نفسه ، والفقراء كلما اشتد بهم الجوع ، احسوا باقتراب الموت ، وأصيبوا بحالة نهم جنسى ، فيزداد عددهم .. لهذا زاد عدد الفقراء الذين ازدادوا فقرا !

ولابد أن ينشغل الناس عموما بالبحث عن موارد للطعام ،لتوسيع رقعة الأرض المزروعة عشبا ، أو بالهجرة الى بلاد أخرى ، الايرلنديون هربوا من ارضهم القاحلة الى أمريكا ، الانجليز رفضوا أن يتركوا أرضهم ، ولذلك زاد عددهم وزادت مصانعهم ، ولكن حدث شيء غريب : زادت الأقمشة أمام الناس ، فكانوا يجدون الكساء ولا يجدون الغذاء وقالوا عن أنفسهم : أننا وجدنا الشيء الذى يدفىء الجلد ، ولا يدفىء المعدة !

ولكن الانجليز وجدوا الأيدى الكافية لادارة مصانعهم ، وكانت هذه المصانع للنسيج ، ولم يتوافر لديهم نفس هذا العدد من مصانع الطعام .

بدأ الانجليز — مثلا — يستوردون طعامهم من الخارج ، أما ملابسهم ، فمن الداخل .

وبعض أصحاب الأغنام أرسلوها الى الارجنتين حيث الجو افضل والطعام أوفر ، وبعضهم أرسل مئات الأغنام التى أصبحت مئات الالوف ، الى استراليا ..

وكانت المشكلة هى نقل هذه الحيوانات بعد أن تعبت وسمنت الى أوروبا ، ولكن اكثر هذه الأغنام كان يموت فى الطريق وكانت أمراض الحيوانات تتفشى بسرعة — وتهلك سفنا بأكملها .

وفى ذلك الوقت اخترع رجل استرالى سفينة تنقل لحوم الأغنام والأبقار الى أوروبا ، وكانت السفينة تقوم بتبريد اللحوم ، وكان ذلك انقلابا فى صناعة التغذية ولكن النـــاس فى أوروبا لم يستسيغوا اللحوم الباردة .. وكانت هذه اللحوم طعام الفقراء . أما الأغنياء فيفضلون اللحوم الحية .. يرونها ويذبحونها ..

ولكن رجلا فرنسيا اسمه تلييـــه سنة ١٨٧٧ اخترع « ثلاجة » وكانت الثلاجة على شكل سفينة ، فهذه السفينة تنقل اللحوم مجمدة من الارجنتين الى فرنسا وانجلترا . وكانت رحلة السفينة تستغرق مائة يوم ، وتظل اللحوم متجمدة سليمة . وكان ذلك هو اعظم اختراع انقذ أوروبا كلها من الجوع . وانتشرت الثلاجات العائمة فى الموانى الاوروبية والموانى الأمريكية ، وانحلت مشكلة اللحوم الى حين وبقيت اللحوم المجمدة طعام الفقراء !

واذا كانت الثلاجات قد انقذت الفقراء فان الآلات الحديثة التى ظهرت فى ذلك الوقت قد خربت بيوت الفقراء فالآلات البخارية التى استخدمت فى المواصـــلات وفى المصـــانع قد استغنت عن الأيدى العاملة ، وكان أصحاب المصانع حريصين على الآلات لأنها تختصر الأيدى العاملة وتوفر لهم المال ، وظل العداء قائما بين الآلات وبين الأيدى العاملة .. ولا يزال ..

***

وفى ذلك الوقت من أوائل القرن التاسع عشر ظهر سباق الخيل . وكان الانسان لايريد ان يصدق أن القطار أسرع من الحصان ، ولذلك بدأ الانسان ينظم مسابقات الخيول ، وقبل تنظيم المســـابقات كان يحرص على اقتناء أحسن سلالات الخيول . وأحسنها بالفعل تلك

التى جاءت من أصل عربى ، وهناك خيول أخرى مولدة : أضخم واثقل واطول سيقانا واضخم عنقا ورأسا ، ولكن افضل الخيول جميعا هى العربية الرشيقة .

وفى الوقت الذى أخذت انجلترا بلعبة سباق الخيول ، اتجهت اسبانيا الى مصارعة الثيران ، حتى ثيران أسبانيا هى الاخرى قد جاءت من الشرق . بعض هذه الثيران مصرى فرعونى .

والقرن التاسع عشر يعرف اسماء عدد من الخيول قد غيرت الحياة الاجتماعية ، فهناك الحصان الشهير « دارلى » الذى كسب ثلاثين سباقا وفاز بعشرين كأسا فضية ، ولم يسبقه حصان واحد . . بل أن أبناءه من الخيول وهى معروفة الاسم ، قد بلغ عددها ٣٤٤ حصانا ، قد عادت الى أصحابها بمليون جنيه ! .

واصبح من المألوف جدا فى أوروبا كتابة تاريخ حياة الحصان ، أصله ومن اين جاء ، وأولاده بالاسم ، وأماكنهم وأحجامهم ، والسباقات التى اشتركت فيها .

وفى انجلترا تأسس نادى الجوكى سنة ١٧٥٠ ، وبعد ذلك بثلاثين عاما بدأ اللورد دربى السباق المشهور المعروف باسمه حتى الآن . . وكان هذا السباق متعة كبرى وفرصة دولية لتشترك أجمل واقوى الخيول فى السباق والمراهنة .

وربما كان نابليون بونابرت هو أول من اخترع فكرة أرض السباق، وأن تكون الأرض ناعمة وأن يكون الطريق أمام الحصان ممهدا . فقد ارسل له أخوه لوسيان خطابا يستأذنه فى اقامة سباق العربات . ولكن نابليون اعترض على سباق العربات التى تجرها الخيول لانها لعبة اغريقية قديمة ، وان العربة تعوق الحركة وان الاغريق كانوا

يتسابقون بالعربات لانهم كانوا يحاربون من فوق العربات وبها .. أمام على أيام نابليون فكانوا يحاربون من فوق ظهـــور الخيول ، فالسباق بالخيول هو مناسبة للتدريب على القتـــال ولذلك . أمر نابليون بعمل أرض للسباق وتسويتها وتغطيتها بالعشـــب فيتمكن الحصان من الانطلاق ، واذا سقط من فوقه الفارس فلا تكون اصابته خطـــرة !

وانتشرت لعبة السباق فى أوروبا كلها ، وأصبح الأغنياء يتباهون بأن لديهم أحسن الخيول واكثرها عددا وبأن لديهم اصطبلات فخمة .. واذا كان الأغنياء قد انشغلوا بتربية الخيول فان الفقراء قد وجدوا لهم لعبة أخرى : السيرك .. ففى السيرك تلعب الخيول والحيوانات الاخرى ... فالسيرك متعة أرخص ، وفى نفس الوقت فرصة لان يتفوق الفقراء على الاغنياء بالبراعة والصبر فى مواجهة الاســـود والنمور وركوب الخيول .. والتصفيق للاعبين المهرة : اى للفقراء من أمثالهم ..

وعندما يتعب الفقراء من الفرجة على الســـيرك ، فانهم يذهبون الى حديقة الحيوانات ، ففيها الحيوانات من كل نوع جاءت من آخر الدنيا لتكون جاهزة لتسليتهم فى أى وقت !

« وبعد ذلك يذهب الناس الى بيوتهم سعداء بما راوا ، وبأنهم قد عوضوا ما فاتهم من امتلاك الخيول ، بالنظر اليهم والاعجاب بأصحابها .. وينامون فى الليل ، ويولد الأطفال فى الصباح » — كما يقول الكاتب الايطالى البرتو مورافيا .

ففى احـــدى قصص مورافيا يجىء الرجـــل الذى يعد السكان ويسأل : كم عدد الأطفال عندكم ، فتقول الأم : عشرة .

ويقول موظف التعداد : تقولين عشرة ؟ .. ياه ! عشرة ؟

ويرد الزوج : نعـــم يا ســـيدى عشرة .. ليس عنـــدنا راديو ولا تليفزيون ، ولذلك فنحن ننام فى ساعة مبكرة !

ـــ معقول .. ويمضى الرجل يدق ابواب البيوت الاخرى عينه على الباب والعين الاخـــرى على الســـطح ، ليرى ان كان عندهم تليفزيون !

وفى نفس الوقت تتزايد الحشرات بالوف الملايين ويصرخ الانسان من الجوع فى آسيا وافريقيا !



نظرية التطور!

رد الاعتبار للحيوان!

كانت محاكمة العصر كله . فقد اجتمع العلماء ورجال الدين وكانت الراهبات يمسكن المناديل ويشرن بها الى ذلك القس الوسيم الرشيق الذى جلس متحفزا ليدافع عن الدين عن كل سطر جاء فى الكتاب المقدس . عن ان الانسان الأول كان اسمه آدم . وان البشرية كلها قد جاءت من سلالته .. وامام هذا القس واحد من العلماء اسمه هكسلى جاء يدافع عن نظرية تقول ان الحيوانات تتطور .. وربما كان الانسان أصله قرد . وليس ذلك بعيدا فالتشابه شديد جدا بينهما .

دخل العالم الكبير وجلس فى مواجهة القس . فقال له القس متسائلا مستنكرا : أريد ان أعرف منك ان كان جدك لأمك او لأبيك قردا ؟ ..

وضحك الحاضرون وهنأوا بعضهم البعض . ولكن العالم الكبير

قال له : يشرفنى أن يكون جدى من الناحيتين قردا .. ولا يشرفنى ان يكون واحدا مثلك يستخدم ذكاءه وعقله فى مناقشة قضايا علمية لا يفهم فيها شيئا !

وانتهت المناقشة فجأة بانتصار العالم الكبير هكسلى . أى انتصار فلسفة داروين التى كانت قد هزت الفكر والحياة فى أوروبا كلها فى منتصف القرن التاسع عشر !

وعندما سمع داروين هذه المناظرة قال : كان من السهل جدا أن اموت لمجرد أن اتصور أن احدا سوف يحاكمنى هكذا ..

فلم يكن داروين ذلك الرجل القوى القادر على المناقشة والمناورة. وانما كان رجلا هزيلا مريضا .. فعندما سافر فى رحلته الشهيرة لمدة خمس سنوات الى أمريكا واستراليا كان عمره ٢٢ عاما . وكان اضعف المسافرين . وكان يعمل فى هذه الباخرة العلمية باحثا فى الحيوانات والنباتات . ولميكن أحد يتصور أن تشارلز داروين هذا من الممكن أن يكون شيئا هاما فىالتاريخ . ولم يخطر على بال أحد ان داروين هو كولمبوس الجديد .. فاذا كان كولمبوس قد اكتشف قارتى أمريكا ، فان داروين قد اكتشف قارات من المعلومات العجيبة فى تاريخ النباتات والحيوان والانسان . بل أن كل العلماء راحوا يدرسون من بعده تاريخ الحجارة والتراب .. لان كل شيء له تاريخ وكل شيء على الأرض قد تغير وتطور .. فالتطور هو قانون الأشياء كلها ، كما انه قانون الحيوانات كلها كما قال داروين .

وفى هذه الرحلة التى غاب فيها داروين عن بلاده قد درس عينات

كثيرة جدا من النباتات والحيوانات .. واهتدى الى مجموعة من الأفكار .. ولكنه لم يجرؤ على أن يعلنها . فهو أولا ما يزال صغيرا، ثم أن هذه الأفكار مختلفة تماما عن الافكار السائدة أو «المتسيدة» للهيئات العلمية كلها . ولذلك عندما أرسل لبعض أصدقائه من اكتشافاته جاءت عباراته خائفة مرتجفة ، كأنه يعترف بجريمة ارتكبها ، ولم يكن ذلك قصده . وانما وجد نفسه أمام شيء جديد مختلف . وكان لابد أن يقول .. وقال .

وفى سنة ١٨٥٩ أصدر دارون كتابه عن « أصل الانواع » ..

وكان هذا الكتاب نقطة تحول فى التاريخ الانسانى والحيوانى .

ولميكن دارون أول منتحدث عن التطور تماما كما أنخريستوف كولمبس ليس أول من اكتشف أمريكا .وانما تحدث عن تطور الكائنات كلها أناس كثيرون . بل أن عددا من الفلاسفة والعلماء تحدثوا عن التطور قبل دارون . وقبل أن يعرفوا أنه أصدر كتابا يشرح فيه خطوات تطور الحيوانات بعضها الى بعضحتى اقتربت من الانسان.

وربما كان الفيلسوف الألمانى هيجل هو اول من رسم خطوط التطور لكلشيء فى الكون وأول من قال ان الأشياء تتطور بعضها . الى بعض . وان الله قد وضع خريطة وسلالم تصعد عليها الكائنات وفقا لهذه الخريطة . وان التطور من حالة الى حالة هى سنة الكون كله ..

وربما كان الفيلسوف الألمانى شوبنهور هو أول من قدم للانسانية

نظرية التطور التى تحدث عنهـا دارون . وكان شوبنهور أمتع واوضح من دارون . ولم يشك شوبنهور لحظة واحدة فى أن الانسان أصله قرد . قال أن أبناء آسيا أصلهم أورنج تان .. وابناء افريقيا أصلهم من الشمبانزى .. ومات شوبنهاور بعد صدور كتاب دارون بعام واحد دون أن يقرأ منه أو عنه سطرا واحدا . !

وكانت هنـاك نظريات كثيرة تفسر هـذه التغيرات فى تـكوين الحيوانات نفسـها .. لمـاذا رقبة الزرافة طويلة مثلا ؟ يقول عالم فرنسى اسمه لامارك : ان الزرافة تنحدر من سلالة كانت تعيش فى غابات . وكانت الغابات أشجارا طويلة . فاضطرت الزرافة الى أن تمد عنقها الوف السنين لكى تأكل الأوراق من قمم الأشجار .. وطال عنق الزرافة لهذا السـبب .. ومعنى ذلك أن الحيوانات « تتكيف » مع البيئة . او يجب أن تتكيف مع البيئة والا ماتت من الجوع . فالبيئـة هى التى تؤدى الى تغير تكوين الحيوانات . أو حرص الحيوانات على أن تعيش هو الذى يرغمها على ان تتغير وأن تتغاير والا ماتت !

ونحن الآن لسنا بعيدين عن دارون وفلسفته . فهو يرى أن الحياة صعبة على الجميع . وأن الحيوان يجب أن يقاوم العقبات . ومن هذه المقاومة تتولد صلابته . ومن الصلابة يكتسب القوة . ومن القوة يكتسب التغلب على البيئة .. فاذا تغلب عليها عاش .. واذا لم يفلح فى ذلك مات . وكل الحيوانات التى ماتت هى حيوانات قهرتها البيئة وغلبتها الظروف . وأول معالم الحياة هو الكفاح . والكفاح من

صفات الاقوى.والاقوى هو الذى يبقى . فالبقاء للأقوى . والاقوى هو الأصلح للحياة .. فالبقاء للاصلح . والحيوانات التى تعيش هى أصلح الحيوانات لان تستمر . فاذا استمرت دخلت فى صراعات جديدة . وهذه الصراعات الجديدة تحتاج الى أسلحة جديدة والذى يجدد سلاحه هو الذى يبقى . والذى يبلى سلاحه هوالذى يفنى. واذا كان الحيوان ينتقل من مكان فى الصيف الى مكان آخر فى الشتاء ، أو العكس فهو يختار الجو المناسب لحياته .. فالانسان يختار ظروفه المواتية له .. ولكن الطبيعة كلها تختار الحيوان الانسب . والانسان الاقوى . فالاختيار الطبيعى هو اختيار الاحسن . والأحسن هو الاقوى والاقدر على أن يتكيف ويتوامم وأن يتلاءم ويتطابق مع ظروف حياته المادية والاجتماعية .

انتهى تفكير داروين بعد أن حشد له الوف الأمثلة من ملاحظاته الدقيقة جدا التى استغرقت أكثر من عشرين عاما !

وقد ارسل داروين خطابا لصديق له يقول : فى يوم وانا انظر الى القمر يتوارى وراء السحب جاءتنى هذه الفكرة وكأنها صاعقة لمعت فى رأسى وهزتنى . واندهشت كيف أننى لم أعرفها من قبل . لقد ادركت بوضوح أن الحيوانات لا يمكن أن تكون من اصل واحد ثابت . لا يمكن أن تكون قد قطعت ملايين السنين من الغابات والجبال تحت المطر فوق الجليد ، وفى الكهوف على السفوح فى حرب مستمرة ، دون أن يتغير فيها مخالبها أو انيابها أو أظافرها أو فراءها .. مستحيل . هذا ما اهتديت اليه !

ولم يتصور داروين لحظة واحدة انه بهذه العبارات المتواضعة

قد زلزل العلم والدين .. فالعلم لم يكن يرى شيئا من ذلك . وانما يرى العلماء أن القرد أصله قرد .. أما الدين فيرى أن القرد أصله قرد ، وأن الانسان أصـــله آدم وحواء .. ولا علاقة بين القرود والآدميين !

وفى يوم كان داروين يتناول طعـــام افطاره عنـــدما دخل الخادم بخطاب .. فتح الخطاب . انتفض واقفا واجما . ثم ألقى بنفسه على المقعد حزينا .. ولكن لم يســـتمر كذلك كثيرا . فقد أدرك أن حياته كلها فى خطر . وأن سنوات بحثه وملاحظته كلها توشك أن تأكلها نيران المدفأة أمامه .. فالخطاب يقول له : أن رجلا اســـمه والاس يعيش هنا فى جزيرة الملايو . الرجل عالم جليل فقير . مريض . . لقد حبسته الملاريا من ان يواصل رحلته الى أوروبا . هذا الرجل يتاجر فى الفراشـــات النادرة . ويبيع الحيوانات الجميلة لعدد كبير من الهواة والباحثين فى أوروبا كلها .. فهو قد أرسل أكثر من عشرين الف نوع من الفراش والطيور الى الهيئات العلمية . وهو يعيش من الصيد والتجارة . ولكن من المؤكد أن لديه كل مزايا العالم الكبير .. وقد هداه البحث الى شىء جديد .. والرجل يقول أن أساس كل شىء فى الحياة الانسانية والحيوانية هو التطور . وأن الحيوانات تكافح من أجل أن تبقى . والحيوانات التى تبقى هى الأقوى ..

وكلام آخر كثير هو بالحرف الواحد ما قاله داروين !

ومن الغريب أن الرجلين قد خرجا بهذه الأفـــكار بعد أن قرأ كل منهما ما كتبه القس الانجليزى مالتوس عن تزايد الســـكان الذى سوف يؤدى الى جوع الانسان وفنائه . وكل واحد من الرجلين قد ذهب فى طريق ليصل الى نفس النتيجة !

وليس هـــذا هو الحادث الأول من نوعه فى التـــاريخ . فكثيرا ما اهتدى العلماء الى نظريات واحدة فى وقت واحد ، دون أن تكون بينهما صلة ما .. فقبلهما بمائتى سنه اهتدى العـــالم الانجليزى نيوتن والفيلسوف الالمانى ليبنتس الى منهج فى الرياضيات واحد .. والى نظريات فى «التفاضل والتكامل» متطابقة تماما . وسارع كل منهما باعلان نظريته الجديدة .. فكانت النظرية هى هى عند كل من الاثنين .

واهتدى دارون الى حل سعيد حتى لا يتهم الرجل الآخر بانه سرق افكاره . وحتى لا يتهمه والاس بانه هو الذى سرقه . فقرر دارون أن ينشر كتابه الذى الفه فى ٢٣١ صفحة على نفس البحث الذى كتبه والاس هذا . ونشر الكتابان معا . ولكن قـــدر لدارون أن يكون هو صاحب الاسم وصاحب النظرية وصاحب الثورة ايضا .. ولم تساعد الظروف والاس هذا ، فقد كان فقيرا وكان بعيدا عن لندن . ولم يكن لديه هذا الصبر على المتابعة .. ولذلك اصـــبح دارون هو صاحب نظرية التطور أو التطور نفسه اما والاس فهو « الصـــدفة » .. أو هو من عجائب الصـــدف . ودخـــل تاريخ التطور الانســـانى على أنه نكتة : اذ كيف أن رجـــلا مريضـــا فى احدى جزر الملايو يهلوس طـــول الليل ويمســـك القلم ويدفعه أمامه على الورق طالما نازلا كأنه ثعبان يهتدى الى افكار رجل آخر فى لندن مريض ايضا يظل يهرش طول الليل حتى يسيل دمه ، تماما كما كان يفعل نابليون .. ربما وجد علماء الدراسات الروحية فرصة عظيمة ليقولوا : ان الرجل المريض كان فى حالة شفافية جعلته يقرأ افكار دارون وينقلها حرفا حرفا .. بل سطرا سطرا .. مع أن المسافة بينهما عشرات الالوف من الاميال .. ثم أن الرجلين لايعرف أحدهما الآخر !

شيء غريب هذا الذى حدث .. فعندما كان الانســان فى أوائل القرن التاسع عشر يفخر بانه اخترع الآلة . وان هذه الآلة قد اغنته عن الحصان والحمار ، جاء علم الحياة وعلم الســلالات يؤكد ان الحيوان هو أصل الانسان . فاذا كانت العلوم الميكانيكية تريد ان تفخر بأنها نقلت الانسان من عصر الاعتماد على سيقان الخيول وأعناق الأبقار وظهور البغال ، فان علوم الحياة قد أعادت الحيوانات الى مجدها .. بل انها هبطت بالانسان الى ما دون الحيوان .. بل انه ليس الا حلقة فى سلسلة تطورات الحيوان .. وانه ليس بعيدا أن تنظر الأجيال القادمة الى الانسان على أنه حمار أو حصان .. وذلك عندما يتطور الانسان الى كائن آخر أفضل .. المهم فى نظرية داروين انها حركت كل شيء ودفعته الى الامـــام .. أو جعلت من الواجب أن يندفع الى الأمام .. لأن الذى لا يتحول يتجمد . والذى لا يتطور يتدهور والذى لا يتقدم يموت .. وان هذه ليست ميزة خاصة بالانسان ، وانما الحيوان قد سبقه الى ذلك . فلا فضل كبيرا للانسان على الحيوان .. أما الآلة فهى من اختراع الانسان .. والآلة ابســط واتفه من اى حيوان .. فالحيــوان تحفة فى الخلق . وهــذا ما ذهب اليــه رجال الدين ، الذين حاولوا أن يجدوا لهم مكانا جــديدا تحت شمس هــذه النظرية . فاذا كان داروين قد هدم مفهوم الكتب المقدسة لأصل الانسان ، فان رجال الدين بسرعة قد استفادوا من النظرية الجــديدة وتكيفوا معهــا حتى لا يتصلب الدين ورجال الدين ويفوتهم قطار التطور .. ولذلك كان رجال الدين أول من قفز الى القطار الجديد وركبوه حتى لاتضيع من تحتهم ومن أيديهم أهم أسرار الكون .

ولما توفى داروين يوم ١٩ ابريل سنة ١٨٨٢ اعلن رجال الدين ان

هذا الشيطان يجب الا يدفن فى مقابر العظماء • ومن الخير له وللشعب الانجليزى ان ينفذ ما اوصى به وهو ان يدفن فى حديقة قصره الريفى •• ولكن سرعان ما عدل رجال الدين عن هذا الموقف الجامد ورحبوا بأن يدفن الى جوار عظيم آخر هو نيوتن •• فكلاهما عظيم فى الحياة وفى الممات وكلاهما خطوتان فى تطور علوم الطبيعة والحياة ! •



خلقها الله بعناية لتقضي علينا بإتقان!

*** المواصلات الحديثة قربت المســافات بين المدن والدول والقارات . واصبح من السهل ان يتحرك الانسان وان ينقل امراضه من مكان الى مكان بنفس السرعة .. فالانسان يركب السيارة والباخرة وينقل معه ميكروبات او حشرات تحمل الميكروبات والموت الى اى مكان . مثلا فى القرن السابع عشر انتقل مرض اسمه (الجمرة المخية) وهو مرض يصيب كل الحيوانات ، وينتقل الى الانسان . اسمه باليونانية انثراكس . والتسمية دقيقة . ولذلك ترجمه الألمـــان بانه (الفحـــم) والفرنسيون وصفوه بانه الكاربون .**

لأن المرض عبارة عن احتراق داخلى للحيوان . ولم يعرف أحد كيف ينتقل من حيوان الى حيوان الى انسان أو العكس . قالوا : انه عفريت يركب الانسان والحيوان ويشعل فيه النار من داخله. قالوا : لعنة من السماء حلت بالانســـان فنقلها الى الحيوان . وقالوا : غضب الهى على الاثنين ..

ولكن الاطباء عندما نظروا تحت الميكروسكوب وجدوا ميكروبات على شكل عصى .. ووجدوها فى الطحال . ولم يذهب احدا الى أبعد من ذلك .. حتى ظهر عـالم المانى مجهول كان يعمـل فى غرفة ضيقة جدا فى برلين .. هذا الرجل اسمه روبرت كوخ عبقرية فذة فى الفهم والصبر وبعد النظر . وفى سنة ١٨٧٦ عرف كوخ اشـياء كثيرة واكدها بهدوء . وظل كوخ هذا يطارد الميكروبات فى امعاء المصريين ومعدة الهنود وبراغيث اليابانيين وبعوض الأمريكيين .. وعرف الدوسنتريا ، وعـرف الحمى الصـفراء وعرف التيفوس والملاريا .. وكان كوخ هذا رجلا حكيما وكان يقول : ان هذه الكائنات الصغيرة تحدثنى بعبارات دقيقة جدا .. وانا احاول ان اسمعها بوضوح . وانا اؤمن بأنها لا تكذب . بل اننى اعتمد على ذلك كل الاعتماد . ولهذا سوف أصل الى شىء ..

ومن الاكتشافات التى اذهلت كوخ هذا انه عندما وصـل الى اواسط افريقيا اكتشف أن ذبابة « تسى‌تسى » التى تصيب بالنـوم حتى الموت كل من تلسعه ، بها دم تمساح . وبعد ذلك اكتشف أن التمساح هو اكبر خزان لميكروبات النوم ، وان لديه مناعة تامة ضد الاصابة بهذا المرض . واعجب من ذلك انه عثر على تماسيح لاتنام الا نادرا !

***

واهتدى كوخ ايضا الى أن فئران السفن هى التى تنقل الأوبئة من بلد الى بلد ..

فالفئران السوداء جاءت من الشرق فى سـفن الصليبيين ..

فكأن أوروبا قد لقيت ما تستحقه من عقاب .. جاءت تنشر الموت والتعصب ، وعادت سفنها مليئة بالفئران تنشر فيها الطاعون والاوبئة التى اكلت عشرات الملايين من الناس ـ الكوليرا مثلا !
ثم جاء الفأر البنى اللون ..

ففى سنة ١٧٣٢ وقع زلزال عنيف .. وفزعت ملايين الفئران واتجهت الى احد ضفاف نهر الفولجا عند مدينة استراخان .. ولأسباب لا نعرفها الآن بوضوح قررت الهجرة .. وعبرت النهر وغرق منها مليون فأر على الأقل .. ولكن بقية الفئران وصلت الى الشاطىء . وواصلت زحفها الى الجنوب الى اوكرانيا .. ثم الى الغرب الى بولندا . ثم الى بوهميا .. ثم الى الشمال قليلا الى بروسيا .. حتى وصلتها فى سنة ١٧٤٠ .

وفى سنة ١٧٥٣ وقفت عند أبواب باريس ودخلت .. وتكاثرت بسرعة ..

ووصل الفأر البنى الى أمريكا فى سنة ١٨٥١ .. واحتل بجدارة المكان المتواضع الذى شغله الفأر الأسود وراح ينقل بهمة ونشاط أمراض التيفوس وكثيرا جدا من أمراض الفم والقدمين ..

* * *

الى جانب شخصية العالم الألمانى روبرت كوخ ظهرت شخصية استولت على القارة الأوروبية كلها : باستور .. ذلك العالم

الفرنسى النحيف المشلول احدى الساقين .. هذا الرجل لم يكن الناس ينظرون اليه على انه طبيب أو باحث وانما على أنه رجل دين يعالج الناس بالمعجزة . فهو انسان طيب . أو رجل مبارك . وهو نفسه كان يعتمد على احساس داخلى بأنه سوف ينجح .. وأنه سوف يشفى المرضى باذن الله . لماذا ؟ لا يعرف ؟ كيف ؟ لا يعرف . ولكن هذا يحدث له ومعه وبسببه كثيرا جدا .

هذا الرجل هو من ذلك الطراز من الناس الذى لا يخاف الناس .. أى لايخاف أن تكون له افكار خاصة مختلفة عن أفكار الناس .. وان لـه احلاما اخرى يكذبهـا الواقع . ولكنه وحده الذى يصدقها .. انها حياة قاسية جدا : أن يكون الانسان وحده مع افكاره . او أن يكون الانسان مثل خرستوف كولمبوس وكل الناس يسخرون منه ولكنه مؤمن بأنه على حق .. أو مثـل نوح عليه السلام يبنى سفينة على الأرض .والناس يمرون به ضاحكين ولكن نوح كان يؤمن بأن السماء سوف تمطر وان الطوفان سيجتاح كل الناس وسوف ينجو هو باهله من الغرق .. وعلى الرغم من أن نوحا هذا قد أنقذ الناس والحيوانات ، فانه لم يفلح فى أن يقنع ابنه بأن يركب معه .. فنجا الناس وغرق ابنه .. وكذلك العالم الكبير باستور ألذى عالج الكثيرين من الناس وشفاهم ، لم يفلح فى علاج اقرب الاقربين اليه .. وماتوا .. ولكن الملايين شفاهم أو انقذهم قبل أن يصيبهم مرض .

واستطاع باستور ومعهـده ان يحتفظا بهذه السمعة العالمية المحترمة .. من أواخر القرن التاسع عشر حتى اليوم .. بل انه حدث أخيرا جـدا أن أصيب بالتسمم بعض زبائن مطعم فى مدينة

لابلاتا بالأرجنتين . مات منهم عشرون . فأرسلوا عينات من الطعام ومن المصابين الى معهد باستور فى باريس . وبسرعة جاء عدد من العلماء . وانقذ مئات آخرين .. وحدث ايضا أن انتشرت الحمى البابونية فى احـــدى مزارع قصب السكر فى جزيرة مدغشـــقر (جمهورية مالاجشى) . وبسرعة طار عدد من أطباء المعهد واوقفوا سريان الطاعون بين المواطنين . أهم من ذلك ان العالم كله يتوقع من هذا المعهد أن يأتى بالمعجزات ..

ويمكن ان يقال أن ملايين الناس فى العالم اليوم أحياء بسبب هذا المعهد الفرنسى الذى انشىء سنة ١٨٨٨ . ويوم انشـائه وقف باستور نفسه يتساند على واحد من أولاده ويبكى من شدة التأثر .. وقد حرص باستور على أن يكون هذا المعهد اهليا مستقلا .. وقد شارك فى بناء هذا المعهد بأمواله : أطفال من الهند وتلامذة من الصين ومرضى فى أمريكا .. وملوك واباطرة .. وظل هـــذا المعهد هيئة علمية مستقلة تماما ..

* * *

أما الاحداث التى يذكرها العالم لهذا الرجل العظيم باستور فلا عدد لها .. ولكن الرجل كان يؤمن بأن هناك كائنات صغيرة جدا .. هـــذه الكائنات ــ البكتريا ــ هى مصـــدر الشر والخير للانسان . بعض هذه الكائنات تضره وتنقل اليه المرض . وبعضها تنفعه وتقوم بعمليات التخمر فى الطعام والمشروبات .. وهو يؤمن بأن بعض هذه الكائنات اذا ارتفعت درجة حرارتها ماتت . وبعضها اذا جعلناه ضعيفا ، وحقنا به انسانا مريضا فانها تلهب حماس القوى الداخلية فى الجسم الانسانى ليقاوم المرض الثقيل ..

ونحن عندما نقول أن اللبن « مبستر » أى أننا قد بردناه ثم سخناه ، كما كان يفعل باستور . وبذلك ماتت الميكروبات وأنقذنا حياة مئات الملايين من الأطفال فى العالم من الاصابة بالسل !

ومن المواقف الحاسمة فى تاريخ باستور وفى تاريخ العالم كله أيضا :

انتشار مرض الكلب — بفتح الكاف وكسر اللام . فالتاريخ لا يذكر لنا الا حالة واحدة فقط أصيب فيها انسان بهذا المرض ثم قدر له أن يعيش لأن كل المصابين ماتوا ، وكان لابد أن يموتوا ..

حتى كان ذلك اليوم الحاسم فى التاريخ .. أنه يوم « ٦ يوليو الرائع » سنة ١٨٨٥ . جاء طفل فى السادسة من عمره .. الطفل اسمه يوسف ميستر . مهم جدا هذا الطفل . وهذا الاسم . الطفل قد عضه كلب مريض اربع عشرة مرة فى أماكن مختلفة من جسمه .. وكانت محنة . فباستور لا يعرف ما الذى يعمله . ان هو عالج الطفل ومات شمت فيه أعداؤه وقالوا : قاتل .. ألم نقل لكم من وقت طويل ؟ ..

واذا لم يعالجه كان فشله أوسع انتشارا من نجاحه .

ولكنها العبقرية هى التى الهمته أن يحقنه أربع عشرة مرة .. لماذا هذا الرقم ؟ لا يدرى . ولكنه الرقم الذى يتم عنده الشفاء .. وشفى الطفل . وانتشر هذا الخبر فى أوروبا كلها على أنه معجزة المعجزات .. وشاء باستور ان يجعل هذا الطفل اعلانا حيا لنجاحه

.. فجعله بوابا للمعهد .. بل انه بعد وفاة هذا البواب ، أقاموا له تمثالا — وما يزال — فى مدخل المعهد كأكبر نجاح حققه باستور لنفسه وللعالم كله ..

وبعد ذلك جاءه من روسيا ثلاثون فلاحا عضتهم ذئاب مسعورة .. جاءوا الى باريس ولا يعرفون من اللغة الفرنسية الا كلمة واحدة : باستور .. وعالجهم وأنقذ من الموت عشرين واحدا منهم .. أما سبب وفاة الآخرين فلأن الذئاب قد عضتهم قبل ثلاثة أسابيع . وقد جاءوا اليه متأخرين .

وألوف آخرون من كل أوروبا جاءوا الى باستور يطلبون علاجا لأمراض أخرى لا يعرفها.ولكنه تمنى ذلك وتمنى لهذا المعهد الذى انشىء حديثا أن يكون أملا لكل المرضى . والا يرد مريضا .. ولا يخيب املا فى الشفاء .. وهذا المعهد يعيش على الامصال التى يبتكرها ويصنعها ويبيعها للعالم كله لحقن المرضى ..وسلامتهم بعد ذلك ..

يقال أن مريضا سأل باستور : كيف عرفت طريقك الى هذه الكائنات الصغيرة ؟

فأجاب : انا لم اعرف طريقها ، هى التى عرفت طريقى ... واعترضتنى وعطلتنى .

— كيف ؟

ـــ انها اصابتنى بالشلل فى احدى ساقى .. ولا اعرف ان كنت سوف أعيش لاجد علاجا للذين اصيبوا .. أو لاجد وقاية للملايين حتى لا يصابوا ..

ـــ ولكنك انقذت الملايين ..

ـــ هذا رقم كبير ..

ـــ فعلا انقذت الملايين ..

ولكن هناك ملايين آخرين يجب انقاذهم .. ملايين لم يولدوا بعد .. هذا هو الذى يشغلنى !

وقبل باستور سئل العالم الألمانى العظيم روبرت كوخ عندما جاء الى مصر فى اواخر القرن التاسع عشر :

ـــ يا دكتور كوخ انت مكتشف عظيم فضحك ليقول : مكتشف عظيم لكائنات حقيرة .

ـــ هل ترى انها حقيرة فعلا ؟

ـــ لاشىء حقيرا فى هذا الكون فكل شىء خلقه الله بعناية ليؤدى دوره بمنتهى الاتقان .. آه لو رايت هذه الميكروبات كيف تعمل على اداء مهمتها .. كيف تدافع عن نفسها .. كيف تتسلل الى الجسم الانسانى وتتحصن .. ان نشاطها وتماسكها ونظامها يحسدها عليه كل المهندسين والعسكريين .. ولكنها كائنات ضارة .. وهى

فى نفس الوقت كائنات لها نظام عجيب يبعث على الدهشة والايمان بعظمة الله .. صحيح انها ضارة جدا ولكنها اجهزة دقيقة جدا .. وهذا هو الذى يبهرنى .. ولذلك أحاول دائما ان أهرب من الوقوع فى أسرها .. وأتوقف بسرعة عن الاعجاب بها الى العمل على الوقاية منها ..

.. وكانت بداية رائعة للحرب ضد الكائنات الصغيرة جدا من اجل القضاء على بقية الكائنات !



هذه الكائنات الناخرة
لن تحطمها الجيوش

جمـــع الملك لويس الخامس عشر رجاله وتلفت اليهم يقول : ماذا يجب ان نكتب فى هذه الرسالة ليعرف عدونا روح الشعب الفرنسى . واختلف الرجال حول الملك .. كل واحد يقول عبارة تليق بعظمة فرنسا ولكن الملك راى شيئا آخر .. واشار بيـــده . وجاء رجل وقال له : هذه العبارة انقشها على مدفعى .

وضحك الرجال حول الملك . وكانما اراد الملك ان يحرجهم جميعا . متساءل : ماذا تقولون ؟ ولم يقل أحد . وقال الملك : انقش هذه العبارة على مدفعى : اقفلت باب المناقشة وفتحت النار !

ثم جاءت الجمعية الوطنية الفرنسية يوم ١٩ اغسطس سنة ١٧٩٠ ومسحت هذه العبارة !

ولكن مثل هذا النقاش بقى دائرا دائما فى كل مكان : هل هى الحرب ؟ هل هو السلام ؟ ايهما الوسيلة لاقناع الآخرين ..

أو ارغامهم على الاقتناع والنتيجة : موت عشرات الألوف .
مئات الملايين من الناس فى كل العصور !

ولكن لماذا الحرب ؟

قبل ان تجيب على هذا السؤال بالنيابة عن شعبك ، أسأل : لماذا الحرب بينك وبين الناس . فماذا وصلت الى نتيجة فاضربها فى عدد سكان شعبك والشعوب الأخرى . والنتيجة مقنعة لانها هى الجواب الصحيح !

* * *

ولكن هل هذا هو نوع الحرب الوحيد الذى عرفه الانسان ! الجواب طبعا : لا ... فهناك حروب من نوع آخر .. حروب بلا جيوش ولا اسلحة ولا نار ولا شرار ولا خطب ولا زعماء ، ولا نياشين ولا انواط .. حروب أقوى من كل الحروب ، بل هى الحروب التى أوقفت الحروب وأعادت الجيوش من منتصف الطريق .. ولم يجد الانسان وسيلة واحدة لايقافها .. هـذه الحروب هى حروب الانسان ضد قوى طاغية باغية جبارة .. ضد الميكروبات والحشرات والحيوانات التى تنقل الميكروبات الى طعام الانسان وشرابه وملابسه وتقهره فى معركة غير متكافئة الميكروبات هى الأقوى دائما ..

ومن أقدم العصور يحدثنا مؤرخ الاغريق هيرودوت أن الملك الفارسى اكزركيس دخل منطقة تساليا بجيش من ٨٠٠ الف رجل .. ونفدت الذخيرة ثم جاء الجوع فأسقط رجاله ضحية لمرض لا يعرفونه .. فمات من رجاله نصف مليون جندى .. وعاد الملك كسير الرأس الى بلاده !

اما قوات اثينا ، فقد هاجمها المرض ، وأطاح بجيشها وارقده على الأرض . وداست الجيوش بعضها البعض .. ومات ألف فارس واربعون الفا من الجنود .

وفى عام ٤١٤ قبل الميلاد حاصرت قوات قرطاجنة مدينة سرقوسة واكتسحتها الأوبئة وانحسرت المعارك قبل ان تبدأ .

ولا أحد يعرف مصير روما والحروف البونية لو وجد القائد هانيبال قواته فى صقلية كما تركها قوية ولم يستبد بها المرض .

ثم الحروب الأهلية فى روما سنة ٨٨ ق.م وانتصار ماريوس المؤكد قد اضاعه انتشار مرض لا يعرفون اسمه فى ذلك الوقت وقضى على عشرين ألفا من رجاله .

وفى عام ٤٢٥ ميلادية تقدمت جيوش الهون الى القسطنطينية .. ولكن وباء استشرى بينها فعادتالى قواعدها فى وسط اوربا .

اما الحروب الصليبية فهى نموذج صارخ لما يفعله مرض الأسقربوط الذى يجيء عن نقص فى التغذية وحاجة الجسم الى الفيتامينات ، وضعف الجسم وعجزه عن مقاومة اى مرض دخيل ففى ١٠٩٨ زحفت الجيوش الصليبية فىاتجاه الأراضى المقدسة ، وزحف الجوع وسوء التغذية فى الاتجاه الآخر . وكانت هذه الجيوش تضم سبعة آلاف من الفرسان ، مات منهم خمسة آلاف .

وبعد أيام من الزحف على القدس سنة ١٠٩٩ لم يبق من

الجيش الذى يتكون من نصف مليون سوى ستين الفا .. وفى سنة ١١٠١ أصبح عدد القوات الصليبية عشرين الفا .. عادوا حفاة عراة يركبون الأبقار والحمير الى أوربا !

وفى الحملة الصليبية الثانيــة التى قادها ملك فرنسا لويس السابع كان من نصيبها ان تلقى نفس النهاية . ولم يبق من جيش يضم نصف مليون سوى ثلاثين الفا !

وحدث شىء آخر فى سنة ١١٩٠ أن جاء مرشد تركى وســـارت القوات الصـــليبية وراءه ، واذا بالرجل يستدرجهم جميعا الى الصحراء حيث الجوع والعطش ومرض الاسقربوط ، مات مائتا الف ، أما الباقون فعادوا نصف أحيـــاء .. وماتت الكثير منهم فى الطريق حتى عبروا الدردنيل بقايا بشر !

وحدث أيضا ان الامبراطور الألمانى فريدريش الثانى قد غادر بأسطوله ميناء برنديزى الايطالى ، فى طريقه الى بيت المقدس .. ولكن فى احدى ليالى ١٢٢٧ احس الامبراطور بآلام شديدة واسهال دموى . لقــد أصـــيب الامبراطور بالدوسنتاريا وجـــاء طبيب الامبراطور .. ما الذى يصنعه ؟ ولكن بعد ساعات أصيب احــد الضباط .. ومئات الضباط والوف الجنود وعاد الملك وجيوشـــه من عرض البحر !

والاسقربوط ليس مرضا معديا ، ولكن من امراض الحروب ! وخصوصا القوات المحاصرة والقوات الزاحفة وقتا طويلا .. وقد اهلك ملايين الجنود فى التاريخ .. وهذا المرض ليس خطيرا فى ذاته فقط ، ولكنه صديق لجميع الأمراض الاخرى . فهو يساعدها

على التسلل الى الاجسام ويضعف مقاومتها .. ويجعل اقامتها أيسر .. حتى الموت !

وفى الجمعة الأولى من سنة ١٢٥٠ أعلن القديس لويس ملك فرنسا ، أن قواته تصاب بأشياء غريبة . وفسر ذلك بأن رائحة الجثث هى السبب . وأن الديدان التى تأكل جثث القتلى فى الانهار ، هى التى تؤدى الى انتشار الأمراض بينها . أما المرض فهو الاسقربوط طبعا . وكان يجفف جلد البشرة والساق .. ويجفف الحلق والشفتين واللثة .. وكان الحلاقون يزيلون هذا الجلد الميت بالسكين حتى يتمكن الجنود من تناول الطعام والشراب . وكان الجنود يصرخون كالاطفال . ولكن لا تفسير علميا لذلك وانسحبت جيوش القديس لويس . ولم يكد يصل الى تونس حتى مات يوم ٣ اغسطس سنة ١٢٧٠ ومات ابنه يوم ٢٧ اغسطس .. وكانت آخر كلمات القديس لويس : هؤلاء الكفرة الوثنيون قد استخدموا ضدنا اسلحة لا نعرفها — اما الكفرة الوثنيون — الذين يقصدهم فهم المسلمون !

أما القوات الرومانية فقد أحرقت معسكراتها كلها يوم ٦ أغسطس سنة ١١٦٧ لماذا .. يقول طبيب الحملة نفسه . أصيب الجنود بارتفاع فى درجة الحرارة ورعشة وهذيان وآلام شديدة فى الظهر والساقين والبطن . وهذا التشخيص دقيق .. أما المرض فهو التيفوس !

وهو من أخطر الامراض واشدها فتكا بالجيوش فى العصور القديمة !

* * *

ويمكن أن نسجل الصراع بين فرنسا واسبانيا فى كل العصور القديمة بانه صراع بين المرض والصحة . وانه فى كل مرة تزحف القوات يعود بهـــا المرض . وكان المرض أو الميكروب هو الذى يحدد اتجاه الجيوش ويلوى مسارها وانكسارها والملك الفرنسى فيليب الثالث عاد من حملته على أسبانيا سنة ١٢٨٥ . فقد هزم الوباء جيش الملك وقضى على الملك نفسه !

وربما انفردت الحروب بين أسبانيا وفرنســـا بانتشار مرض واحد هـــو التيفوس ، وهو يجىء من القمل الموجــود فى ملابس المتحاربين !

وفى اول اكتوبر سنة ١٤٣٩ وصل الامبراطور الالمانى البرشت الى مشارف بغداد . وفى يوم ١٣ من نفس الشـــهر انســـحب الامبراطور والجنود . فقـــد أقعدتهم الدوسنتاريا عن مواصـــلة السير أو استئناف القتال !

اما الملك شارل الثامن ملك فرنسا وهو يحاصر نابولى الايطالية فقد اصـــدر قراره بالعودة . ولم يكن فى حاجة الى أن يشرح السبب ، فقد أصيب هو والوف من جنوده بمرض الزهرى !

وعندما حاصر الملك شـــارل الخامس ملك فرنسا مدينة متس الالمانية تراخى الحصار فقد أصيب هو وثلاثون الفا من جنوده بالدوسنتاريا .

اما الامبراطور الالمانى ماكسميليان الثانى فقد فقد جيشـا من مائة الف جندى كان موجها ضد السلطان سليمان . وكان فى نية الامبراطور أن يزحف على المجر ولكن حدث شىء سنة ١٥٦٦ جعل الامبراطور يعدل عن قراره .. فقد دبت المعارك بين القوات ..

وسحب كل واحد سلاحه على الآخر : سخونة وهذيان . فالجنود قد أصابهم التيفوس وعدل الامبراطور عن الحرب !

أما حروب الثلاثين عاما في أوربا ، فقد تميزت بسيادة التيفوس على كل المتحاربين . بل أن القوات الالمانية قد زحفت من اتجاهين على مدينة نورمبرج في سنة ١٦٣٢ ، ودون اتفاق بين الطرفين انسحبت الجيوش من هنا وهنـــاك . والسبب : الاسقربوط ، والتيفوس والدوسنتاريا .

والملك الانجليزى تشـــارلز الاول كان في نيته أن يزحف على لندن . وعارضه البرلمان . وتوقف بعض الوقت ، ثم توقف نهائيا بعد أن أصابه التيفوس . فتوقف عن الحركة تماما .

وعندما انتصرت قوات الامبراطور فريدريش الاكبر على قوات الامبراطورة ماريا تريزا النمساوية زحف على ولاية بوهيميا .. ولكن على غير ما توقع النمساويون ، عـــاد الامبراطور منسحبا أما السبب فيرويه لنا الدكتور لوكوف طبيب الامبراطور : لم يكن الامبراطور معتدل المزاج في هذا اليوم ، كان عصبيا جدا ، وكان رجلا كافرا . ولا يؤمن بوجود اله أو معجزة او ان الدعاء الى الســماء من الممكن ان يحقق شــيئا ما .. وكان الناس حول الامبراطور يصلون له . وكان الامبراطور عاقلا . فقد امتنع عن الطعام .وكان يحتفظ بأنواع من العقاقير جاءت اليه من الشرق ولابد أن أحدا قد نصحه بأن يتناولها كلما مرض . وتناول الذى لا اعرفه . وشفى الامبراطور من الدوسنتاريا .. ولكن الالوف من جنوده قد خلعوا ملابسهم وتفرقوا في الغابات بسبب الاسهال الدموى الشديد .. وقرر الامبراطور وهو حزين تماما أن نجمع اشياءنا ونعود . ولا داعى للحرب !

وقد لعبت الدوسنتاريا دورا هائلا فى انقاذ الثورة الفرنسية ــ هكذا يقول الطبيب الساخر الممتع هانس تسنسر فى كتابه «الفئران والقمل والتـــاريخ» . يقول : فى ســـنة ١٧٩٢ قرر الامبراطور فريدريش فلهلم الثانى اعداد جيش من خمسين الفا للزحف على قوات الثورة الفرنسية والقضاء عليها . وراجع الامبراطور الخطة مع قواده .. وسألهم أن كان النصر مؤكدا . قالوا : نحن متحدون وهم متفرقون . نحن أقوياء وهم فلاسفة ..

وقرر الامبراطور الزحف . وتقدمت القــوات . ولكن فجأة تفرقت القوات كل جنــدى فى مكان .. وكان الجنود يسابقون الضباط فى البحث عن مكان يتوارون فيه . فقد اذابتهم الدوسنتاريا .. وكان منظرا غريبا عجيبا .. كل هذه القوات قد تدلت على شواطىء الراين تعانى من آلام هذا المرض المفاجىء !

وفى سنة ١٨٠١ ارسل نابليون قائده الجنرال لكلارك ومعه ٢٥ الف جندى لاخماد ثورة نشبت فى هاييتى . ونزلت القوات الفرنســية الى شـــواطىء الجزيرة . وتراجعت أمامها القوات الزنجية . ثم تقدمت الحمى الصــفراء تحصد الفرنسيين وقتلت منهم ٢٣ الفا .. ولم يبق حتى من هـــذا العدد سوى ثلاثة آلاف فرنسى عادوا الى فرنسا سنة ١٨٠٣ !

يقول كوركوف طبيب نابليون : لو كان نابليون قد توقف بعض الوقت فى بولندا . وأعاد تنظيم قواته . وراعى الاجراءات الصحية ما كان هذا مصيره أمام موسكو . ان المرض قد هزمه قبل الجليد وقبل القوات الروسية . المرض اولا . والجليد ثانيا والارهاق ثالثا والروس رابعا .

يقول كوركوف أيضا : لقد انسحب نابليون من موسكو ومعه مائة الف جندى .. أما الباقى فموتى ومرضى ومتجمدون وقتلى .

أما المريشال الفرنسى ناى فقد أمره نابليون بأن يصمد .. وصمد الماريشال حتى لم يبق معه سوى عشرين جنديا وضابطا .. وهؤلاء الجنود ماتوا بالدوسنتاريا والتيفوس .. بل أن هؤلاء الجنود قد اكلوا جلود الأحذية .. واكلوا لحوم البشر .. كان الجندى ينكفىء على الجندى الآخر ويبحث فى جسمه عن مكان لم يصب بشىء ويأكله .. ويرتمى الى جواره مسموما أو مريضا . ثم ميتا بعد ذلك !

* * *

ان العلم الحديث قد كشف للانسان أن هناك كائنات اصغر منه واقوى منه .. ليس الحيوان الطيب هو الذى أجمل من الانسان واكثر فضيلة .. وهو الذى أحق بالعناية والاحترام .. وانما هناك كائنات اصغر واحقر واتفه مما يتصور .. هذه الكائنات الضئيلة هى التى قضت عليه وأبادته وجعلته يشعر انه اصغر واتفه .. **وعلى ذلك يجب ان يتواضع الانسان قليلا او كثيرا .. فليس هو السيد المطاع الامر الناهى القادر على كل شىء .. أو القادر على كل شىء الا شيئا واحدا : هذه الحشرات أو هذه الميكروبات التى لا يدريها .. ويجب ان يتفرغ لها ، فهى لا تكف عن التكاثر والاتحاد دفاعا عن حياتها .. ويوم ينقرض الانسان سوف تكون هذه الكائنات وارثة للارض وما عليها ومن عليها !**

للدفاع عن الناس والكلاب
نظرية !

اديبة فرنسا كوليت هى التى قالت : لو لم اكن انسانا لتمنيت ان اكون حيوانا . ولما سئلت : اى الحيوانات تختارين ؟ قالت : ان اكون قطة تلعب مع كلب فى قفص قرود على جبل الأسود . ولما سئلت مرة اخرى : ولكن لماذا ؟ قالت كوليت : فقط ان اعيش بغريزتى بلا خوف .. بلا حدود بلا سدود بلا تدخل من احد من رجال القانون او الدين .. من هذه الاكاذيب التى يسميها الناس : حضارة الانسان ..

اننى لا ارى الانسان اسعد من الحيوان .. اننى لا أرى الطائرات أخف من الطيور .. اننى لا ارى الرجال اشجع من الأسود ولا اكرم منها .. اننى لا اصدق أن الانسان هو أجمل واذكى واقوى هذه المخلوقات على الارض .. اننى كلما عرفت الحيوان ازددت احتراما له ، واحتقارا للانسان .. اسعد لحظات عمرى هى التى اشعر اننى فيها مثل قطة أو مثل كلبة .. وأن كل

الذين حولى ليسوا من البشر .. ولذلك اجد سعادتى الكبرى فى ان اغمض عينى حتى لا ارى آدميا واحدا .. واعيش بخيالى مع مالا عدد له من الحيوانات .. اننى عندما افتح عينى أجد الانسان ، وعندما أطبقهما اجد الحيوان — ولذلك سعادتى الكبرى أن اقفل عينى والباب والنافذة واسحب الغطاء على راسى وأموء كالهرة السعيدة بانها تجردت من انسانيتها المزيفة ! » .

وكلام كثير آخر جميل تقوله كوليت التى الفت كتبا عناوينها : السلام عند الحيوانات .. كيكى اللذيـــذة .. سبع محاورات مع الحيوانات ..

ولكن أحب الحيوانات الى كوليت : القطة .. لماذا ؟ لديها الكثير جدا الذى تقوله عن نعومة القطـــة ونظافتها .. ورشـــاقتها .. وتسللها فى الليل دون أن يشعر بها أحد .. كأنها فكرة أو كأنها شبح أو كأنها مرض .. أو كأنها شىء يطير دون أن تحركه جاذبية الارض ..

تقول كوليت أيضا : لا أعرف لماذا هم فى الشرق يعتقدون أن القطة لها سبعة اعمار .. وأنها من الممكن أن تموت أكثر من مرة .. أو من الممكن أن تعيش أكثر من مرة .. ان القطـــة — وهى شرقية الأصل — يجب أن تعيش مائة عمر .. فكل ما يحتاجه الانسان فى الدنيا ، هو أن يكون ناعم الحركة واللمسة والفكر .. لان تعاسة الانسان هى خشونته .. خشونة الكلمة والفعل !

* * *

وهذه القطط دخلت أوروبـــا مع الحروب الصـــليبية . وكانت حيوانا غريبا . ولكن بسرعة عرف الأوروبيون فضائلها : انهـــا

تهجم على الفئران تأكلها ويكفيها ذلك فخرا . وقد كانت عند الفراعنة حيوانا مقدسا . وكان العرب هم الذين نقلوها الى أوروبا والاسلام قد طلب من الناس الرحمة بالقطة بل أن الرسول عليه السلام يروى : أن امرأة دخلت النار بسبب قطة حبستها : لا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من فضلات الأرض .

ومع اكتشاف الميكروب وطرق العدوى بدأ النـاس يخافون من القطط والكلاب أو من الكلاب فقط . لان القطة تنظف نفسها بلسانها فلا تترك ذرة تراب فى فروة جلدها . ولكن العلماء يؤكدون انه رغم هذه النظافة المؤكدة فانها تنقل الميكروب ايضا . بدأ النـاس يشعرون بالخوف من القطط والكلاب ويحترسون فى معاملتها وفى الاقتراب من اظافرها وانيابها وفمها .. ورغم تحذيرات الاطباء فان الناس مضوا يحبون القطط والكلاب ويطعمونها ويقبلونها . وأكثر الاطباء يحذرون من القبلات بين الرجال والنساء ويرون أن الفم اقل مكان فى الجسم كله نظافة وطهارة . وان العدوى مؤكدة عن طريق الفم . فهل سمع الناس هذه النصيحة ؟ طبعا لم ولن يسمعوها . ويقول أطباء آخرون : (ان الفم يتغير طعمه ويصبح اللعاب قاتلا للميكروبات عند القبلات الحارة . وأن القبلات التى تنقل الميكروبات هى الباردة التى لا احساس فيها) .

وليست كل القطط مفيدة : أى تقتل الفئران ، انها القطط الضالة أى أن القطط التى تفيد الانسان هى التى لاتستفيد من الانسان .

* * *

ولكن عرف الانسان ان القط حيوان نظيف ، ولكنه غبى وعنيد .. وليس مفيدا مثل الكلاب . فالكلاب يسهل عليها أن تتعلم . فتكون للحراسة وللصيد ولانقاذ الجرحى فى الحرب والسلام ..

وقد حصلت الكلاب على نياشين عسكرية . وصعدتسفن الفضاء.

وعاش الناس ألوف السنين يتغنون باخلاص الكلب لصاحبه ووفائه حتى الموت : فكثيرا ما عاشت الكلاب تحت أقدام اصحابها، حتى اذا مات الصاحب امتنع الكلب عن الطعام حتى الموت . وفى القرآن الكريم قصة أهل الكهف الذين ناموا فى كهفهم وظل كلبهم نائما بالباب اكثر من مائتى سنة ..

وكان نوم الكلب واسمه « قطمير » رمزا للوفاء الطويل،والانتظار الذى لا يعرف الملل !

وكان من عادة الناس فى الريف المصرى أن يكتبوا على خطاباتهم كلمة « قطمير » — حتى لا يضيع الخطاب !

حتى جاء عالم روسى اسمه بافلوف فجرد الكلاب من وفائها ونزع من السعادة الانسانية كلها حبها لاخلاص الكلاب .. أو حبها للاخلاص فى الكلاب . وخرج بنظرية تقول : لا الكلاب عندها اخلاص ولا الانسان عنده وفاء .. وانما كل ما هنالك مجموعة من الأفعال والأفعال المنعكسة المترابطة .. مثلا : اذا أتينا بالكلب وقدمنا له الطعام وفى نفس اللحظة رحنا ندق جرسا . فان لعاب الكلب يجرى مع رؤية الطعام وصوت الجرس .. واذا سمع صوت الجرس دون طعام فان لعابه يجرى .. وكل تصرفات الحيوان والانسان مثل هذا الكلب تماما .. فالكلب الذى يرى صاحبه فينام عند قدميه أو ياكل أو يشرب .. ويعتاد على ذلك ، فاذا تغيب الصاحب لسبب ما ، فان هذا الكلب لا ياكل ولا يشرب .. لا حبا ولا اخلاصا .. ولكن مجرد فعل ورد فعل .. فلا اخلاص ولا وفاء لا عند الناس ولا عند الكلاب !

ولكن الناس يرون فى الكلاب رغم ذلك ، اخلاصا وحبا وطاعة عمياء — يفتقدونها بين الناس !

* * *

واذا كانت أديبة فرنسا كوليت قد كتبت كثيرا عن الحيوانات فلا ينافسها الأديب بلجيكا مترلنك الذى ألف كتابا عن « حياة النحل » . وهو لا يقصد النحل بالذات .. ولكن ينظر الى الانسان من خلال النحل .. ويتمنى لو كان للانسان بعض مالدى النحل من حب واخلاص وصدق وتعاون وانكار للذات .. ولكن احدا لا يستطيع ان يألف النحل أو يستأنسه أو يجعله طبعا مثل الكلاب .. ولذلك بقى النحل مثل كثير من الحشرات والحيوانات التى يراها ولا يقترب منها اى يعجب بها من بعيد ! .

واستفاد الانسان من طائر قديم واستخدمه فى نقل الرسائل من مكان الى مكان هذا الطائر هو « حمام الزاجل » وقد استخدم الفراعنة هذا الحمام .. واستخدمه الاغريق . ويقال ان البحارة الاغريق كانوا يطلقون هذا الحمام قبل نهاية الرحلة التى يقومون بها . ويعود الحمام الى مكانه وفى جناح كل منها او فى رجلها علامة وهذا معناه ان البحارة قد وصلوا فى سلام .. وفى ذلك الوقت لم يكن احد يعرف وضع الرسائل فى سيقان حمام الزاجل .

وبعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية توقف الاوروبيون . لأسباب غير معروفة الآن عن استخدام حمام الزاجل الذى انتشر فى الشرق الاوسط . فقد كان خلفاء بغداد يسرفون فى استخدام حمام الزاجل . فلا يوجد قصر من قصور الخلفاء أو الولاة ليس به برج أو قفص . وكثيرا ما يكون قفص حمام الزاجل فى قاعةالاستقبال فى قصر الخليفة . وكثيرا ما تلقى الخليفة أو السلطان او الوالى

مفاجأة تهبط من السماء عليها ويفتحون رسالة الحرب أو السلام أو الحب ..

وفى سنة ١٥٩٠ عندما حاصر ملك فرنسا هنرى الرابع مدينة باريس ، لم يجد الفرنسيون وسيلة للافلات من هـذا الحصـار الا بحمام الزاجل يطلقونه فى سماء باريس يحمل الاخبار ويحمل اليهم الاخبار .. ويقال أن الانجليز قد استخدموا الصقور واطلقوها على الحمام ولكن الحمام أسرع فى الطيران ، واكثر طاعة لغريزته ولكن الصقور لم يكن من السهل ترويضها أو التحكم فى طيرانها أو انقضاضها على حمام الزاجل .

ومن اشهر حوادث حمام الزاجـل فى القرن التاسـع عشر أن المليونير اليهودى روتشيلد كان يتابع معركة واترلو بين نابليـون وولنجتون . وارسلوا له اخبار المعركة عن طريق حمام الزاجل . ولم يكن احد يشك فى ان نابليون هو الذى سوف ينتصر . ولذلك هبطت اسعار البورصة . وتقدم روتشيلد واشترى كل الاسـهم لان الحمام نقل اليه أن ولنجتون الانجليزى هو الذى انتصر . وقد عرف روتشيلد هذه الانباء قبل أن تعرفها الحكومة البريطـانية . وارتفعت الاسهم وعاد روتشيلد وباع كل ما عنده . فكسب الملايين!

وفى سنة ١٨٤٠ استخدم الصحفى الالمانى رويتر حمام الزاجـل بين فرنسا وبلجيكا ، حيث لا توجد خطوط تلغرافية .

ورغم وجود الخطوط التلغرافية ظل استخدام حمام الزاجـل منتشرا بين الدول وقد ظهر حمام الزاجل بصورة واضحة جدا فى الحرب بين فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ . ومن اشهر الرسـائل التى عرفها المقاتلون فى ذلك الوقت ما بعث به مستشـار المانيـا بسمارك فقد أرسل رسالة مع حمامة لاحد قواده . الرسالة تقول: طبعا فهمت !

وواضح انه يخشى أن تقع هذه الرسالة فى يد الفرنسيين .ولكن القائد فهم ما يقصده بسمارك .. ولم يفهم أحد غيرهما شيئا حتى اليوم !

وكان الفرنسيون يضعون حمام الزاجل فى بالونات . ويطلقون البالونات الى السماء . وبكل بالون قفص . ولا يكاد يرتفع البالون ويخرج من المناطق المحاصرة حتى يدفع الحمام باب القفص ويخرج. ويقال أن حمام الزاجل قد حمل أكثر من مليون رسالة الى اهل مائتى الف فرنسى .

وعيب حمام الزاجل ان نشاطه محدود . فهو يعود الى المكان الذى عاش فيه . والذى يحدث هو أن الناس ينقلون الحمام الى اى مكان ثم يطلقونه فاذا به يعود الى مكانه الاصلى ..

مهما كانت المسافة .. قد تكون الفا أو عشرين الف كيلو متر .. ويستطيع حمام الزاجل ان يطير بسرعة خمسين ميلا فى الساعة ولا يتوقف عن الطيران حوالى العشرين ساعة ..

ولكن رجلا ايطاليا وجد حلا لهذا النشاط المحدود لحمام الزاجل فقد قرأ عبارة للشاعر الالمانى شيلر تقول : مالم يتمكن العقل من السيطرة على كل شىء ، فان الجوع والحب قادران على أن يتحكما فى تصرفات الناس !

قرأ رجل ايطالى اسمه مالاجولى هذه العبارة وكان يحب حمام الزاجل ففهمها على هذا النحو : ان تجويع حمام الزاجل هو الذى يجعله يطيع الاوامر .. وابعاده عن انثاه أيضا .

ولذلك لجأ مالاجولى الى حيلة .. فكان حمام الزاجل اذا هبط عنده أطعمه كثيرا .. ولكن ابعده عن الانثى أو عن الذكر حتى

لا يكون جنس .. ثم نقله الى مكان آخر حيث يكون الجنس .. وبعد التمرين اصبح حمام الزاجل بدلا من أن يهبط فى مكان واحد ، فانه يهبط فى مكانين .. وكان هذا هو أول تعديل فى سلوك حمـــام الزاجل !

غير أن العلم الحديث لم يهتد الى تفسير واحد لسلوك حمام الزاجل . هناك راى يقول : ان الحمام يهتدى بجاذبية الارض .. ورأى يقول بضوء النجوم .. ورأى يقول أنها ملوحة الهـــواء او الماء .. ورأى يقول بأن هناك بوصلة فى راس حمام الزاجل يضبطها ذهابا وايابا .. ولكن لا يوجد تفسير واحد يقنع الجميع ..

وقبل أن تعلن الحرب العالمية الاولى بليلة واحدة كانت الجيوش تنظم حمام الزاجل وتكشف عليها وتطعمها .. تماما كما تفعـــل بقواتها المسلحة قبل دخول المعـــركة . وفى المانيا وحدها فى ذلك الوقت ثلاثة آلاف جمعية لتربية حمام الزاجل ..

وحاول الكثيرون ان يلقنوا حمام الزاجل دروسا اخرى كمـــا فعل الهاوى الايطالى مالاجولى .. ولكن لم يصلوا الى نتيجـــة معقولة .. ولكن رجلا ايطاليا آخر هو الذى الغى مهمة حمـــام الزاجل تماما . ذلك الرجل هو ماركونى الذى اكتشف الاتصالات اللاسلكية بين الدول .. ولم يعد هناك ما يخيف أحدا أو يعوقه.. فالعالم كله أصبح قريبا جدا .. ففى امكانك أن تتصل بأى مكان فى نفس اللحظة وأنت جالس فى بيتك !

* * *

ولا شك أن ذكاء القط أقل من ذكاء الكلب . وكلاهما محدود الذكاء . والقدرة على تعلم هذه الحيوانات محدودة أيضا . وحمام

الزاجل ليس ذكيا ولكنه ينطلق غريزيا وبصورة لا نجد لها تفسيرا علميا .

وربما كان الحصان اذكى هذه الحيوانات جميعا . فقد استطاع أحد النبلاء الالمان آن يجعل حصانا اسمه هانس أن يكتب بساقه الارقام .. أو ان يعلمه الجمع والطرح والضرب ، فكان يكتب المئات بساقه اليسرى والعشرات بساقه اليمنى . ولم يحدث انه اخطأ قط ..

واستطاع النبيل الالمانى فلهلم فون دوستن ان يجعل الحصان يكتب كلمات المانية طويلة ..

واستطاع ايضا أن يروض أحد الخيول العربية على كتابة اللغة الالمانية بدقة . هذا الحصان اسمه « عربى » وكان عربى يخطىء فى كتابة بعض الحروف ويصر على ذلك . ولكنه كتب أكثر من مائة وخمسين كلمة المانية ..

وجاءت الحرب العالمية الثانية وشغلت الناس عن تلقين الخيول ان تتعلم أو تتكلم ..

* * *

ولكن اثر هذه الحيوانات وهذه الحشرات وهذه الميكروبات فى تاريخ الانسان طويل عريض .. ولكنه لم ينته بعد . وكل ما على الانسان فقط ان يسجل ما يحدث له بسببها ، وما يحدث لها بسببه .. ولكن فى ذهنه دائما انها هى الاقوى رغم ان احدا لا يصدق ذلك ، او لا يريد !

عندما أعلن موسولينى
حرب الأبقار ضد الأغنام!

ليس بالخبز وحـــده يعيش الانسان . وانما يعيش الانسان بالخبز واشياء اخرى . واذا لم يجد الانســـان الخبز ، فلابد ان يتحث عن شيء آخر بديل .. وملكة فرنسا عندما ثار الشعب عليها يطلب الخبز . قالت الملكة : ولماذا الثورة اذا لم يجدوا المخبز : فلياكلوا البسكويت . وكانت هذه العبارة امطاراً من البنزين على نار الغضب. فالملكة ظنت ان الشعب يجـــد الخبز والبسكويت معا . فاذا لم يجد هذا فيمكنه ان يتجه الى ذاك..

ولم تفهم الملكة ان الشعب لا يجد الاثنين . ومهمة العلم الحديث الآن هي ان يجد الناس الخبز والبـــديل عن الخبز حتى لا يثور . أو حتى لا يموت .

والناس لا يموتون عادة بسبب الجوع فقط . وانما بسبب المرض، أو بسبب الحوادث أو بالحروب . ولذلك من الضرورى أن يكون عدد الناس محددا حتى تكفيهم موارد الطبيعة .. فاذا لم تكف فعـــلى

الانسان أن يهز راسه ليجد حلا لهذه المشاكل الحيوية . وقد وجد الانسان الحل عن طريق الكيمياء . فهى نعوضه عن الذى فقده . وهى التى تملأ فراغ الجيب والمعدة . .

فالانسان مثلا عندما كان يجد السكريات فى عسل النحل اتجه الى تربية النحل ، وعندما عجز عن اطعامه اتجه الى استيراد السكر من القصب ، ثم راح يعتصر السكر من البنجر . وكان ذلك أيام نابليون وفى حروبه .

وظل النحل حشرة هامة جدا فى ليالى أوروبا . فالنحل مصدر الشمع ، والشمع هو رونق الكنائس . وظلت الكنائس هى المستهلك الأول لشمع العسل . وعندما انتشر الغاز ومنبعدهالكهرباء لميعد احد فى حاجة الى شمع النحل . . وبعد ذلك ظهر السيكارين ليعلن انه ليس من الضرورى أن يميت الانسان نفسه من أجل السكر فى القصب وفى البنجر وفى العسل . . وعندما اعلن ان السيكارين خطر على الصحة ، وانه يؤدى الى الاصابة بالسرطان عاد الناس الى عسل النحل وعندما اعلن أن النحل أيضا يموت من المبيدات الحشرية الموجودة فى الحدائق . وأن السموم موجودة فى الزهور التى يمتصها النحل ، وأن نسبة من السم ننقل الى العسل نفسه ، عاد الانسان ليبحث عن السكريات فى الفاكهة.ولكن سموم المبيدات الحشرية قد انتقلت أيضا الى الفاكهة . وعندما حار الانسان ما الذى يفعله قال له الأطباء أن الجسم الانسانى قد تشبع بالسموم فلا خوف عليه . هنا عاد الانسان الى البحث عن السكريات من كل مصدر .

ولم يعد السمن او الزبدة كافية لاطعام الانسان . وقد ظهرت هذه المشكلة أيام حملات الجيوش الفرنسية فى المناطق الاستوائية . فالجنود يحتاجون الى الزبدة . ولكن الزبدة تذوب فى الجو الحار .

وقد تلقى نابليون الثالث خطابا من احد قواده يقـــول له : مطلوب معجزة . أن جنودنا لا يجدون الزبدة فالحر جهنم . والزبدة تتبخر. واعلن نابليون عن مكافأة ماليةكبيرة لمن يجدحلا . وفى ذلك الوقت تصادف أن أحد العلماء الفرنسيين كان مشغولا بالبحث عن حل .

هذا الرجل اسمه ميج موريس . هذا الرجل اهتدى الى السمن الصناعى . وصنع هذا السمن من مواد نباتية وحيوانية معا . فاستخدم الدهون الحيوانية وبعض الزيوت النباتيـــة . وكان ذلك ميلاد السمن النباتى أو الصناعى . وانتجت فرنسا هذا السمن على نطاق أوسع . ثم جاءت هولندا فاستخدمت بعض الزيوت النباتية وزيت الحوت وانتجته بكميات أكبر . واشتهرت هولندا بذلك لدرجة ان كثيرا من الدول تطلق على كل انواع السمن الصناعى اســـم : الهولنـــدى . .

واقبل على هذا السمن الصناعى فقراء الناس طبعا.اما الاغنياء فعندهم الموارد الطبيعية الغالية الثمن . .

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية حاول الالمان استخراج الزبدة من الفحم . ونجحت التجربة . ولكن لم يتحمس لها احد . وانما جعلوها نكتة . ووقفت تجارب السمن من الفحم عند هذا الحد ، ولم يدفعها احد الى الامام الا بعد ذلك بعشرات السنين فى امريكا .

وعاد الالمان الى استخراج الســـكر من الخشب . واستخراج السيكارين من القطران فى سنة ١٨٧٩ . وكان السيكارين هذا أشد حلاوة من الســـكر ٥٠٠ مرة وبأســـعار أرخص من استخراجه من الخشـــب .

ولم يفلح العلم الحديث فى اســتخراج بروتينات الحيوانات فى المعامل . ولذلك عاشت الحيوانات ليأكلها الانسان . ولكن هــذه الحيوانات دفعت ثمن هذه الحياة غاليا . فلكى يكون طعمها لذيذا يجب أن نذبحها فى سن صغيرة !

واذا كانت بعض الأطعمة لا تكفى الانسان ، فهناك الصــوف الطبيعى والحرير الطبيعى والقطن والكتــان ، كلها لم تعد كافيــة لاحتياجات الانسان صحيح أن الأقمشة هى ليست الا نوعا آخر من ورقة التوت التى تغطت بها حواء .. والأزياء ليست الا تنويعا فى شكل ورقة التوت . وقد جاء وقت على الانسان كان كل شىء أمامه متوافرا فى الطبيعة . أما فى العصور الحديثة ، وبعد تزايد السكان لم يعد الصــوف يكفى للملابس ولا الحرير ولا القطن ولا الكتان . فالانسان يأكل الأغنام . ودودة القز تعمل حتى الموت ، ولكن الانسان يطلب المزيد . ولذلك كان لابد من أن يجد حلا. والذين حاولوا كثيرون جدا . وربما كان الكيميائى الانجليزى روبرت هوك سنة ١٦٦٥ هو أول الذين حاولوا أن يجدوا بديلا عن الحرير الطبيعى فقد اهتدى الى محلول . وصب هذا المحلول فى اناء به ثقوب رفيعــة . ونزل السائل على شكل خيوط حريرية .

واهتدى كيميائى فرنسى الى شىء من ذلك ، وعرض اختراعه فى باريس سنة ١٨٨٩ هــذا الرجل شاردونيه . وحاول الألمــان شراء الاختراع . فاعتذر الرجل بأنه باهظ التكاليف . وانه ســوف يوالى البحث عن سوائل أرخص . وقامت ثورة بين علماء الكيمياء وبين الذين يربون دود القز والذين ينسجون الحرير . وكانت التهمة: ان هؤلاء العلماء يريدون خراب العالم والقضاء على مئات الالوف من الأنوال اليدوية لغزل الحرير الطبيعى !

وعلى الرغم من أن اليابان هى اكبر مصدر للحرير الطبيعى ، فانها حاولت ايضا ان تجد بديلا عنه حتى لا تتفوق عليها الدول الصناعية او التجارية الأخرى . ان اليابان ارادت أن تغزو البلاد الأخرى قبل أن تتعرض هى لغزو يخرب بيوتها ويبيد ديدان القز عندها . وفى نفس الوقت كانت مدينة ليون الفرنسية مركز تجمع خيوط الحرير الطبيعى فى أوربا كلها وحاول العلماء فيها أن يجدوا علاجا للموقف . فاقبل بعضهم على دراسة الحرير الصناعى واستحضاره فى المعامل .

أما الامريكان فقد كانوا اسرع الجميع فى الاهتــداء الى خيوط جديدة اختاروا لها اسما يونانى الشكل: نايلون . ونجح الامريكان فى اختراع انواع من الخيوط ناعمة طويلة . يمكن أن تصل الى الوف الكيلو مترات دون أن تنقطع .

وقبل الحرب العالمية الاولى بالضبط اهتدت المانيــا واليابان فى وقت واحد الى صناعة الصوف ــ أى الى الصــوف الصناعى . ودخلت اليابان فى حرب مع استراليا أكبر مصدر للصوف الطبيعى فى العالم . وهاجمت دول كثيرة الصوف الصناعى فى المانيا واليابان، باعتباره « جنونا » نازيا أو فاشيا . وأن هذا الصوف كساء الفقراء . وأن هذا الصوف الصناعى اختراع حقير يقصد افساد جمال الطبيعة ــ أو جمال صوف الأغنام فى استراليا ، حتى تبقى اســتراليا هى سيدة هذه الصناعة ، وتظل بريطانيا هى صاحبة هذه التجارة . أما العالم كله فيجب أن يرضى بأن يكون زبونا ذليلا !

اذن لقد دخلت المعامل فى حرب مع الأغنام ودود القز :

بل ان الأبقار هى التى دخلت فى حرب مع الأغنام . فقد اهتدى

العلماء الى ان لبن الأبقار هو أحسن مصدر للصوف الصناعى .

وفى نوفمبر سنة ١٩٣٥ أعلن موسولينى على الشعب الايطالى وعلى العالم : أن ايطاليا سوف تنتج الصوف من لبن الأبقار . وكان هذا الاعلان ردا على تهديد أوربا لموسولينى بأنها سوف تضرب عليه حصارا شديدا بسبب حربه مع الحبشة . واقبل علماء الكيمياء على البان الأبقار يحولونها الى خيوط صوفية مستخدمين من اللبن مادة الكازين . ومن العجيب جدا أن الفراعنة استخدموا اللبن فى تثبيت الألوان . هذه حقيقة مؤكدة . وانهم استخدموا هذه المواد بنفس الطريقة التى اهتدى اليها علماء الكيمياء ! واستخرج الايطاليون مادة لاينتال . ومن هذه المادة خرجت البدل والبنطلونات الايطالية ، ولا تـزال !

واصبح لبن الأبقار من اهم المواد التى يستعين بها العلم الحديث فى صناعة البدائل أو العجائن ..

كما أن العلم الحديث قد استغنى أيضا عن المخلفات الحيوانية ـ الاسمدة العضوية . واهتدى العلم الحديث الى الاسمدة الكيماوية فى تخصيب التربة . وفى تغذية النباتات التى تعيش عليها الحيوانات التى يعيش عليها الانسان .

وهناك بعض المنتجات الحيوانية لم يعرف الانسان لها بديلا بعد . أو عرف لها البديل ، ولكن ليس بالدرجة المطلوبة . ففراء الثعالب مثلا لا يزال مطلوبا . وكانت الصين حتى أوائل القرن التاسع عشر اكبر مركز لتجارة الفراء بكل أنواعها حتى أن أمريكا انشأت خطا

ملاحيا بينها وبين الصين . ولكن رجلا أمريكيا اسمه : استور اقام مركزا فى شمال أمريكا . بل انه انشأ مدينة اسمها استوريا . كلمة هامة تجدها على ماركات السجائر وغيرها وعلى الفنادق الكبرى. فهذا الرجل استور قد حول بذكاء تجارة الفراء الى شمال أمريكا ودخل بها فى حرب مع روسيا وجاء الانجليز واستولوا على هذه المدينة . ثم استردتها أمريكا . وبقى الانجليز سادة هذه التجارة .

حتى وقع حادث عجيب سنة ١٩١٩ عندما ذهب بعض التجار الكنديين يعرضون نوعا غريبا من فراء الثعلب الفضى . وكان هذا النوع من الفراء زلزالا فى أسواق الفراء . فقد استطاع هؤلاء الكنديون أن يختاروا عينات من الثعالب وأن يزاوجوا بين بعضها البعض حتى انتهى التزاوج والتهجين الى نوع فضى نادر . ولكن بسرعة عرف العالم سر هذا الثعلب .واقبل التجار على تربية الثعالب فى غابات واسعة . فقدلاحظ التجار ان الثعالب التى يحبسونها يكون فراؤها خشنا .اما اذا عاشت الثعالب فى ظروف طبيعية اوكالطبيعية فان فراءها يكون اكثر نعومة وليونة . ولاحظوا أيضا أن الثعلب يميل الى أن تكون له زوجة واحدة مما يؤدى الى الزيادة البطيئة فى النسل . فحاولوا أن يعددوا زوجات الذكور . ولكنها رفضت أول الأمر . فافسدوها فأصبحت للثعالب الذكور أكثر من زوجة . وانتهوا الى أن ثلاث زوجات هو الحد الاقصى للثعلب الواحد .. ولكن اهتدى علماء الكيمياء باستخدام بعض المقويات الى أن الثعلب من الممكن أن يكون له حريم من اناث دون أن يؤثر ذلك على فراء صغاره.

وفى ذلك الوقت ــ أى سنة ١٩٢٤ كان ثمن فراء الثعلب الفضى سبعة آلاف جنيه !

وجاءت الحرب الثانية فأوقفت هذا الجنون . وفى سنة ١٩٣٨

دلت الاحصائيات على أن فى كندا وحدها أكثر من عشرة آلاف حظيرة للثعالب الحظيرة الواحدة مساحتها الوف الأفدنة من الغابات !

وظهر منافس خطير للثعلب : حيوان الشنشيلا فى بيرو ..

ثم ظهرت أغنام كاركول فى ايران .

وكان التجار يلجأون الى اجهاض الأم قبلأن تلد بقليل ثم يسلخون جلد الوليد . حرصا على أن تظل فروة الحيوان المسكين أكثر نعومة . وفى بعض الأحيان يسلخون الولد بعد ولادته العـــادية بساعات ..

ولابد أن أناقة المراة هى المسئولة عن حياة بعض الطيور وموت أكثر الحيوانات . مثلا : لولا أن سيدة فرنسية جاءت من الجزائر تزور مارى أنطوانت ما عاشت مئات الالوف من النعام . فقد جاءت هذه السيدة تهدى الى الملـــكة ريش نعام لتضعه على راسها أو لتكون مروحتها . وأصبح ريش النعام موضة . واقيمت مزارع للنعام فى الجزائر . وحوت هذه المزارع عشرات الألوف من هذا الطائر الذى ينزعون ريشه مرتين فى السنة . وكان لابد من العناية به وبصحته نظرا لرواج تجارة ريش النعام . ولاحظ تجار الريش أن ذكر النعام اذا كانت له اناث كثيرة ، وضعت الاناث بيضا قليلا . فهى اذن ليست مشكلة الأنثى ، وانما هى مشكلة قدرة الذكر على أن يكون زوجا لعدد كبير من الاناث . وحددوا للذكر ثلاث اناث فقط تضع مائة بيضة فى السنة .

وبعد ذلك جاءت التماسيح . فهذا الحيوان لابد من قتله ليكون

جلده حذاء أو شنطة أو حزاما لسيدة أنيقة . ولابد أن يكون ذلك فى سنه الصغيرة . وبعد سلخه لابد من دباغة الجلد وتلوينه أو الاحتفاظ بلونه الطبيعى ..

وفى كاليفورنيا مساحات هائلة مغلقة على التماسيح .

وجاءت الثعابين لتقوم بنفس دور التماسيح . فجلدها حزام أو جزمة أو شنطة . والثعابين كثيرة الأنواع والأحجام والألوان . ولكن الثعابين لها مهمة حيوية فى البلاد الحارة . ففى الهند مثلا تجد أن الثعابين تأكل الفئران . والفئران اذا تكاثرت أكلت محاصيل القمح والذرة . ولذلك يجب الابقاء على الثعابين لانقاذ الغلال . وفى الهند دعوات صارخة للابقاء على الثعابين من أجل الجياع من البشر ! ولكن المرأة حريصة على اناقتها ولو مات أهل الهند جوعا !

ومن اجل اناقة المرأة أيضا نزل الرجل الى أعماق البحر بحثا عن اللؤلؤ فى قلب البحار . وهذا اللؤلؤ موجود فى الخليج العربى — أو كان موجودا — وفى شواطىء اليابان والصين.وقد ارتفع اللؤلؤ على أعناق الجميلات . ويقال أن اللؤلؤة تحزن على صاحبتها ويتغير لونها . ويقال أن لونها يتغير اذا بعدت عن موطنها . ويقال: أن الملائكة اذا بكوا نزلت دموعهم الى البحر فأصبحت لوليات ! وكثيرا ما قيل أن اللؤلؤ اذا ذاب فى النبيذ فى ليالى العشق أصبح سحرا . وسعادة للرجل والمرأة — يقال !

اما طريقة استخراج اللؤلؤ فهى أن ينزل الغواص أو الغواصة — اكثرهم من النساء — الى المـــاء ... ويصيدون حيوان اللؤلؤ

ويفتحونه ويستخرجون من بطنه حبات اللؤلؤ .. وحيوان اللؤلؤ يستغرق وقتا طويلا يصل الى السنة والسنتين فى تكوين حبة واحدة .

وقد اهتدى رجل صينى منذ سبعة قرون الى أنه فى الامكان مساعدة هذا الحيوان على انتاج اللؤلؤ بصورة أسرع . فكان يفتح المحار ويضع فيه حبا صغيرا .. ذرة رمل أو ذرة من المحارة أو الحصى .. وفى بعض الأحيان اهتدى الى شىء غريب فكان يضع حصاة صغيرة ويرسم على هذه الحصاة بوذا . ويضعها بعد ذلك فى جسم حيوان اللؤلؤ .. ثم يجىء هذا الفنان العظيم ويغطى هذه الصورة لبوذا باللؤلؤ .. ويكون لحبة اللؤلؤ بعد ذلك سحرها العميق فى نفوس المؤمنين ...

وجاء أستاذ يابانى سنة ١٨٨٩ وقام بتطوير هذه الحيلة . هذا الاستاذ اسمه متسكورى . وادخل فى جسم حيوان اللؤلؤ حبات صغيرة من الصدف . ويجىء الحيوان ويغطيها بهذه المادة الفضية الشفافة .

* * *

ولكن رجلا واحدا استطاع ان يجعل « اللؤلؤ الصناعى » أشهر تجارة فى العالم واستطاع أن يقنع العالم كله أن اللؤلؤ الصناعى اجمل واروع . وانه يصعب على اى انسان أن يفرق بين الاثنين . وفى ذلك الوقت كان التمييز صعبا . ولكن من السهل معرفة ذلك الآن بمجرد وضع اللؤلؤ فى الضوء فيكون اللؤلؤ الطبيعى اكثر شفافية من اللؤلؤ المزروع فى جسم حيوان اللؤلؤ . هذا الرجل

ميكوموتو الذى اشترك فى المعرض الدولى للؤلؤ بأكثر من مائة الف حبة .. وصنع ناقوس الحرية الامريكى من اللؤلؤ . وقدمه فى معرض دولى ..

وقد رأيت جزيرة ميكوموتو هذه فى اليابان . ورأيت ملايين من حبات اللؤلؤ . واعترف بأننى لم اعرف أهمية هذا اللؤلؤ اوضرورته لأحد . وقد كنت العب بحبات اللؤلؤ لعبة الجوز والفرد . فنجد بائعات اللؤلؤ يجلسن على الأرض . وقد وضعت كل واحـــدة « قفة » من اللؤلؤ .. واجلس امامها والعب : جوز ولا فرد .. ونفتح محار اللؤلؤ .. فنجد أحيانا حبة واحدة واحيانا حبتين أو ثلاثا .. واذكر اننى كسبت فى هذه اللعبة الوف الحبات . ولا أذكر الان بالضبط اين نسيت هذه الحبات عندما سافرت من اليابان الى جزر هاواى الى امريكا الى اوربا بعد ذلك .

فقط عندما رجعت الى مصر عرفت اننى اضعت ثروة طائلة — ولم اكن ادرى ذلك — فقد كنت مشغولا فقط بالفرجة والكتابة والسفر ، وهى جميعا اروع من كل ما فى العالم من لؤلؤ — واعتقد أن اكثر نساء العالم لا يرين هذه الفلسفة !

❀

شجرة واحدة تكفى : هزها وانت تعرف !

بعد هــذه الرحلة الطويلة فى حياة الحيوان ، هل له مستقبل ؟ هل ستتحول الحيوانات بعضها الى بعض ، كأن يكون القرد انسانا ؟ هل تتحول بعض الزواحف مرة اخرى وتكون طيورا ؟ هل تزداد الاصابع فى اقدام الحيوانات ؟ هل الانسان نفسه سيكون كائنا آخر ؟ ان عشرات الألوف من السنين لم تغير من الحمار . فهو حمار منذ كان حمارا . والخنزير كذلك ..

ان نظريات العلماء من مدرسة دارون قد لاحظوا التشابه الكبير بين القرود والانسـان . وقال بعضهم : أصله قرد ــ أى الانسان أصله قرد وعلى ذلك فمن الممكن أن يتطور القرد فيصبح انسانا فى المستقبل . صحيح أن التاريخ لم يحفظ لنـــا حتى الآن تلك القرود التى تحولت الى انسان . ثم انه ليس بين القرود فصيلة واحدة تعرف النطق أو تعرف كيف تغير من أسلوبها فى الحياة . وكل ما يقوله العلماء هو أن مرحلة من مراحل تحول القرود الى بشر ، قد فقدناها .. أو قد ضاعت منا . ولكن ليست هذه اجابة

.. انما هى اجابة تغرى بالتساؤل : ولكن لمــاذا هذه المرحلة بالذات ؟ من الذى حرص على اخفائها لكى يدوخنا بعد ذلك ؟

اذن يمكن أن يقال : بأن هذه الحيوانات لم تتحول الى حيوانات أخرى فى مئات الالوف من السنين فلن يطرأ عليها اى تغير آخر .. لأن الماضى هو صورة المستقبل ، أو هو الحروف الأولى من الماضى والمستقبل !

علماء الجيولوجيا يقولون : اننا مقبلون على عصر جليدى آخر .. وأن المناطق الشمالية والجنوبية من الأرض سوف تتغطى بالجليد .. وسوف يؤدى ذلك الى انقراض حيوانات أخرى كثيرة . تماما كما انقرض حيوان الماموث عندما هاجر الى الشمال فمات من البرد .. وفى نفس الوقت استطاعت حيوانات أصغر حجما وأضعف قوة من التكيف مع البيئة فعاشت . فالقوى الذى لا يجارى البيئة يموت ، والضعيف الذى يجاريها يتقيها ويعيش . انهـــا قاعدة فى الحيوان وفى الانسان ايضا !

* * *

ثم هذه الزواحف الضعيفة هى بقايا مملكة هائلة كانت تعيش على الأرض ، هل هى أيضا سوف تنقرض .. علماء الجيولوجيا يقولون : هذه نهايتها لا محالة . ولكن لمــاذا ؟

الجواب انه يجب أن ننظر الى : الظروف الحيوية .. أو الى البيئـــة الحيوانية والنبـــاتية والانسانية والجوية أى الحيـــاة (الاجتماعية) أو (الجماعية) للحيوانات معا .. ولسنا فى حاجة الى أن نسافر الى غابات الامازون الهائلة أو الغابات الهنـــدية أو الواحات الافريقية والاسيوية كما كان يفعل داروين وبقية العلماء فى القرن التاسع عشر .. وانما شجرة واحدة تكفيك . هزها .

وانت ترى الفراشات والحشرات المتسلقة : هذه الشجرة مثل فنجان فى يد قارئة الطالع .. مثل كوتشينة يلعبها قارىء الحظ .. ولكن هذه الشجرة تستطيع أن تعرف كيف تتعايش هذه الكائنات معا .. او كيف يتربص بعضها ببعض أو يعيش بعضها على بعض .. نظرة واحدة الى شجرة تدلك على مستقبل حياة هذه الكائنات، معا ومستقبلها مع الانسان — وهو الأهم . فلا يزال الانسان هو الذى يحدد لهذه الكائنات أعمارها ومستقبلها . فمثلا فى الهند : الثعابين تعيش على الفئران ، والفئران تعيش على القمح وعلى القمح يعيش الانسان .. اذا قتلنا الثعابين زادت الفئران وأكلت القمح وارهقت لانسان .. واذا قتلت الثعابين والفئران وانفردت الدودة بالقمح جاع الانسان . واذا قتل الانسان الدودة أيضا توفر له القمح .. ولكن فى نفس الوقت اذا زاد عدد الناس ولم يجدوا القمح مات الانسان .. انها سلسلة طويلة من الكائنات يعيش بعضها على بعض . والمستقبل فى يد الانسان .

مثلا : البعوضة تنقل الحمى الصفراء . يقضى الانسان على هذه البعوضة باستخدام المبيدات وباستخدام وسائل العلاج عاش الانسان وماتت هذه البعوضة أو انقرضت !

واذا نظرنا الى الانسان القادر على كل الحيوانات لم نجد هذا الانسان يفوق الكثير من الحيوانات من الناحية الفسيولوجية — اى من ناحية وظائف أعضاء جسمه . فهناك شبه كبير بين الانسان والقرد والحصان والضفدعة والأرنب . أو بين الانسان والحصان فى نمو الجنين وفى الحمل والولادة وفترة الحضانة الطويلة .. فالانسان ينمو ببطء .. ورغم هذا التشابه فان الانسان هو الاقوى.

وأهم من ذلك أن الانسان لا يزال اكثر الحيوانات الكبيرة عددا ،

فقد أعلن المعهد الدولى للزراعة فى روما عن عدد الحيوانات الكبرى على الأرض بعد الحرب العالمية الثانية فكانت هكذا : فى العالم ٧٠٠ مليون بقرة و ٦٠٠ مليون من الاغنام . و ٣٠٠ مليون خنزير و ١٠٠ مليون حصان .. ومثل هذا العدد من البشر او اكثر. فعدد سكان العالم حوالى الفى مليون نسمة .

ومن المعروف عندنا أن خسائر الانسان فى الحرب العالمية الثانية كانت هائلة . لاشك فى ذلك . وأن هذه الخسائر تساوى الدموع التى سالت على خدودنا حزنا على ما أصاب الانسان على يد الانسان . ولكن خسائر الحيوانات فى هذه الحرب كانت اضعاف خسائر الانسان .

فى أمريكا ما بين ١٩٣٨ و ١٩٤٨ زاد عدد سكان العالم ١٠٪ .. ونقص عدد الحيوانات .. وزاد عدد الأبقار فى أمريكا بسبب العناية الفائقة بمزارع وحظائر تربيتها . بينما نقص عدد الخنازير ١٨ مليونا وعدد الاغنام ٢٦ مليونا وعدد الخيول ١٨ مليونا !

وفى أثناء الحرب الاهلية فى الصين نقص عدد الطيور بمقدار ٢٠٠ مليون ونقص عدد الطيور فى أمريكا أثناء الحرب العالمية الثانية بمئات الملايين حتى أصبح عددها حوالى ٧٠ مليونا .. وسبب ذلك أنه لم تكن هناك أسواق للبيض .

والانسان حريص على هذه الحيوانات والطيور لأنها مصدر غذائه .. ولو وجد الانسان موردا آخر للبروتين ، ما تردد لحظة واحدة فى ابادة هذه الطيور والحيوانات معا . فكأن بقاء هذه الحيوانات سببه ان علوم الكيمياء لم تتطور بدرجة كافية .. وعلماء الكيمياء فى العالم هم الذين سيقررون ان كانت هذه الحيوانات

ستعيش أو تنقرض . ولن يمضى وقت طويل حتى تتحول هـذه الحيوانات الكثيرة الى حيوانات نادرة أو حيوانات للزينة !

* * *

ومن المؤكد أن الانسان قد قتل الملايين من هذه الحيوانات والطيور عندما اخترع السهام والنبال .. واضعاف هذه الكائنات قد قضى عليها الانسان عندما اكتشف البارود..وفى أمريكا ، وبسبب الزحف الى الغرب ، أحرق المهاجرون الجدد الغابات والمراعى فماتت ملايين الحيوانات وانعدمت تماما .. فالجاموس الوحشى أثناء الحرب الأهلية الأمريكية كان عدده يبلغ ستين مليونا أى ضعف عدد سكان أمريكا فى ذلك الوقت . فأين هذه الجواميس الآن ؟ انها فى حدائق الحيوانات فقط ؟ .. وهناك نداءات كثيرة من جمعيات انسانية تطلب الرحمة بهذا الحيوان . ولكن هذه الجمعيات نفسها لا يتوقف أعضاؤها عن أكل اللحوم .. اذن هذه الجمعيات لا تطالب بالابقاء على الجواميس الا خوفا عليها من التلاشى .. ولو كانت هـذه الجواميس بالملايين ما طالب أحد بالحرص عليها !

وهناك حيوانات أخرى سوف تبقى شيئا قليلا . ولن يكون عددها بمئات الألوف أو الملايين . لأن الذى يحدد وجودها هـو احتياج الانسان الى الفرجة عليها .. مثل كل حيوانات حديقـة الحيوان : الأسود والنمور والضباع والذئاب.وهذا هو أحد أسباب اقبال الناس على حدائق الحيوانات . فالناس يذهبون لرؤية هذه الحيوانات فى الأقفاص لأنهم لن يروها فى أى مكان آخر .. ولذلك لا توجد حديقة حيوانات فى أواسط افريقيا قد حوت أقفاصا للقرود .. لأن الناس يجدون القرود على الأشجار وفى الشوارع !

وبعض الطيور قد طال عمرها لنفس السبب . أو لأسباب أخرى جمالية . فالببغاء وطيور الكنارى قد أبقى عليها الانسان لأنهـا

جميلة الريش رشيقة الحركة أو لأن لها أصواتا جميلة . وكذلك عاش الطاووس .. ولا يذكر أحد فى كل العصــور أن أحدا أكل الطاووس لأنه نادر الوجود وهو لذلك غالى الثمن . فقط فى ايران وأثناء مهرجان فورش والاحتفال بمرور ٢٥ قرنا على انشائه للدولة الفارسية . فى هذا المهرجان قدمت ايران للملوك والرؤساء لحم الطاووس. .والطاووس اشترته ايران وبعثتبه الى مطعم ماكسيم الشهير فى باريس وحملته الطائرات ساخنا من باريس الى مدينة برسبوليس فىمخيمات الملوك والرؤساء ــ ولوقدوموا الىالطاووس فى سندوتش ما أكلته . لكن فى هذا الجو الخيــالى ومع الألوان والموسيقى والأكواب من ذهب ، وعلى مسمع ومرأى من كل رؤوس العالم ، فلابد ان يكون طعمه لذيذا وأن يكون له مثل السحر فى الجسم والنفس .. ومن المؤكد أن هذا هو آخر عهد الانسان بالطاووس محشوا بالفستق والصنوبر وأبى فروة !

* * *

أما بقية الطيور النافعة للانسان أى التى تاكل الديدان الضارة والحشرات فى الحقول ، فانها أخذت فى الانقراض . سبب ذلك : الهواء الفاسد فى المدن والمبيدات الحشرية فى الحدائق والحقول. ان هذه الطيور رغم حرص الانسان عليها ، لأسباب مصلحية أو انسانية أو جمالية ، فانها سوف تنقرض . لمــاذا ؟ لأن الانسان اما أن يعيش أو تعيش هذه الطيور . طبعا لابد ان يعيش الانسان ــ كما عاش دائما ــ على جثث غيره من الطيور والحيوانات والانسان أيضــا !

فقط كل الكائنات التى تعيش فى أعماق البحار تدعاشت لأنها بعيدة عن متناول الانسان . ولكن هذه الكائنات لن تظل وقتا طويلا بعيدة عن الانسان . فاذا اقترب منها ، كان الموت قريبا أيضا . وسوف يجىء دورها طبعا .

اذا كان الانسان حريصا على الحيوان لأنه مصدر غذائه وكسائه ووسيلته فى الانتقال ، فان هناك حيوانات رغم ذلك قد ماتت . الخيول مثلا : كانت وسيلة الانتقال للانسان . وكان الحصان احدى أدوات الحرب . وقد حاول الانسان فى الحرب العالمية الأولى أن يدفع بالحصان لخوض غمـــار معارك الفرسان وكانت معـــارك انتحارية . وفى الحرب العالمية الثانية ابتعدوا به تماما .. وفى الحروب القادمة ، لن يكون للحصان وجود . والحصان الآن لم يعد اداة النقل والمواصلات فى العالم . ولذلك فلن يعيش طويلا الا فى السيرك والا فى اصطبلات سباق الخيول . أى ان الحصان سوف يبقى لأسباب رياضية وجمالية ..

وفى القرن الماضى انشأت كل من بريطانيا وامريكا اصطبلات للتقاعد . فالحصان الذى تقدمت به السن ، وجاء الارهاق فخلع اوصاله ، لابد أن يستريح فى حظيرة حتى الموت مثل كل الناس ! ولكن لن يتسع وقت الانسان لمثل هذه الرقة . فسوف تموت الخيول فى الحقول وفى السيرك وبعد ذلك يكون لها قفص فى حدائق الحيوانات الى جوار الحيوانات النادرة !

حتى الأغنام .. سوف يجيء دورها فاذا استطاع الانسان أن يحصل على صوف جيد دون حاجة الى الأغنام فهذه نهايتها ، لأن الانسان قد اخترع الخيوط الصناعية . واستطاع أن يضع خيوط الصوف الصـــناعية فى المواد الكيماوية لتعيش أطول وانعم وأكثر ليونة . بل ان بعض الخيوط الصوفية الطبيعية عندما وضعت فى المواد الكيماوية نمت . ومعنى ذلك انه يمكن تنمية الخيوط الحيوانية دون حاجة الى الحيوان نفسه . ولكن الخيوط الصناعية ما تزال أقل جودة من الخيوط الطبيعية . ولكن مع تقدم الكيمياء سيصل الانسان الى خيوط اقوى واجود وأكثر نعومة ولمعانا . فاذا وصل

الى ذلك ، انتهت مهمة الأغنام التى عاشت للانسان وعايشته وماتت من أجله عشرات الألوف من السنين . واتخذت مكانها المتواضع فى متاحف التاريخ الطبيعى أو أرسلت من ينوب عنها فى حدائق الحيوان الى جانب الزرافة والغزالة والقرد !

ولا تزال هناك مشكلة أمام الانسان هى التى ستجعل الاغنام والأبقار والطيور أطول عمرا : وهى أن الانسان لم يجد حتى الآن مصدرا بديلا للبروتين الذى يجده فى اللحوم . ولذلك سوف تبقى هذه الكائنات مصدرا وحيدا للحم . وهناك نظرية تقول :

ان الانسان اصبح اقل ميلا لتناول اللحوم من اى وقت مضى .. صحيح أن الانسان كلما أصبح مقتدرا اشترى لحما أكثر . ولكن هذه النظرية معناها : ان الجياع اقل تناولا للحم . ولما كان عدد الجياع أكثر من عدد القادرين ويزدادون بمرور الوقت فان عدد الذين يأكلون اللحوم سوف يكون اقل . أو لن يزيد عددهم مما يجعل عددا أكبر من الأغنام والأبقار والطيور ينعم بالحياة . ولابد ان يدخل فى حسابنا ايضا أكثر من الف مليون نسمة لا يأكلون اللحوم فى الصين والهند .

واذا نظرنا الى ما اكله أهل باريس مثلا فى ١٨٨٩ نجد أن الفرد كان يستهلك ١٥٤ رطلا فى السنة . وبعد ثلاثين سنة نجد أن الفرد اصبح يستهلك ١١٠ أرطال .. بينما يتضاعف ما يستهلكه الفرد من النبيذ فى نفس المدة !

وفى امريكا كان الفرد يستهلك فى سنة ١٩٠٠ ما يعادل ١٥٠ رطلا فى السنة . ولكن فى سنة ١٩٣٨ هبط ما يستهلكه الى ١٢٥ رطلا .

وفى الحروب يزداد استهلاك الفرد .. وبعد الحروب يهبط الاستهلاك .

فهذا الاعراض عن أكل اللحوم هو الذى يكسب الحياة لملايين الأبقار والأغنام والطيور .

ولكن تقدم الكيمياء ونشوب الحروب هو الذى سيهلك هــذه الكائنات . .فكل هذه الكائنات لها أعمار مربوطة فى أصابع الانسان، ان شاء أبقاها وان شاء أهلكها .

* * *

ولكن يجب الا نتصور أن الانسان هو أقوى الكائنات : الجراثيم أقوى منه . . ثم أن الانسان عندما لم يطق أن يتحمل ضغط الجو فى البالون الذى أطلق فى أوروبا استطاعت بطة وديك أن يرتفعا دون أن يصابا بأذى من الهواء والضغط . . وعندما أطلق الانسان قنبلته الذرية على جزر بيكينى : عاشت الخنافس والخنازير والماعز . واخترقتها الأشعة ولم تمت . . ثم عاد التراب الذرى فغطى هذه الحيوانات ولم تمت فى حينها ولا بعد ذلك بسنوات . . ولم يكن فى قدرة صانع القنبلة الذرية أن يواجه الشعاع والتراب .

من يدرى ربما انقرض الانسان وجاءت كائنات أخرى من كواكب أخرى تتفرج على هذه الحظيرة الكبرى التى اسمها : الكرة الأرضية . . تماما كما تذهب تتفرج الآن على ما أحدثه بركان فيزوف بالقرب من نابلى عندما تجمد الشعب كله وتحولوا الى تماثيل حجرية .

من يدرى ربما فعلت كائنات أخرى أكثر عقلا ووضعتنا فى حدائق للحيوانات الأقل وراحت تتفرج علينا كما نتفرج الآن فى متاحف التاريخ الطبيعى على الجماجم والأعمدة الفقرية للانسان الأول ــ ربمــا !

قرود في كل مكان !

وكنت افضــل ان تكون الصفحات التالية فى اول هذا الكتاب .. فهى تصف الحيوان وسلوكه دون تحفظ .. اى دون قيود عليه ..

والحيوان حر .. هو بالضبط ما يتمنى ان يفعله الانسان . ولــكن الحضارة تجىء وتقيــد الانسان وتضع الفرامل والضوابط والقواعــد والحلال والحــرام واللائق وغير اللائق على كل مشاعره الحيوانية والانسانية ..

ولكن بعد أن عرفنا جوانب من حياة الانسان يمكننا أن نعرفها أعمق وأوضح اذا عدنــا عشرات الألوف من الســنين .. أو اذا ذهبت الى حديقة الحيوان .. ففى الحديقة نجد الانسان متخفيا وراء جلد الحيوان ..

ولكن الحيوان أكثر صراحة ..

لأن الحيوانات لم تتعلم الكذب بعد ..

ولذلك فهذه الحيوانات هى دليلنــا الذى لا يخطىء الى فهم الانسان مرة اخرى ..

فان كان قد فاتك أن تفهم الانســان من مئــات الصــفحات السابقة ، فهذه هى فرصتك فى أن تستدرك ما فات وأن تفهم غيرك ونفسك ..

فاذا شعرت بالخجل فلأن الحيوانات لا تخفى ما تشعر به هى .. وما تشعر به أنت !

* * *

واذا ذهبت الى حديقة الحيوانات . وسمعت من يصرخ وراءك ويقول : ياحيوان فلا داعى لأن تلتفت وراءك لترى ماذا سيحدث .. فكل ما فى الحــديقة حيوانات : التى فى الأقفــــاص .. والذين خارجهـــا .

واذا وقفت أمام قفص القــرود ورأيت القــردة تفلى ابنتها الصغيرة فلا تضحك .. فلنا أجداد يفعلون ذلك فى الريف.أما فى المدينة كالكوافير يقوم بهذا العمل أيضا مستخدما أحدث ما وصل اليه عقل الانسان .

واذا أنت ألقيت ببعض الســودانى وتزاحمت عليه القــرود وضحك طفلك الصغير ، فاظن انه لا داعى لأن تضحك أنت . لأنك قد فعلت شيئا من ذلك فى المكتب أو الدكان أو المصنع الذى تعمل فيه . فمكان العمل هو قفص أقسى من قفص القــرود . وانت محكوم فىداخل القفص بقوانين ولوائح وقواعد ومخاوف.. واذا أشار رئيسك فى العمل بالعلاوات أو الأرباح فانك تقفز مثل

هذا القرد واكثر .. وليست العلاوات الا أنواعا من الفول السودانى الذى يلقى لنوع آخر من القرود ..

واذا رايت القرد — امام كل الناس — يركب ظهر الأنثى . فليس القرد قليل الأدب ، ولا نفسه اتفتحت لمجرد رؤيتك . ولكنه فى حالة خوف . والخوف يثير الحيوان والانسان أيضا . والناس فى جو الخوف يتسافلون .. انهم يواجهون الموت بالقبلات ، ويواجهون الموت بغريزة حب البقاء .. والبقاء عن طريق الجنس ..

واذا كان القرد ليس له مستقبل فى أن يكون انسانا . فمن المؤكد ان الانسان له ماض . وهذا الماضى ماتزال حروفه الغامضة يمكن قراءتها فى جبلاية القرود .. فاذا لم يكن هذا القرد جدنا البعيد .. فهو قريب من جدنا البعيد . واذا كان الانسان قد اكتسب عادات جديدة من مئات الألوف من السنين .. فان العادات القديمة التى عاش بها من ملايين السنين ما تزال مصونة مكنونة فى اقفاص القرود ..

ولهذه الأسباب كان الكتاب الممتع الصعب أيضا الذى كتبه العالم دزموند موريس وعنوانه « القرد العريان » من أروع الكتب التى صدرت أخيرا فى العالم بلغات متعددة .

واذا كان هذا الكتاب لم يلق التأييد الكامل من علماء الحياة والدراسات الانسانية والحيوان ، فانهم — عادة — لا يتفقون على راى واحد .. ولكنهم امام هذا الكتاب اتفقوا على انه خلاصة دراسات وتأملات عميقة ومثيرة أيضا . وأن به نظريات جريئة وجديدة ولابد أن تدير آلافا من الأدمغة يمينا وشمالا .. وبعد ذلك فى امكانها أن تتساقط من التعب أو اليأس .

هناك ١٩٣ نوعا من القـــرود من بينها نوع واحد فقط ليس جسمه مغطى بالشعر : وهذا القرد العريان له صـــفات غريبة أخرى من بينها مثلا أنه يقضى نصف عمره بحثا عن معنى سلوكه وتصرفاته .. ويمضى النصف الثانى من عمره يحاول أن ينسى هذه المعانى . وهذا القرد العريان يعتبر نفسه عاقلا . والحقيقة انه عاقل حقيقة ، ولكنه أكثر الحيوانـــات شراهة من النـــاحية الجنسية، .فالحيوانات كلها معتدلة ، وكل هذه الحيوانات تخجل من الجنس ، ولذلك فالذكر عند العناق لا يواجه الشاه ..

والحيوانات لها مواسم . والانسان ليست له مواسم للقبلات والحمل والرضـــاعة والولادة .. فكل وقت عنده هـــو الوقت المناسب لأن يكون « حيوانا » ومن الضرورى أن نعيد النظـــر فى الحيوانات الأخرى ، وخصوصا الحيـــوانات الراقية مثل القرود لنعرف كيف عاش هذا الانسان ومن أين جاءت عاداته كلها ، كيف نشأت وكيف تطورت وتحورت حتى أصبحت على الصورة التى نراها اليوم .. ولا نفهم الكثير من مقدماتها وأسبابها ..

ولعل من المناسبة هنا أن نذكر انه فى احدى حدائق الحيوانات يوجد « سنجاب » وهو حيوان صغير اليف يظهـــر فى الحدائق ويداعب الأطفال . هذا الحيوان وضعوه فى قفص على انفراد .. وكتبوا على القفص .. هذا السنجاب أفريقى نادر . ولا نعرف أسمه العامى .. فنحن لم نر قبل الآن سنجابا له قدم سوداء .. وانف أحمر ..

وأمام هذا السنجاب النادر نجد علماء الحيوانات يبحثون عن وجه الشبه والخلاف بينه وبين الأنواع الأخرى ، لابد أنه كان من سلالة انعزلت من بقية الـــ ٣٦٦ نوعا من السناجيب التى عاشت

فى العالم كله . ولابد أن هذه الفصيلة النادرة قد انعزلت تماما واصبحت لها عادات خاصة ، ولها نداءات جنسية خاصة . ولابد انها مرت بظروف غريبة . وانها توافقت مع هذه الظـــروف . واصبحت لها الوان واشكال وعادات مختلفة من بقيـــة الأنواع الاخـــرى ..

نفس الموقف يجب أن نأخذه من الانســـان ـــ هـــذا القرد العريان ـــ نتساءل كيف عاش . ولماذا بقى . وكيف تطور .. وكيف تحول من مرحلة أكل فيها الحشرات الى مرحلة اكل فيهـــا أوراق الشجر . ثم الثمار .. ثم انتقل من الغابات الى الأرض الواسعة .. ثم كيف تحول من التقاط الثمار الى صيد الوحوش .. ثم الى زراعة الأرض .. ثم كيف حاول الهرب . واستخدم رجليه .. واستخدم يديه فى صناعة أدوات حياته ..

وان كان الانسان مثل بقية الحيوانات الثديية التى يبلغ عدد أنواعها ٤٢٣٧ قادرا على أن يحتفظ بدرجة حرارة مناســـبة فى الحر والبرد .. صحيح أن بعض الحيوانات الثديية ـــ أى التى لها اثداء ترضع بها أطفالها ـــ تعتمد على جلدها الغليظ وشعرها الكثيف فى حفظ درجة الحرارة فى الشتاء . والوقاية من حـــرارة الشمس فى الصيف .. والوطواط وهو طائر ثديى عريان فى معظم أماكن جسمه .. ولكن يوجد شعر أيضا يغطيه ويحميه .. وهناك حيوانات أخرى مائية ثديية بلا شعر مثل الحيتان والدرافيل .. ولكنها لا تقوى على مواجهة الشمس كما يفعل الانسان ..

والانسان فى تاريخه الطويل فقد القدرة على الأبصار . وفقد قوة السمع والشم . أما الحيوانـــات الأخرى وخصوصـــا آكلة اللحوم مثل الانسان فعندها قدرات خارقة على الرؤية والسمع

والشم . ففى سنة ١٩٥٣ اجريت تجارب على قدرة الكلاب المتوحشة على الشم ، فاثبت العلماء أن قدرتها أقوى من الانسان مليون ونصف مليون مرة ..

والانسان مثل الحيوانات آكلة اللحوم قاتل أيضا . وبعض الحيوانات لا تقتل لمجرد القتل . وانما لأسباب وجيهة : الجوع.. او جوع صغارها ..

وحتى الحيوانات التى استؤنست ما تزال عندها غريزةالصيد .. والانسان أيضا . فالكلب الأليف يحب أن يخرج به سيده الى الشارع ليمارس لعبة الصيد والمطاردة .. وهى لعبة لأنها ليست خطرة . وكذلك القط الذى تلقى اليه بالطعام فيداعبه كأنه فأر صغير .

وبعض الكلاب تخفى طعامها .

وبعض الضباع تخفى طعامها فوق الشجر ..

وهذه الحيوانات آكلة اللحوم لها طرق معروفة فى الصيد .. والأسود تبعث واحدا منها يهاجم الفريسة حتى تهرب .. واذا ما هربت وجدت أمامها عددا آخر من الأسود . والذئاب تحاصر الفريسة .. أما الكلاب المتوحشة فانها تمشى فى طابور طويل . وتظل تهاجم الفريسة واحدا واحدا حتى تنزف الفريسة وتموت.

هناك خلاف هام بين هذا الانسان وبين القرود الأخرى . هذا الخلاف هو أن طفل الانسان يستمتع بفترة طفولة طويلة . هذه الفترة يعيش فيها مع أمه . ويتعلم منها الكثير . وفى نفس الوقت يكبر عقله وينضج . ولا يزال يكبر حتى السابعة من عمره .

ويبلغ العقل نضجه التام فى الثالثة والعشرين اما الحيوانات الأخرى فلها فترات طفولة صغيرة .

والانسان لم يستمتع بهذه الطفولة الا بعد عادات أخرىاكتسبها .. وهى ان الرجل هو الذى انفرد بالصيد والقتال . لأن المرأة فى حالة الحمل لا تقوى على ذلك ولهذا ذهب الرجل وبقيت المرأة فى البيت مع أطفالها . والمرأة فى البيت بلا خوف من هجمات الذكور الآخرين لأن هناك أتفاقا روحيا بين الذكر والأنثى ، أن تبقى هذه الأنثى له وحده . وان تبقى وفية مخلصة له اذا ذهب للصيد فى الغابات . هذا الاتفاق لم يتم بين الذكر والأنثى الا بعد ان كان هناك حب بينهما . وهذا الحب أدى الى الارتباط والارتباط ادى الى قيام وحدة من رجل وامرأة وانشاء أسرة أى جو مناسب لتربية طفل لاستقرار الأب والأم والاطفال .. واذا كان منطبيعة الحيوانات الأخرى أن تتعاون فالانسان أيضا حيوان متعاونولكنه حيوان منافس أيضا . وكثيرا ما ادى به التنافس الى القضاء على الأسرة وعشرات الاسر .. واذا كانت رغبة الانسان فى التعاون هى التى جعلته يخلق الأسرة ، فان رغبته فى التنافس هى التى جعلته يبتكر الزوجات ويخطف الأرض ويقتل القبائل الأخرى .. واكثر من ذلك جعلته يبتكر أدوات جديدة فى الدفاع عن النفسوفى القتال .. وجعلته يشعل النار فى عقله ويلقى بضوئه ودمائه على الأجيال القادمة .. تاريخ الانسان أضواء باهرة تنعكس على بحار من الدم ترفع شعارات اسمها : حب الانسان لأخيه الانسان ..

أما لماذا سمى الانسان بالقرد العريان فهناك آراء كثيرة . هناك رأى يقول ان طفل القرد عندما يولد يكون عاريا من الشعر تماما .. ثم ينبت له الشعر كلما كبر . والانسان لأن طفولته

طويلة فقد ظل جسمه خاليا من الشعر .. ثم أصبحت هذه الصفات وراثية من مئات الألوف من السنين ..

ومن المعروف أن الجنين فى الشهر السابع والثامن يكون جسمه مغطى بالشعر وقد رأيت ذلك فى الأطفال الذين ولدوا قبل الأوان .. وبعد ذلك يختفى هذا الشعر كلما تقدمت بهم السن .. وأن كانت هناك حالات نادرة معروفة فى الكتب العلمية لأطفال ظل شعرهم طويلا يغطى معظم الجسم .. كالقرود تماما ..

ويقال أيضا أن الحيوانات التى يتغطى جسمها بالشعر . تعيش عليها ومعها حيوانات طفيلية كثيرة . وكان الانسان يعيش فى الكهوف .. ويقال لأن الانسان قادر على أن يستخدم يديه راح ينتزع شعره ويحلقه .. ولأن الانسان قادر على أن يستخدم يديه وأصابعه . على عكس الحيوانات الأخرى . وهناك نظرية تقول ان الانسان عندما اخترع النار لم يعد فى حاجة الى أغطية من الشعر .. أو فروة من الشعر .. وانه قادر على ان يجد الدفء فى ضوء الشمس نهارا . وان يجد الدفء أمام النار ليلا .. وان هذا الدفء هو الذى أغناه عن حاجته للشعر الذى يغطى جسمه كله .

ويقال ان الانسان قد عاش مئات الألوف من السنين يتنقل بين البر والبحر وانه كان يعيش على أكل السمك . وعندما كان يصيد الأسماك كان الماء يغمر جسمه كله . ولا يبقى الا رأسه على سطح الماء .. ولذلك — مثل كل الحيوانات الثديية الأخرى — أصبح جسمه خاليا من الشعر .. وكلها نظريات تجتهد فى تفسير خلو جسم الانسان من الشعر ، أكثر من الحيوانات الاخرى ..

وربما كان لـ شعر تفسير جنسى آخر .. فمن الملاحظ ان الذكور من الحيوانات الثديية بها شعر أكثر من الاناث ولذلك أصبحت

الأنثى الناعمة البشرة مثيرة من الناحية الجنسية للرجل . وهى حريصة على أن تكون أنعم ايضا . بينما يحرص الرجل على ان يكون أكثر خشونة .. ولذلك يطلق شاربه ولحيته .. ويتـــرك الشعر فى صدره وتحت أبطه بينما تحرص الأنثى على ان تكون ملساء ..

وليس معنى ذلك أن الانسان يحب البشرة النـــاعمة ، ولذلك زال الشعر من جسم المراة . ولا معنى ذلك ان المراة احبت الشعر فى جسم الرجل فظهر الشعر .. ولكن معناه أن الانســـان أحب الواقع .

نعود مرة أخرى الى قفص القرود الذى نقف أمامه فى حديقة الحيوان .. ان القردة لم تذهب الى حلاق ولا الى صانع أحذية والى مصمم أزياء .. ولم تضع الأحمر والأبيض والسوتيان .. والكورسيه والكعب العالى .. ولا الغمز بالعين ...

كل هذا يدل على أن الحضارة الانسانية علمت الانسان ان يكون شهوانيا .. وأن يكون مشتعلا جنسيا . وأن يفكر فى الجنس ويهرب منه ويعود اليه .. وبسبب الجنس يحب وبسبب الحب يتزوج وبسبب الزواج تكون لـــه أسرة وأولاده .. يهـــرب من الأولاد والزوجة باسم الكراهية ليقع فى الحب ، الذى هو اسم مهذب للجنس .. فهو يدور حول نفسه هاربا قلقا خائفا فى قفص محكم معقد اسمه الغريزة الجنسية . واسمه تجارب التـــاريخ الذى طواه ملايين السنين قطعتها القرود على الأشجار وتحتهـــا وفى الصراع مع الحيوانات الأخرى تحركت ســـاقاها .. وقـــاومت فتحركت يداها واهتز عقلها ايضا..وسكنت الكهوف .. واستقام ظهرها .. وكبر عقلها .

واصبح انسانا لا يختلف كثيرا عن القرود وان كان هو يتوهم انه مختلف عنها تماما .. ولكنه قرد يصنع الأقفـاص لغيره .. ولنفسه .. ويجعل اقفاصه هو مكيفة الهـواء اذا كانت على الأرض .. ومكيفة الهواء والضوء والضغط اذا كانت فى طريقها الى القمر .

والانسان قاتل من يومه ..

كان يقتل بالحجارة والفأس والسيف . وما يزال يقتل . فقد اصبحت لهذه الأسلحة أسماء جديدة : الصاروخ والطائرة والدبابة . فهو — اذن — لم يتغير .

والحضارة لم تطور رغبته فى القتل . وانما هذه الرغبة هى التى طورت الحضارة الانسانية وغيرتها وصبغت بالأسود والأحمر طريقها واهدافها .. والانسان — هذا القرد العريان — كان صيادا فى الغابة ، يعيش على التقاط الفاكهة : التفاح والرمان والتوت . وما يزال . ولكنه يصيد تفاح الخدود ورمان النهود وتوت الشفاه .

فالحضارة الانسانية لم تضع الفرامل على رغبات الانسان . وانما رغبات الانسان هى التى اشعلت فرنا ضخما شوت فيه كل معالم الحضارة الانسانية . فلا يزال الانسان أكثر الحيوانات الراقية شراهة جنسية : يجوع اليها ، وينشدها ويجدها ويطاردها ويعود اليها . ويبدأ الانسان هذا الشوق الجنسى فى سن مبكرة . ثم يعرف اللعب الجنسى . والمداعبة . والمطاردة . والصيد . والانتباه الجنسى والهياج الجنسى .. والاشباع ..

والانسان حيوان شهوانى أكثر من الحيوانات الأخرى ..

ولكن الانسان هو أول حيوان يحرص على ان تكون له اسرة. اى تكون له امراة واحدة . يحرص عليهـا ومن الضرورى ان تحرص هى أيضا عليه . والانسان كحيوان صياد كان يخرج من الكهف الى الصيد فى الغابة . ويبقى فترات طويلة . ويترك وراءه انثاه وأولاده . وهى بذلك تكون عرضة لعدوان الذكور الآخرين. ولابد من حماية لها اثناء غيابه .

ولذلك عرف الانسان الحب . وعرف العطف على الأنثى . وعرفت الانثى حماية الذكر . وهذا الحب كان ضروريا للانسان . لأنه عقد غير مكتوب وبمقتضاه يصبح لهذا الذكر الحق فى ان يحتفظ بهذه الأنثى . ويصبح لهذه الأنثى الحق فى أن تعيش فى كهف هذا الرجل ولهذا الرجل والا تسلم نفسها لذكور آخرين ..

ولكى يبقى هذا « العقد » محترما كان على الذكر أن يحترم عقود الآخرين .

وفى الوقت الذى بدأ فيه جسم الانسان يضعف بدأ عقله ينمو وينضج . ولذلك لم يعد هذا الانسان فى حاجة الى عضـلات الحيوانات وسرعتها فى الجرى والهرب . وانما عقله هداه الى أساليب أخرى لالتقاط الفاكهة من الغابة . وهداه أيضا لاستخدام اسلحة أخرى للقتال والدفاع عن النفس .. وهداه الى وضـع حدود اجتماعية لتحميه وتحمى ذريته . وفى اثناء فترة الصـيد هذه استطاع الانسان أن يحرك أصابع يديه . وهو وحده القادر على ذلك من كل الحيوانات الأخرى . وهذه الأصابع هى التى مكنت الانسان من أن يستخدم الأدوات وأن يصنعها أيضـا . وهذا ما لم تفعله كل الحيوانات الأخرى ..

وتمكن الانسان ـــ خلال مئات الألوف من السنين ـــ أن يصلب عوده . وأن يقف وتعلم الانسان أن يكون له رفيقة واحدة . هذه الرفيقة هى الشريكة . أو هى اللصيقة . أو التـــابعة .. فلم تظهر كلمة الزواج أو كلمة الزوج الا فيمـــا بعـــد ذلك بالوف السنين .

وهناك اختلاف آخر بين الانسان والقرد مثلا ..

ففى فترة الحمل عند القرود ـــ أقرب الحيوانات الينا ـــ تقرف الأنثى من كل صلة جنسية . بل انها تبعـــد تماما عن الذكور . فيما عدا الانسان ـــ هذا الشـــهوانى ـــ لا يقوى على الحرمان الجنسى طويلا . ولذلك فمن الممكن ان يقرب زوجته معظم فترات الحمل وكأنه بذلك اراد ألا تتجـــه زوجته الى ذكر آخر .. وكأن الأنثى أرادت هى الأخرى الا يتجه الذكر الى انثى أخرى.فأصبحت هذه العلاقة ممكنة رغم الحمل .

وقد ورث الانسان من مرحلة الصيد القديمة ، هذه النعومة فى البشرة .. فهو اذا عانق المرأة التصقت بأكبر مساحة ممكنة من هذا الجسم العريان . وأصـــبح الجسم الانسانى شـــديد الحساسية للملامســـة . وفى هذا الجسم الانسانى مراكز كثيرة قادرة على اشعال الحس . والانسان اكتشفها واعتاد عليهـــا ويلهبها كلما اراد ذلك .. ولذلك فى استطاعة الانسان أن يكهرب نفسه وغيره بمجرد أن يمر بأصـــابعه على الجسم الانســـانى العريان .

ومن الملامح الغريبة عند الانسان : الشفتان ..

وقد أعلن كثير من العلمـــاء أن الشفتين ليست لهمـــا ضرورة

خاصة . وكان من الممكن أن يكون الفم مجرد فتحة . ولكن الانسان هو الذى جعل للشفتين معنى خاصا .. ويقول علماء آخرون : ان شفتى الانسان قد كبرتا وتضخمتا لأن الانسان له طفولة طويلة . أى انه يرضع ثدى أمه سنوات عديدة بينما نجد القردة ترضع صغارها فترات اقصر .

ولكن الغريب فى شكل الشفتين انهما مقلوبتان الى الخارج . على خلاف شفتى القرد .. فانهما حادتان بلا طبقة شحمية . فاذا اقترب منك القرد وقبلك فانه يطبع فكيه فقط على وجهك أعلى عنقك . ولكن القبلة من شفتى انسان ملتصقة ومندمجة وعميقة ايضا . ففى استطاعة الانسان أن يعانق الشفتين بالشفتين ..

وفى الشفتين خلايا عصبية كثيرة . ولذلك فالانسان قد جعل هاتين الشفتين ذراعين تتعانقان .. وتنقلان الحرارة والوهج الجنسى الى كل الجسم بل ان هناك نساء يغمى عليهن عند القبلات . وبسبب المعانى الكثيرة التى تعملها القبلة وتثيرها ، فان تسليم الشفتين هو موافقة مبدئية بتسليم بقية الجسم الانسانى .. وكما أن الطفل الصغير يرضع بشفتيه ، فان الطفل الكبير يرضع ايضا بشفتيه احساسات أخرى ومعانى عميقة ومثيرة .

وبعد الشفتين تجىء الأذنان ..

يقول بعض العلماء ان أذنى الانسان كانتا طويلتين — كأذني الحمار مثلا ثم ضمرت الأذنان بمرور الوقت حتى أصبح لها هذا الشكل الذى نراه .. وهناك شبه بين أذنى الانسان وأذنى القرد .

ولكن هنـــاك خلافا واضحا : هذه الشـــحمة التى تتدلى من الأذن .. من أين جاءت ؟ ولماذا كانت ؟ وما فائدتها ؟ ليست لهـــا فائدة . ولكن الانسان خلال مئات الألوف من السنين قد استخدم هاتين الأذنين فى الاثارة الجنسية .. امسك الأذنين بأصـــابعه اثناء اللقاء الجنسى . واعتاد ذلك وأصبحت لهذه الشـــحمة هذه الدلالة الجنسية . وأصبحت جرسا يضغط عليه فاذا كل الحواس الأخرى تصرخ وتثور وتنفتح ..

أما النهدان فهمـــا عند أنثى القـــرد العريان متضخمـــان .. وتتضخمان عند الاثارة الجنسية أيضا .

ويقال أن النهدين مظهر من مظاهر الأمومة . وضرورة لها . ولكن أثداء القرود ليست فى ضخامة أثداء المرأة . على الرغم من أن أثداء القرود أكثر افرازا للبن . ولكن اللبن الكثير والرضاعة العنيفة عنـــد صغار القرود لم تؤد الى تضخم ثديىى القـــردة ، ولكن أنثى الانسان لها نهدان يتضخمان وهذا التضم ليس بسبب الأمومة ، ولكن بسبب الأنوثة .. فالنهدان جهـــاز تنبيه جنسى أيضا . اعتاده الانسان واستراح اليه وعليه .

والأنف يختلف عن كل الأنوف عند الحيوانات الأخرى . والخلايا والمراكز العصبية الموجودة فى الأنف كثيرة . واذا كانت خاصـــة الشم عند الانسان قد ضعفت فان هذه الحســـاسية تقوى عند العناق . ويصـــبح الأنف قادر على أن يشم وعلى الاســـتمتاع بالشم ولذلك كانت الاثارة عن طريق المعطور ورائحة الجســـم الانسانى نفسه .

هذه الاختلافات فى الهيئة والسلوك الانسانى قد اكتسبناها من مئات الألوف من السنين .. واكتسبنا معها وبسببها هذا العقل

الذى نمتاز به عن الحيوانات الاخـــرى ولكن ما الذى تغـــير فى الانسان الآن .. هل ما يزال الانسان كما كان من مئات الألوف من السنين .. هل نحن مختلفون عن أجدادنا فى الرغبة والاتجاه والاشـــباع ..

لم يتغير شىء .. وانما الأســـماء فقط هى التى تغيرت .. فالبيت بدلا من الكهف والعمل بدلا من الصيد . والحب بدلا من السطو . والزواج بدلا من التزاوج ..

كما ظهرت بعض القيود التى نسميها : القانون .. القواعد.. الاصول .. التقـــاليد ولكن متى ظهرت هذه الحواجز . هـــذه الفواصل . هذه الأسلاك الشائكه . هذه العلامات البيضاء على الأرض . علامات المرور العاطفية.متى ظهرت . متى اصبحت لها هذه القوة ؟ ..

عندما ظهر الغرباء فى حياتنا ..

فبين الرجل وانثاه لا قيود . ولا تقاليد . ولا عـــادات . الا ما اتفقنا عليه . وهو حر فى بيته . وهى أيضا . وفى استطاعة الانثى أن تمشى عارية . والرجل ايضا . ولكن عندما يظهرشخص غريب : تنكمش الحركة ويتغطى الجسم . وتنزوى المرأة . ويبعد الرجل عن زوجته ..

واذا كان الرجال معا يذهبون الى الصـــيد ويتركون النســـاء وحدهن فقد حدث كثيرا أن ذهبت النساء للصـــيد ايضا . هـــذا الاختلاط حتم اقامة الفوارق والحدود . وعرفت الانسانية معانى العيب والحرام والشرف . اى ان المرأة لا يحق لها أن تعطى للغير ما ليس للغير .

وقد أسرف الرجال فى وضع الحواجز واقامة الجـدران بين ما يخصهم وما يخص غيرهم . وفى العصور الوسطى كان الرجل يضع « حزام العفة » حول زوجته . ويضـع على الحزام قفلا يحتفظ بالمفتاح فى جيبه .. عاما .. وعشرين عاما . ويترك فى الحزام فتحات للضرورة الحيوية فقط . وكان البعض من المتزمتين يضع الحزام كالسد المنيع على زوجته عندما ينهضان من النوم كل يـوم !

وقد اعتاد الرجل منذ وقت طويل أن تكون له امرأة خاصة . وأن يكون جسمها خاصا به . وأن يكون لهما مكان خاص ينامان فيه . (وفى كل اللغات العالمية نجد أن كلمة « نام » الرجل مع المرأة أى عاشرها كأنها زوجته) .. اذن لقد عرف الانسان الزوجة الخاصة . والبيت الخاص . وعرف السرية والخصوصية فى كل تصرفاته الجنسية والعاطفية .. بعيدا عن عيون الآخرين وعن أيديهم أيضا .

* * *

ولو نظرنا الى مكان مزدحم بالرجال والنساء لوجدنا هنـاك حرصا شديدا على الا يصدم احد بأحد .. أو يصطدم رجل بامرأة. لأن الملامسة لها معنى جنسى . وان كنا فى حياتنا العادية لا نقول ذلك . وانما فقط نقول : عيب أن نصطدم بسيدة .

هذه قلة ذوق .. هذا سوء تربية .. ولكن المعنى الحقيقى أن جسم هذه السيدة ليس مباحا . وانما هو خاص . وليس من حقك أن تلمسه .. وانما من حق غيرك ، وان كانت هذه الملامسة مسموحا بها فى أماكن الزحام الشديد ، لأنه لا مفـر من ذلك ، ومسموحا بها للحلاق والترزى والطبيب .. ولو فرضنا أن سيدة

اصطدمت برجل فى الزحام ، ولم يعتذر لها لقالت انه قليل الأدب .. ولكن لو ذهبت الى الطبيب نفسه للعلاج فانها تنزع ملابسها أمامه . ويتحسس جسمها . ويولدها . ولا يتهمه أحد بسوء الادب لانه فى المرة الأولى لم يكن له حق . و فى المرة الثانية له هذا الحق !

وبسبب هذا العدد الهائل من الغرباء فى كل مكان . كان من الضرورى أن تخفى المرأة معالم جسمها . وقد دفعت المرأة نفسها وراء الأبواب والجدران وتحت الملابس الوف السنين . ولكن عندما أصبح « العمل » ضرورة حيوية .. خرجت المرأة واخفت ملامحها أيضا لأن كشف هذه المعالم والنظر اليها ولمسها بالعين او باليد ليس من حق كل الناس !

ولذلك نحن نطلب الى الطفلة الصغيرة اذا جلست ان تضم ساقيها . والا تفتحهما حتى تعتاد على ذلك .. لأن فتح الساقين لا يليق أمام كل الناس .. وكذلك المرأة عندما تضحك فانها تحاول الا يكون صوتها عاليا . وأن تخفى ضحكتها وراء يدها .. أو تنحنى لتخفى ضحكتها أيضا .

والسبب هو أن الضحك واللعب لهما دلالة جنسية خاصة ، ويجب الا تكون عامة !

ولكن ما الذى تفعله المرأة بملابسها الآن ؟

ان ملابس المرأة تخفى جسمها ولا تخفيه .. بل ان الملابس تبرز جسم المرأة أكثر مما تتستر عليه . فقد يكون الصدر مترهلا ذابلا . ولكن السوتيان يشده ويدوره ويبرزه . وهذه الاستدارة والتضخم والبروز لها دلالة جنسية . فمن المعروف أن النهدين يتضخمان عند اللقاء الجنسى .

وكذلك ارداف المراة . فهى حريصة أيضا على ابراز الردفين وتكبيرهما .. ولذلك تستخدم الكورسيه .. وأحيانا تستخدم الأرداف الصناعية المصنوعة من القطن . وكما ان المراة تحقن صدرها بالشمع . فانها تحقن أردافها ايضا .

فكأن المراة لا تخفى جسمها . وانما هى تخفيه ليظهر اكثر . فلماذا ؟

نعود الى جبلاية القرود : ففى عالم القرود نجد أن الخوف والزحام يدفعان الحيوانات الضعيفه الى الاستسلام للذكر القوى أو الأنثى القوية . وأول ما يفعله القرد الضعيف أن يدير ظهره للحيوان الأقوى . ويعتليه الحيوان الأقوى والخوف فى جبلاية القرود سببه الزحام على القوة . وعلى السلطة . وعلى الطعام وعلى الأناث . ولا يملك الضعيف فى هذا الزحام الوحشى الا أن يعطى نفسه لمن هو اقوى منه . وليس لدى القرود الا جسمها .. فتضعه امام الذكر الأقوى !

وفى عالم الانسان ايضا . فالمراة عندما تخرج الى الشارع . تحرص على أن تكون جميلة ومثيرة فهذا الجمال والاثارة هما محاولة للفت نظر الرجل . وفى نفس الوقت تذويب رغباتهالعدائية او العدوانية .. الى مجرد رغبة .. الى اعجاب .. الى اشتهاء .. وبذلك تنجو المرأة من شر الرجل . وتنجو ايضا من الاعتداء عليها .. ولولا خروج النساء الى الشارع لانهدمتالحياة الزوجية وانهدمت الأسرة الانسانية . فخروج المراة الى الشارع خفف حدة الرجال الآخرين الشبان والمتزوجين .. فكأن المرأة عندما تخرج الى الشارع جميلة أنيقة مثيرة عارية بارزة النهدين والردفين تقول : من الممكن ان تحبنى ولكنى بعيدة جدا !

ومعروف لنا جميعا أن المرأة عندما تخرج الى الشارع سوف تكون موضع نظر الرجل .. اى رجل .. فهى لا تستطيع أن تسد عيون الناس . ولا أن تسد أفواههم . ولكنها فقط عن طريق اشباع العيون تقطع أيديهم .. واذا كانت العين بصيرة ، فمن المؤكد أن الأيدى ستكون قصيرة — وهذا هو المطلوب !

فلماذا كل هذه الممنوعات والقيود ، ولماذا هذه الاثارة فى نفس الوقت ، لماذا تفتح النوافذ لتهب العواصف الباردة ولماذا نشعل المدفأة فى نفس الوقت ؟

لأن الرجل حيوان « بريالة » .. فاذا سال لعابه ، أصبح حيوانا ذاول ذليلا .. وكأن المرأة هى وحدها القادرة على تحويل النمر الى قط وتحويل الذئب الى كلب .. الى قرد عريان .. الى عريان .. فكأن المرأة هى وحدها التى تقوم بترويض الرجل الشرس فى الشارع وفى البيت .. وهى وحدها القـادرة على أن تحمى الحدود التى وضعها الرجل .. وعلى ازالة الحدود وازالة الرجل أيضا !

وقـد اعتاد الانسان شيئا جديدا : اعتاد أن ينظر .. أن « يبص » وأن يجد متعة فى النظر والبصيصة .. واعتادت المرأة أن تكون منظورة .. ملفتة .. وتصبح المتعـة مشتركة بين الجميع .

ولذلك نجد متعة أيضا فى مشاهدة الأفلام والمسرحيات حيث نجد أناسا آخرين يحبون ويعشقون ويقبلون ويتزوجون .. انهم يقومون بكل شىء بالنيابة عنـا .. اننـا نشاركهم فقـط بعض اللحظات . بل اننا نعلن عن الأفلام العاطفية باظهار البطل والبطلة

فى حالة هناق حار . ولا أحد يسأل نفسه : طيب هو يعانقها ويقبلها واحنا اخذنا ايه ؟ ..

لا شىء طبعا . ولكن أثناء عرض الفيلم نندمج مع البطل والبطلة وننسى ان الذى امامنا هو تمثيل فى تمثيل .. ولكن النظر متعة .. ولذلك عندما يتعانق البطلان نحس بالكهرباء ويسيل اللعاب .. و نتعالى آهات الحرمان .. آهات صاحب العين البصيرة واليد القصيرة !

وفى الصحف والمجلات صور عارية .. وفى الروايات قصص عارية .. وصفحات غرامية من نار .. كل هذا نبحث عنه . لأنه لذة . ومتعة . ومشاركة بالعين فقط .. ؟

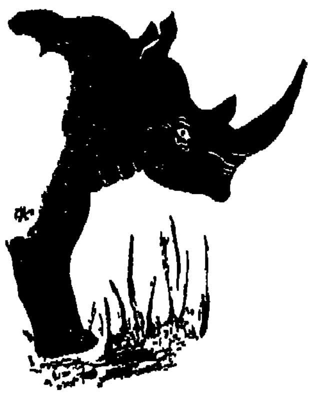
وفى هذه المناظر حماية للأسرة وتعجيل بأن تكون لكل انسان أسرة أيضا !

وفى البلاد التى يسمحون فيها بالدعارة .. نجد أن هذه الدعارة تحمى الأسرة أيضا . فالرجل يذهب الى احدى الغانيات بلا حب ولا مقدمات فتمتد يده دون أن يراها .. اى يكون طويل اليد قصير النظر .. ولذلك لا يفكر فى أن يتزوج غانية .. أو يترك زوجته وأولاده وبيته من اجل غانية .. أو من أجل واحدة تملأ الذراعين وتسقط من العينين .

والدعارة هذا العفن الاجتماعى والأخلاقى — هو أحد السموم التى يحمون بها الأسرة — أو كأنه أحد الأسمدة العضوية التى يستخدمونها لتغذية التربة ؟ .

ورغم المحاولات الكثيرة للتخلص من القيود العائلية . أو التخفيف منها تعيش الأسرة أقوى وأبقى علاقة اجتماعية . فقد

حاول المفكرون أن يبحثوا عن وسائل للحمل بدون أب معروف .. وحاولوا وضع الأطفال فى مكان عام دون حاجة الى أم أو أب .. كل هذه المحاولات الفكرية والعلمية قرأ الانســـان عنها ولكن لم يتحمس لها . فما يزال الانسان حيوانا اجتماعيا .. يريد الزوجة الواحدة والطفل والبيت الخاص . وان تكون له خصوصيات . وان تكون هناك ، حدود عليه وحدود له .. وان يكون له اطفال . وان يتولى هو تربية اطفاله وهذه هى احدى مشكلات الأسرة واحـــد اعبـــاء الزوجين .. والمجتمع والدولة .. وتربية الطفل ليست مشكلة حيوانية .. فلا شكوى للقرود منها .. وانما هى مشكلة انسانية جديدة ومتطورة كما سنرى !



من قلوب الأمهات !
خرجت موسيقى الخنافس !

عندما يولد القرد، فانه يمسك بامه . يمسك بشعرها وجلدها . ويتعلق بها . كأنه تدرب على هذه العملية فى بطن امه ومنذ وقت طويل .. ولا يستطيع الطفل الانسانى أن يفعل ذلك الا بعد وقت طويل .

فالقرد الصغير لا يحتاج من امه الى تربية او تدريب .. ثم انه ليس عبئا يصيبها بالقرف والغثيان وينخفض ضغط الدم عندها .. وينفخ صدرها .. ويعتمد عليها ..

أما الطفل الانسانى فانه عبء قبل أن يولد فلا تكاد امه تحمل فيه حتى ٢٦٦ يوما تطلق هذا الجنين كأنه قذيفة .. ولا بد أن تصرخ الأم بأعلى صوتها . ولا بد ان يبكى الطفل ايضا . ويحرص الأطباء على أن تصوت الأم وعلى أن يبكى الطفل . فاذا حدث ذلك تلفت الطبيب يتلقى التهانى من الأهل على أنه أبكى الأم وطفلها .

وينزل طفل القرد ومعه « خلاصه » هذا الخلاص تقوم أم القرد بتقطعه ثم ابتلاعه . وبعد ذلك تقوم بلعق السائل الذى يغرق جسم

الطفل ثم تغسل جسمه تماما .. أما الطفل الانسانى فانه يولد عاجزا تماما على فعل اى شىء .. وأمه كذلك مرهقة لا تقوى على عمل شىء لهذا المولود ..

ولا بد ان قطع الخلاص على طريقة القرود كان اسلوب آجدادنا من الوف السنين ، فيما عدا أنهم لا يأكلون الخلاص . ولا بد ان حاجة الأم الى مساعدة الآخرين فى هذا الموقف ترجع الى مئات الألوف من السنين عندما كان الانسان صيادا يترك زوجته أياما حتى يعود اليها بالطعام . فكان يجتمع حولها نساء كثيرات يساعدنها على ولادة الطفل والعناية به حتى تفيق الأم من آلام الولادة ..

وبعد يومين من ميلاد الطفل الانسانى يبدأ لبن الام فى السيولة النشطة . فاذا أعطت الأم ثديها لابنها ، ظل يرضع حوالى العشرين شهرا .. والرضاعة الحديثة تكتفى بسبعة أو تسعة شهور فقط .

وعندما تتوقف الأم عن ارضاع طفلها يعاودها المرض الشهرى وتصبح قادرة على الحمل من جديد .. ولذلك تعتبر الرضاعة الطويلة محاولة لتحديد النسل أيضا .

والرضاعة عند القرود ليست مشكلة .. ولكنها عند الانسان — هذا القرد العريان — مشكلة كبرى . فالطفل الانسانى غير قادر على أن يطعم نفسه ، وعلى الأم أن تساعده فهى تحمله على صدرها . وهى نضع ثديها فى فمه . وهذه مشكلة . فحلمة الثدى ليست ممدودة بدرجة كافية . وليس من السهل ادخالها فى فم الرضيع . ولذلك فالأم تضع ثديها بين شفتيه بحيث تكون حلمة الثدى بين سقف الفم وبين لسانه . ثم انه يجب ان تكون الرضاعة سهلة فى الايام الخمسة الاولى ، واذا فشلت الأم فى ذلك فسوف تكون هذه مشكلة معقدة للطفل بعد ذلك ..

وأحيانا تشعر الأم أن طفلها يرفض ثديها . وهى لا تدرى . ولكن عند الطفل أسباب وجيهة جدا . كأن تضغط الأم بطفلها على صدرها . فلا يعرف كيف يتنفس : ففمه الصغير مليان باللبن وأنفه الصغير ملتصق بصـــدرها .. ولذلك يجب أن تراعى الأم ذلك . وهذا يجعلنا نقول مرة أخرى ان صدر الأم ـــ نهديها ـــ ليس جهازا للأمومة . وانما هو علامة من علامات الأنوثة .. والجنس . فهذه الاستدارة المرنة . وهذا البروز وهذه الحلمة غير الممدودة لا تجعل الرضاعة سهلة على الطفل . ويكفى أن ننظر الى زجاجات اللبن التى يرضع منها الطفل . فحلمة الزجاجة طويلة ممدودة ولذلك يسهل على الطفل أن يرضع منها . ولو عرف الزجاجة لرفض ثدى الأم .. وتشبه هذه الزجاجة النموذجية ثدى القردة .. فثدى القرد مترهل يسهل على الطفل أن يمسكه . كما أن حلمة الثدى طويلة ممدوده تدخل بين شفتيه بسهولة تامة . بينما الطفـــل الانسانى يجـــد صعوبة فى وضع الحلمة فى فمه . ولا يقوى على امساك الثدى بسهولة القرود .. فكأن ثدى المرأة خلق للرجل وليس للطفل .. !

وهناك ملحوظة هامة وتحتـــاج الى تفسير جديد . فقد دلت الأبحاث على أن ٨٠٪ من الأمهات يضعن أطفالهن الصـــغار اثناء الرضاعة على الذراع اليسرى .. وقد يكون تفسير ذلك أننا نعتمد على الذراع اليمنى أكثر من الذراع اليسرى فتضع الأم طفلها على الذراع التى لا تستخدمها عادة .

ولكن لوحظ أيضا أن ٧٨٪ من الأمهات اللاتى يستخدمن الذراع اليسرى يضعن الطفل أثناء الرضاعة على هـــذه الذراع اليسرى أيضا !!

أما تفسير ذلك فهو أن القلب على الجانب الأيسر من الجسم .

وأن الطفل وهو جنين قد اعتـــاد على سماع دقات قلب الأم . وعندما يولد الطفل عاجزا ضائعا فى هذا العالم الكبير فان الأم تعيده الى جنبها الى حضنها كأنها تعيده الى أحشائها فى ذلك المكان الأمين الذى يستمع فيه الى دقات قلبها من جديد .. ودقات قلب الأم هى الصـــوت الوحيد الذى يجعله يشعر بالأمن فينام . والمرأة تفعل ذلك بالغريزة أو نتيجة لمحاولات طولها عشرات الألوف من السنين .

وقد أجريت تجارب على اطفال صغار وضعوا فى غرفة واحدة فى الوقت الذى وضع جهاز تسجيل يذيع دقات قلب ــ أى ٧٢ دقة فى الدقيقة ــ فلوحظ أن الأطفال ينامون بسهولة . ولوحظ أيضا أن هؤلاء الأطفال يرضعون كثيرا . كما أن وزنهم قد زاد .. على عكس الأطفال الذين وضعوا معا بلا جهـــاز تسجيل فى غرفهم . فهؤلاء الأطفال يبددون طاقاتهم فى البكاء .

وأجريت تجربة أخرى على ثلاث مجاميع من الأطفال : اطفال فى غرفة بها جهاز يدق ٤٠ دقة فى الدقيقة .. واطفال فى غرفة بهـــا جهاز يدق ٥٢ دقة فى الدقيقة .. والغرفة الثالثة بها جهاز مسجل عليه دقات قلب حقيقى .. فلوحظ أن أطفال الغرفة الثالثة هم أسرع الجميع الى الهدوء والى النوم .

ولا بد أننا حين نتحدث عن أن الحب مصـــدره القلب وليس الرأس ، نشير الى أن هذه الحقيقة التى عرفناها أثناء الطفولة .. فنحن نشير الى الأمن والأمان الى جوار الأم .

ولا بد أن تكون « مرجحة » الطفل .. وهدهدته حتى ينام .. سببها أن الطفل يستشعر خفقات قلب الأم .. ولا بد أن هذا هو الذى يجعله ينام .. وهذا الاهتزاز أو هذا الصوت الذى يسمعه

يعيده الى هدوئه عندما كان فى بطن أمه .. وهذا ما نفعله نحن الكبار .

فلا يكاد الانسان يجلس الى مقعده حتى يحاول ان يتأرجح به .. أو عندما نهز ارجلنا .. كل هذه محاولات لأن نهدىء أنفسنا .. او محاولات لأن نعيد هزات وصوت قلب الأم .

وليس من الصدفة أن تكون كل الموسيقى الجديدة التى يستريح اليها الشبان هى موسيقى الدقات العالية .. دقات الطبول .. دقات القلوب المصنوعة من الجلد .. هذه الدقات تهز الأذن وتتأرجح لها المشاعر .. وقد اختار الشبان فى العالم اسما لهذه الموسيقى هو : موسيقى الخفقان .. موسيقى دقات القلب . ومن الغريب ايضا أن الكثير من الشبان بعد حفلاتهم الموسيقية الصاخبة ينامون .. ولذلك يحرص هؤلاء الشبان على أن يناموا اثناء العزف الموسيقى .. ثم يصحون بعد ذلك بعد أن استراحت اجسامهم واعصابهم ايضا .. ان هذه الموسيقى قد اعادتهم الى طفولتهم .. الى قلب الأم .. والى حنان النغم .. فناموا كأنهم أطفال صغار كأن موسيقى الخنافس قد صدرت من قلوب الأمهات!

وبعد ذلك يتوالى نمو الطفل : بعد شهر واحد يستطيع أن يرفع رأسه اذا نام على الارض . وبعد شهرين يرفع صدره وبعد ثلاثة يمد يده الى الأشياء . وبعد اربعة يستطيع أن يجلس فى حجر أمه . وفى الخامس يمكن وضعه فى مقعد . وفى السادس يمكن أن يجلس وحده وفى السابع يعتمد على أمه فى الوقوف . وفى الثامن يعتمد على اثاث الغرفة فى الوقوف . وفى التاسع يزحف . وفى العاشر تساعده أمه على المشى . وفى الحادى عشر يعتمد على أثاث الغرفة فى المشى . وفى الثانى عشر يستطيع أن

يصعد السلم بيديه ورجليه وفى الثالث عشر يقف دون مساعدة . وفى الرابع عشر تجىء اللحظة الكبرى .

انه يستطيع أن يمشى دون مساعدة ! وفى هذه الأثناء يكون قد عرف الطفل بعض الكلمات . ويصبح قادرا على أن يحفظ بسرعة وفى السنة الثانيـــة يعرف ٣٠٠ كلمة وفى الثالثـــة ٥٠٠ كلمة وفى الرابعة ١٦٠٠ كلمة . وفى الخامسة ٢١٠٠ كلمة وهذه مقدرة فذة عند الانسان انفرد بها عن كل الحيوانات الأخرى . وقد أجريت تجارب كثيرة على تدريب القرود على الكلام .

فمثلا : اتوا بقرد وجعلوه يعيش فى نفس بيئة طفل انسانى . وبعد سنتين لم يستطع القرد ان ينطق اكثر من بابا .. وماما .. كوب .. وأن كان الشمبانزى عنده مقدرة على تقليد الحركات ، فانه عاجز تماما عن تقليد الأصوات . على الرغم من أن الأجهزة الصوتية عند الشمبانزى أقوى من أجهزة الانسان .. ومعنى ذلك أن الجهاز الصوتى لا يكفى .

ولكن العقل هو الفارق بين الانسان والقرد . وهناك طيور اقدر من الشمبانزى على تقليد الأصوات .

فالببغاء يستطيع أن ينطق جملة طويلة ولكنه لا يستطيع أن يضيف كلمات أخرى ولا يستفيد من هذه الكلمات المحدودة التى عنده .. ولكن هذه اللغة ضرورة عند الانسان الذى كان يجب أن يخرج فى جماعات للصـــيد . وكان لا بد أن توجد هنـــاك وسائل للتفاهم والتخاطب بين الصاديين .. فاللغة ضرورة حيـــوية عند الانسان ..

والطفل الانسانى ككل أطفـــال الحيوانات الثـــديية له صرخة معروفة هذه الصرخة تدل على أنه يشكو من الم . وبعض الطيور

لها صرخات أيضا . والطفل الانسانى عندما يتألم أو يجوع أو نتركه وحده أو اذا ظهر أمامه أو حوله شىء غير مألوف أو اذا سحبنا من تحته شيئا يستند عليه .. فانه يصرخ .

فهو يصرخ اذن بسبب : التعب أو الخوف . واذا صرخ الطفل الانسانى يجب أن يكون هناك من يساعده ويحميه . وفى هذه الحالة يجب الاقتراب منه وهزه هو أو السرير الذى ينام عليه . وصرخة الطفل توتر عصبى واحمرار فى الرأس ودموع فى العين ، وفتح للفم وسحب للشفتين الى الخلف وتنفس مرتفع . وعندما يكبر الطفل فانه عندما يصرخ يتجه الى أمه ويتعلق بها . وكل هذه معلومات معروفة . ولكنها ضرورية لمشكلة أخرى سوف أعرضها حالا .. مشـــكلة الابتسام والضحك .. فالابتسام له علاقة بالصراخ . فالصراخ نداء الى شخص بعيد .

والابتســـــام حديث مع شخص قريب . وملامح الوجه عنـــد الصراخ هى نفسها ملامح الوجه عند الابتسام أو الضحك : صراخ وفتح للفم وسحب للشفتين الى الخلف وتقلص عضلى واحمرار فى الوجه .

واذا استطاع الطفل أن يميز أبويه فى الشـــهر الثالث ، فان البكاء يتحول الى ضحك . فالطفل الضاحك هو الذى يعرف أباه ، والطفل العاقل هو الذى يعرف أمه . وعندما يعرف الطفل أمه فانه يخاف من الآخرين .

والضحك معناه : أن الخطر ليس حقيقيا . واذا عرف الطفل الضحك ، فان الأم تستطيع أن تلعب معه دون أن يصرخ .

وهناك أناس كثيرون اذا ضحكوا لا تعرف ان كانوا يضحكون او يبكون .. فملامح الوجه واحدة . والصوت نفسه واحد . واذا كنا نقول عادة : ان فلانا ضحك حتى بكت عيناه ، فيمكن ان يقال

عن الطفل : انه بكى حتى ضحك .. فالطفل يبكى حتى يجىء احد . فاذا جاء توقف عن البكاء . فاذا عرف هـذا الذى جـاء فانه يبتسم .. ثم يضحك .. وكثيرا ما يتوقف الطفل عن البكاء فجاة ويضحك .. نفس الملامح مع خلاف بسيط فى لمعان العينين ..

وعنـدما يعرف الطفل كيف يضحك فانه يصبح لعبة الأبوين والاقارب .. ويدخل الطفل مرحلة هامة من حيـاته .. مرحلة الكائن الاجتماعى الصغير ..

والشـمبانزى يبتسـم ويضـحك ويلعب مع صـغاره .. والشمبانزى اذا ضحك فانه يمد شفتيه الى الأمام . وهى قريبة من الضـحك الانسانى وعندما يخـاف الشمبانزى فانه يسحب شفتيه الى الخلف ويكشف عن أسـنانه . فالحيوانات تضحك وتلعب . والانسان ابرع الحيوانات كلها فى اللعب وفى فنون اللعب .. وكلما كبر الانسان اتسعت أمامه فرص اللعب بانواعه المختلفة .. اللعب جسميا وعقليا وفنيا .

واذا نحن نظرنا الى الشبان عنـدما يستمعون الى مطربهم المحبوب . أو يتفرجون على العازفين الذين يعشقونهم . نجد أن هؤلاء الشبان يصرخون . ويشدون شعورهم ويدقون صـدورهم ويمسك الواحد منهم الآخر .. انهم يصرخون كأنهم يتألمون مع أنهم سعداء . ولكن الانفعال اذا ما كان بالغ الشدة فانه يتحول الى شعور بالألم .. فصرخاتهم ليست استغاثة بأحد . وانما صرخات بقصد تنبيه الآخرين الى ان هذا هو شعورهم واحساسهم .. وانهم فى شدة السعادة التى بلغت أقصى درجات الألم ..

ولو اتينا بشاب او شابة واجلسناها مع المطرب الذى هو فتى احلامها فانها لا تصرخ ولا تشـد شعرها ولا تدق صـدرها .. فالصرخة ليس لها معنى هنا . لأن الصرخة نداء الى الآخرين ..

لأن الصرخة .. لغة .. عبارة .. كلام لا بد أن يسمعه أنسان آخر .. أو آخرون :

ومن العجيب أن الطفل الصغير يتوقف عن الصراخ فى الشهر الثالث فجأة . وسبب ذلك ان الطفل يكون قد عرف أمه . والأم الهادئة قادرة على تهدئة الطفل . والأم العصبية تجعل طفلها عصبيا أيضا ..

الأم التى تبتسم لطفلها فانها تهدئه . ولكن اذا فوجىء الطفل بأن أمهتضحك بصوت مرتفع علىغير العادة ، فانه يرتبكويضطرب ولا يعرف ما الذى تقصده أمه

واذا الأم افتعلت ضحكه أو ابتسامة ، فان الطفل يدرك ذلك أيضا ، ومن المستحيل خداع طفل صغير . وهذه حقيقة تعرفها الأمهات . وسبب ذلك أن الطفل جهاز شديد الحساسية شديد الملاحظة . وانه اذا اعتاد على صوت ولهجة ونبرة وملامح الأم . فاذا تغيرت لأى سبب فانه يدرك ذلك وبسرعة وبدقة !

والابتسام تفاهم متبادل .

ومعناه : لا خوف . وعند الشمبانزى علامات تدل على المودة . ولكن الابتسام عند الانسان ميزة خاصة . ولكن لماذا انفرد الانسان بالابتسام

سبب ذلك أن جلدنا ناعم .

عريان من الشعر . فالقرد الصغير عندما يولد فانه يتعلق بأمه . ساعة ولادته ويوما بعد يوم يظل القرد متعلقا بأمه . وعندما يتركها لاول مرة ، فانه بسرعة يعود اليها ويمسك بها . فالقرد الصغير عنده طريقة للوصول الى منطقة الأمان . حتى عندما يكبر القرد ويزداد وزنه وتطرده أمه فانه يعود الى صدرها يتعلق به .. والطفل الانسانى عندما يولد فانه يكون عاجزا عن عمل شىء . وليس لديه

شىء يمسكه أو يتعلق به . ولذلك لا بد ان يعتمد على الام نفسها ، وعلى اقترابها منه ومعاملتها له . ويجب أن يصرخ حتى تجىء . والشمبانزى لا يحتاج الى هذه الصرخات ، لأن أمه أمامه موجودة . أو لأنه يتعلق بها . ولذلك فالانسان الصغير محتاج الى علامة الى اشارة تدل على أنه فى حاجة الى معونة ومحتاج الى اشارة اخرى فيقول انه قد تحققت له المعونة وانه استراح الى ذلك..والابتسام هو المكافأة التى يمنحها الطفل لأمه .. فهو اذا ابتسم كانه قال لها : شكرا .. واذا ابتسمت هى فكأنها قالت له : عفوا !

وابتسامة الطفل فى الأسابيع الأولى تكون غير مركزة .. انها ابتسامة عامة .. ولكن بعد ذلك تصبح للطفل قدرة على التركيز : على عينى الأم .. ولو قدمنا للطفل فى هذه المرحلة ورقة مرسومة عليها عينان .. لابتسم لها أيضا .. وفى الشهر الرابع تتركز نظرة الطفل على وجه الأم .. وفى الشهر السابع يتعرف الطفل على أمه .. وابتداء من هذا الشهر ينطبع فى نفس الطفل كل ما تفعله الأم حتى نهاية حياته .. انه ابتداء من هذه اللحظة تتحدد مسئوليتها الكبرى .

وتظهر عند الطفل نزعات عدوانية يصاحبها الصراخ المتقطع . وتقلص اليدين والرجلين . وأحيانا يبصق الطفل ويخربش . تكون هذه الحركات غير متناسقة أول الأمر .

وبعد ذلك تتركز على العدو .. أو الشخص المخيف . وهذا يدل على ان الطفل بدأ يثق بنفسه وبقدراته .

وعندما يكون هناك أطفال كثيرون معا ، فان استعدادهم للعدوان يكون أشد وأعنف .. ومهمة الأم هنا هى تلقين الطفل وتدريبه وتعليمه وتصحيح سلوكه . والطفل الانسانى يتعلم بالتقليد والتلقين .. وهذه موهبة لم تتطور عند الحيوانات الأخرى .

ومن المؤكد أن كل تصرفاتنا هى ثمرات لبـذور غرسـت فى الطفولة .

ولكننا ننسى ذلك .. كل ما يفعله الانسان من تلقاء نفسه ويسمى ذلك سلوكا أخلاقيا ، ليس فى الحقيقـة الا ما ترسب فى نفسه منذ الطفولة .. ومن الصعب ان نغير آثار الطفولة وآثار الغريزة ايضا .. كما أنه من الصعب ان تغير التقاليد والعادات التى ترسبت فى طفولة المجتمع الانسانى . فاذا ظهرت افكار جديدة تهز القديم ، فان القديم ، يقاوم ويتحمس له الناس . لأن الجديد يريد أن يقتلهم من طفولاتهم أو يجردهم من تاريخهم .. ولكن الجـديد يسود مع بقاء القديم ايضا ..

وهناك مجموعات تجردت من كل القديم ، وتعلقت بالجديد .. هذه المجتمعات انهارت وانحلت وابتعـدت عن الرواسب القوية الأخلاقية والاجتماعية . وهناك مجتمعات تجمدت طفولتها على ماضيها .. ولكن المجتمعات السعيدة ــ كالانسان السعيد ايضا ــ هى التى تأخذ من الجديد ما ينفعها ، وتحتفظ من القديم بما ينفعها ايضا .. اى المجتمعات التى اكتسبت هذه القدرة المتوازنة بين الماضى الكريم والمستقبل الباهر .. ولذلك كانت مهمة الأم صعبة .. كيف تغرس فى نفس طفلها ما هو نافع له وللناس ، وتبعده عن الذى يضره ويضر غيره ..

ولكن الانسان كائن محب للاستطلاع حتى ولو ادى ذلك الى ضرره .. يريد ان يعرف .. ان يمـد عينيه ويده .. وخياله .. ويلعب اول الأمر ، ثم يحول اللعب الى فن : رسم . نحت .. تمثيل .. موسيقى ؟

القرد والسلسلة والقرداتي !

كل الحيوانات الثديية عندها رغبة شـديدة فى ان تتشمشم فى كل ما تجـده كانها تريد ان تعرف : ما هذا ! ولمـاذا ! وهل الذى تجده شىء يصلح للاكل . والقرد هو اكثر هذه الحيوانات رغبة فى الاستطلاع . اما الانسان فهو اكثرها شراهة ويمكن ان يقـال ان الانسان حيـوان ((دباغ)) اى ياكل اى شىء وفى اى وقت ..

وكلما أصبح الحيوان متخصصا فى طعـام معين ، اصـبح عالمه ضيقا محـدودا وفى نفس الوقت خانقا ايضا .. فالحيوان الذى ياكل النمل لا يرى الا هذه الحشرة(١) .

وتصبح الدنيا من أولها لآخرها لا معنى لها الا اذا كانت على شكل نملة .. واذا اختفى هـذا النمل لأى سبب مات هـذا الحيوان .. !!

ولأن بعض الحيوانات تخصصت فى بعض الطعام ، فان الطبيعة قد أعطتها نوعا من الحماية . فحيوان القنفذ يستطيع أن يحـدث

---

(١) أنظر الطبعة الاولى من كتاب « من أول نظرة » ص ٤٥١ وما بعدها ..

أصواتا وضوضاء كما يحلو له وهو آمن تماما . لأن له درعا من الشوك يحميه من الأعداء .. لكن الحيوانات الاخرى التى ليست لها حماية يجب أن تكون فى حالة يقظة مستمرة .. فالانسان يجب أن يبحث من طعامه فى كل مكان ، وان يكون البحث واعيا والا مـــات .

والقرود عندها حب استطلاع شديد . تماما كالانسان ، ولكن عندما تكبر القرود ، فان هذا الاستطلاع يتوقف ، ولا يتطور على عكس الانسان الذى يقوده السؤال الى جواب ثم الى سؤال آخر وهكذا ..

وهناك نوعان من السلوك عند الانسان : حب الجديد والخوف من الجديد .. فكل شىء جديد ربما كان خطرا .

ولذلك يجب أن يقترب منه باحتراس وأن يبتعد عنه باحتراس أيضا ، ولكن اذا تجنبنا كل ما هو جديد أو كل ما هو مخيف فكيف نعرف أو كيف نتعلم أو كيف نوسع مجال الاستطلاع عندنا من أجل العثور على الطعام والوقاية والدفاع والسيطرة ؟ هذه الرغبة فى أن نعرف هى التى تجعل ما ليس مألوفا شـــيئا مألوفا ، وبذلك نكتسب تجربة جديدة ، وندخرها ونختزنها ونتذكرها فيما بعد ..

فالطفل الانسانى يريد أن يعرف ، يمد يده الى كل شىء ، ويضع اذنه على كل باب ويلتقط كل ما يدور حوله ، ويجرب ، وقبل أن تصبح هذه الرغبة الشديدة عند الطفل شيئا خطرا يجب أن يتدخل الوالدان .. ونحن نقول عادة عن هؤلاء الأطفال الذين يستطلعون كل شىء بشراهة : انهم يتصرفون كالوحوش .. ولكن الأصح أن يقال : ان الوحوش هى التى تتصرف كالأطفال — أى عندما تحاول الحيوانات أن تعرف وترتقى بمعرفتها يختلط لديهـــا الاندفـــاع بالاحتراس ..

ومن مظاهر الاستطلاع عند القرد وعند الانسان ايضا : اللعب، فاللعب عند القرود يشبه اللعب عند الطفل الانسانى ، فالصغار عموما يحيون الشيء الجديد . يمسكونه ، ويرمونه ويكسرونه ، ويخترعون اشكالا جديدة من اللعب وليست لديهم قدرة علىالتركيز ولا قدرة على ان ينقلوا الى آبائهم معنى الألعاب او الحركات التى اكتشفوها . اما الطفل الانسانى فيستطيع الى حد ما ، والفرق بين القرود الصغيرة والأطفال الصغار : ان القرود كلما كدرتقويت عضلاتها والأطفال الصغار كلما كبروا قويت عقولهم ..

واذا اعطينا القرد الصغير ورقة وقلما ، فانه يمسك القلم ويرسم به على الورق ، وعندما ينظر الى ما احدثه القلم على الورق يفرح به .. فهذه الخطوط شيء جديد ، ويظل يرسم بالقلم على الورق ، واحيانا يرسم دوائر ناقصة .. واحيانا خطوطا متقطعة .. اما الطفل الانسانى فيهتدى الى الدوائر والمربعات .

والاطفال والقرود يحبون الخبط والرقع .. اى يحبون ان يلعبوا بالأشياء التى لها صوت ، وكلما كان الصوت مدويا كان تعلقهم بهذه اللعب اكثر .. يحبون البمب .. والبالونات ومسدسات الفل ..

والطفل الانسانى عندما يبلغ الثالثة من عمره يعرف كيف يرسم الدائرة ، ويرسم الوجه الانسانى وذلك بأن يجعل له عينين وفما وأذنين .. ثم يجعل الذراعين والساقين تخرج من الرأس ..

وهذه مرحلة استكشاف واكتشاف ايضا ، فالطفل يستكشف قدراته على اللعب ، ويكتشف أنه قادر على أن يلعب ، ولكنه لا يقدر على أن ينقل هذا الذى يمارسه الى والديه فيقول لهما ما الذى صنعه أو اهتدى اليه ، وانما هو رسم فقط ! .. انه

كالذى وجد قرشـــا على الأرض . وراح يلعب به فقط ولـكن لا يعرف ان كان هذا القرش له معنى آخـر .. او يسـتطيع أن يشترى به أى شيء .. او بعبارة اخرى : ان القرش لعبة ، أى انه يساوى ثمنه لعبا ، أى أن اللعب لذة مدفوعة الثمن فورا . فهو فى مرحلة اللعب لمجرد اللعب .

وفى عالم الأصوات : لا نجد أن للقرد الصغير او الكبير تجارب فى عالم الصوت ، فهو غير قادر على ان يكتشف شيئا جديدا ، ولا أن يقوم بتركيب كلمات أو حروف ، ولا هو قادر على التـلاعب بالحروف والكلمات ، كما يفعل الأطفال عندما يكتشـفون قدرتهم على الكلام ، فانهم يفرحون باختراع كلمات أخـرى : اى بقلب الحروف ولخبطتها .. انها مهارة جديدة اكتشفوها فى انفسهم .. وان كانت القرود لها أصوات معروفة ثابتة .

وان كانت لها ايضا عادة دق الأرض بالأرجل والأيدى للتعبير عن الضيق أو الفرح ، ولكنها دقات معروفة محدودة ، كمـا أن القرود فى بعض الأحيان تنفخ فى الأجسام المفرغة الخوف .. ولكن القردة لم تستطع أن تجعل الشيء المفرغ عودا أو قيثارا ، ولم تجعل لهذه الأصوات قواعد ومعنى .

ولم تحاول القردة أن تجعل فرحتها منظمة .. او حركاتهـــا مدروســة كالرقص عند الانســان . أو كالألعاب الرياضـيه .. فالرياضة هى حركات ذات ايقــاع ، هذا الايقاع متنوع من لعبة الى لعبــة ..

حتى الكتابة هى أيضا نوع من الرسم ، فالحروف عبارة عن رسوم والكتابة أصلها لعب أيضا .

وعن طريق هذه الاكتشافات نقلنا أفكارنا الى غيرنا ، ونقلنا أفكارنا من جيل الى جيل ، واصبح لنا تاريخ مشترك . ثم وضعنا لكل هذه الألعاب قواعد ..

ولا شيء جديد فى عالم الحيوان .

ولكن الجديد فى عالم الانسان .

فهو دائما يبحث عن الجديد ويتمسك به ، فاذا اصبح مألوفا اتجه الى غيره ، ولو وقفنا عند الذى نعرفه لتجمدنا وليس الجديد فقط فى خطوط الأزياء والتسريحات والسيارات والأثاث ، ولكن الجديد فى أسلوب التفكير نفسه فالبحث عن الجديد والبعيد هو جوهر الحضارة الانسانية .. وهو الفارق بين الانسان والقرد ، أو بين القرد العريان والقرد ..

واذا رجعنا الى لعب الأطفال لوجدناه موجها الى الآباء فى أول الأمر ، فالأب يلاعب طفله ، والطفل يلاعب والديه ، وعندما يكبر الطفل ، فان اللعب يتجه الى غيره من الأطفال .. اى يكون الطفل نشاط اجتماعى ، فيكون للطفل شلة من الأطفال يلعبون معا ، وهذه مرحلة دقيقة جدا فى حياة الطفل وسوف يكون لها اثر خطير فى حياته ، فالطفل الذى يحاول ان يعزف على الآلات الموسيقية ويفشل وهو صغير ، سيجد صعوبة شديدة فى محاولة ذلك عندما يكبر والطفل الذى يفشل فى ان يكون له أصدقاء وهو صغير ، ستصبح الصداقة صعبة عليه عندما يكبر . واذا كانت علاقة الطفل بالأشياء المادية كالبيانو أو كالناى صعبة فى الطفولة ، فان علاقته بالأطفال سوف تكون أصعب واعقد .

والطفل الذى انعزل عن مجتمع الأطفال ، اى الذى ليست له

علاقات اجتماعية ، سيجد نفسه فى وضـــع سىء وســوف تكون علاقاته الاجتماعية معقدة ومرهقة أيضا ..

ومن التجارب التى أجريت على القرود مثلا : اننا اذا عزلنـــا قردا من القرود الأخرى .. سنة وراء سنة ثم اتينا له بعـــد ذلك بقرود فانه يظل عاجزا عن المشاركة معها فى اللعب او اللهو حتى فى الجنس .. بل انه يفقد رغبته الجنسية تماما ، وقد لاحظ العلماء ان القرود التى تنعزل طويلا اذا وضعت فى مجتمع القرود فانهـــا تقف الى جوار الحائط وتدق الأرض برجلها .. واحيانـــا تخفى وجهها بيديها .. كأنها فى حالة خوف أو خجل او عجز عن الاشتراك فى اى عمل جماعى ..

وتربية الطفل لهـــا جانبان : تربية داخلية وتربية خارجية ، ولننظر ماذا يحدث فى عالم القرود : فالأم تترك طفلها يتعلق بها ، فاذا خاف عاد اليها فالأم تحميه بحنانها وترضـــعه مكافأة على سلوكه الذى لا يضره ، وهذه هى مرحلة الأمان عن طريق الحنان ، اما عندما يكبر القرد فان الأم تطرده بعيدا عنها ، لكى يشترك مع القرود الأخرى فى اللعب فاذا عاد اليها فانها تضربه وتقسو عليه.. كأنها تريد أن تقول له : انك كبرت على حضن الأم ، فابحث لك عن حضن آخر ، وفى هذه المرحلة نجد الأم أقل حبا لطفلها . ولا تنطلق لحمايته الا فى حالة الخطر الشديد اما اذا لم يكن هنـــاك خطر ، وجاء طفلها الصغير يتعلق بها فانها تطرده وتضربه،وبعد ذلك يتعلم القرد الصغير أن يبعد عن أمه ، وان يدافع هو عن نفسه ..

وكذلك الطفل الانسانى تماما ، اذا لم تحسن الأم تربية طفلها فى المرحلتين فان النتيجة سوف تكون سيئة وقاسية ..

والطفل الانسانى الذى يفقد الحنان وهو صغير ، ثم أصبحت

له علاقات اجتماعية بعد ذلك ، فانه سوف يكون عاجزا عن تعميق هذه العلاقات الاجتماعية ..

واذا عرف الحنان فى الطفولة وعرف الحماية الزائدة والعناية البالغة فمن الصعب عليـــه أن يجــد الشجاعة على خلق علاقات اجتماعية جديدة ، وانما سيظل كالطفل متعلقا بأمه ..

ولا يريد أحدا آخر غير الأم ، فاذا فقد الأم فانه يظل يبحث عن الأم أو بديل عن الأم . وسوف يصدمه المجتمع لأنه بطبعه قاس ، ولأنه ليس أما لأحد ..

والانسان الذى يخاف من المجتمع يكون انسانا انسحابيا أو هروبيا ، وهذا الانسان الهروبى لا يريد أن يعرف شيئا جديدا ، لأن الجديد مخيف وهو لا يريد أن يخاف .

فالذى يعرفه أحسن ، وهو لذلك ليس اجتماعيا ، ولا يحب أن يكون وقد يكون له نشاط جسمى ، ولكن نشاطه يجب ان يكون متكررا ، اى لا يأتى بحركات جديدة ، وانما هو أسير العادة التى استراح اليها .

بل اننا نجــد الكثيرين من الهروبيين لهم حركات ثابتـــة .. يهزون رءوسهم أو أيديهم أو ارجلهم بصورة متكررة او يرضعون أصابعهم ، وتكون لكل واحد منهم « لازمة » .. لماذا ؟ لأن هؤلاء الهروبيين قـــد وجدوا البيئة مخيفة ، معـــادية ، لا ترحب بهم ، ولذلك وجدوا الراحة فى ان يجعلوا سلوكهم مألوفا ، مألوفا أكثر من اللازم . اى جعلوا انفسهم مفهومين .. عاديين .. لا يخـــاف منهم أحـــد أو لا يلتفت اليهم .. ومن الممكن ان تلاحظ ذلك فى الناس الذين حولك . فالذى يقول عبارات واحدة لا يغيرها فى الرد

على كل شيء هو انسان (عادى) ـــ اى يجعل العادة تتحكم فيه. حتى أصبح هو نفسه (عادة) اجتماعية ، لا يخيف احداً ، ولا يخاف من أحد ، وهنـــاك مثل شعبى يقول : آفتى : معرفتى ، وراحتى : ما أعرفش ـــ ومعناه انه لا شيء يخيف اكثر من المعرفة ، ولا شيء يريح اكثر من الجهل ! ..

ولا بد أن يكون المثل الأعلى عند هذا الطراز من الناس هو أن يأتى بالأفعال الرتيبة .. مثل دقات القلب فدقات قلب الأم تريح الطفل . وكل عمل يكون متكررا على شكل دقات القلب هو شيء مريح أيضا . أو هو شيء يجعلنا نخفف من حدة التوتر .

وفى استطاعتك أن تلاحظ من ينتظر مكالمة تليفونية انه يدق بأصابعه بشكل منتظم أو يهز قدميه .. أو يتحرك فى الغرفة .. والطالب أثناء الامتحان يضع القلم فى فمه .. أو يلعب بشاربه .. ويكون ذلك بايقاع متكرر مثل دقات القلب .

وهذه الحركات .. أو هذه (اللازمة) لها فائدة : فهى تساعدنا على احتمال الشيء الجديد الذى ننتظره فى خوف .

واذا نحن أسرفنا فى استخدام هذه (اللازمة) فانها تصبح فكرة متسلطة علينا .. اى اننا نضع القلم فى أفواهنا دون أن يكون هناك امتحان .. أو نروح ونجيء فى الغرفة من غير مناسبة .. من غير أن تكون لنـــا قدرة ارادية على ضبط هـــذه الحركات والتوقف عنها ! ..

وهذه (اللازمة) تولد من الملل .. واذا ذهبنا الى حـــديقة الحيوانات وجدنا الحيوانات منعزلة فى اقفاصها الحديدية .. وهى منعزلة عن العالم الواسع . وعن العلاقات الجماعية .. اى عن

الاتصالات بالحيوانات الأخرى ، فهى فى حالة انسحاب وانزواء . كأنها هربت من الحيوانات الأخرى ، أو هربت منها الحيوانات الأخرى .

ومن الأفضل أن ننظر لأنفسنا ونحن نقف أمام أقفاص الحيوانات .. ان هذه الأقفاص الحديدية تشبه الموانع النفسية الشديدة التى نحيط بها أنفسنا وننسحب وراءها ، وننكمش وننطوى وننقوقع ونجتر تجاربنا ولا نضيف الى أنفسنا شيئا اجتماعيا جديدا . وانما نفرز من انفسنا نسيج دودة القز ونتوارى وراءها .. أو نندفن ، ومن مظاهر هذا السلوك الانسحابى عند الحيوانات : انها تدور حول نفسها وتثير نفسها جنسيا .. والانسان يفعل ذلك ايضا فى المعسكرات والسجون والمستشفيات والأقسام الداخلية للمدارس ، ونجد القرود تلعب فى اذنيها بأعواد الشجر ، ونجد الفيل واقفا فى مكانه يهز رأسه يمينا وشمالا ساعات طويلة ، وبعض الحيوانات تشد شعرها ، أو تعض نفسها أو ترضع ثديها .

وقد يكون السبب أيضا هو التوتر الشديد أو تكون النشأة غير السليمة .

يمكننا أن نقوم بتجربة بسيطة وذلك بأن نلقى شيئا فى قفص قرد اعتاد ان ينعزل فان هذا القرد لا يحاول أن يتجه الى هذا الشيء الذى القيناه فى قفصه ، ومعنى ذلك انه لا شيء يثيره أى لاشيء جديد يثيره .. واذا كان الحيوان لا يلتفت الى الشيء الجديد ، فلن يعرف شيئا واذا كان الانسان لا يثيره الشيء الجديد ، فسوف يظل محدود المعالم ويكون بذلك اقرب الى الحيوان .

واذا ذهبنا الى حديقة الحيوانات يجب ان نتذكر المدن الانسانية التى نعيش فيها ، انها أيضا مثل حدائق الحيوانات : كل انسان له

قفص ، هذا القفص من اعواد حديدية ، هذه الأعواد هى الممنوعات النفسية والاجتماعية وهى تحصرنا وتعصرنا ..

والصحة النفسية والاجتماعية انما تتحقق اذا ما نحن ركبنا عربة يجرها حصانان : احدهما حب الجـديد والآخر الخوف من الجديد .. والعقل الانسانى قد علمنا أن نتجه الى الجديد ، بخوف .. أو على الأصح باحتراس . واذا كان الانسان قد مات بسبب رغبته فى المعرفة . فان الانسان حى لأن بعض الناس مات من أجل أن يعيش غيره ليعرف أكثر وأكثر ..

واذا نحن نظرنا الى (القرداتى) فماذا نجد ؟ نجد قردا مربوطا فى سلسلة واذا وقف القرداتى ونحن أيضا ، وجدنا القرد يأتى بحركات من الشقلبة والرقص ، ومعنى ذلك أن القرداتى قد علم القرد أن يأتى بهذه الحركات . اى أن القرد مربوط بسلسلة اخرى هى : العادة على اتيان هذه الحركات ..

فكأن القرد مشدود بسلسلتين واحـــدة تراها وواحدة اخرى لا تراها ولكن هناك سلسلة أخرى تشد القرداتى الى القرد : فهذا الرجل يعيش فى عالم محدود ، عالم القرود ، ويمشى فى أماكن محدودة . ويعود الى بيته ويجلس الى جوار الحائط ولا ينـــام الا والقرد الى جواره والا على صوته ، ولو قطع القرد السلسلة وهرب لأحس الرجل أن قلبه هو الذى انقطع .. فأى الاثنين هو القرد ؟ أيهما هو المربوط بالآخر .. من المؤكد أن القرد هو المربوط فى الرجل ، ومن المؤكد أيضا أن هذا الرجل العـــاقل مربوط من القرد .. وبالقرد ..

فليست الحيوانات هى وحدها المحبوسة فى اقفاص ، وليس الانسان هو الذى يذهب الى الحديقة ليتفرج على القرود .. انها ايضا تتفرج عليه وعلى قيوده التى لا يدرى بها ! ..

فكلما ان هــذا الرجل اسمه (قرداتى) فهذا القرد اســمه « انساناتى » !

وكلنا كذلك !! ..



لولا سلامك .. سبق كلامك !

لسببين يعتدى حيوان على آخر : دفاعا عن الأرض التى يعيش عليهـا ، او حرصـا على السلطة التى يتمتع بها فى القبيلة اى انه يدافع عن السلطة او عن اللقمة .

وهناك حيوانات تدافع عن الارض ولا يهمها السلطة .. وحيـوانات تدافع عن مركزها ولا تهمها الأرض . اما الانســان فانه يدافع عن الأرض والعرض والسلطة .

وفى جبلاية القرود نجد ان القرد الأقوى هو الذى يسيطر . اما قوته فهى فى عضلاته أو فى حيويته . فاذا كانت حيويته هى مصدر قوته فانه يمتلى كل الأناث وكل الذكور ايضا . ولكنه عندما يأكل يكون سخيا يترك طعامه لغيره من ضعاف الجبلاية !

وكما تطــور الانسان فى علاقاته الجنسية فأصبحت له أنثى واحدة ، تطور ايضا فى ممتلكاته . فكل واحد له شىء يملكه : ارض او بيت . وقد وصل الانسان الى هذا الوضع منذ كان الأقوياء من الرجال يسافرون بعيـدا للصــيد . وكانوا يتركون بيوتهم

واولادهم . ولذلك كان لا بد ان يتفقوا على قاعدة يحترمها القوى والضعيف وخصوصا الضعيف عنـــدما يغيب القوى . واذا كان القانون يحمى الضعيف من القوى ، فكأنه يحمى الاقوياء ــ وهم اقلية ــ من الضعفاء وهم الاغلبية الساحقة ..

وعندما يشعر الحيوان برغبة فى العـــدوان فان تغيرات هائلة تجرى فى داخله . هذه التغيرات هى نوع من التعبئة العامة لكل قوى الحيوان المختزنة ويأخذ هذا الاستعداد شكلين : قوة تدفعه الى الهجوم وقوة أخرى تسحبه وتمسكه . قوة تقول له تقدم . وقوة أخرى تقول : حاسب !

ومن هذا الصراع فى داخله يتقرر موقف الحيوان .

ولكن عندما يتهيأ الحيوان للهجوم يفرز الجسم مادة الاردنالين فى الدم وتنشط الدورة الدموية كلها .

فالقلب يدق بسرعة . وينسحب الدم من الجلد والأحشاء الى العضلات والمخ . ويرتفع ضغط الدم . وتزداد الكريات الحمراء . وتصبح للـــدم خاصية التجلط بسرعة . ويتوقف الهضم . ويجف اللعاب . ويتوقف نشاط المعدة تماما وحركة الأمعاء . ويصعب على الحيوان أن يتبول . ثم ان الكبد تفرز السكر فى الدم . وينشط الجهاز التنفسى . ويقف الشعر ويتبلل بالعرق . وبسرعة السحر يختفى التعب . ويحشد الجسم كل قدراته من اجل البقاء . والدم يندفع الى الأماكن التى تحتاج اليه . والى المخ لكى يتمكن الحيوان من تقدير الموقف . كما ان سرعة التجلط معناها ان اى جرح سوف يجف بسرعة وبذلك لا يضيع الدم عبثا . ونشاط الرئتين معنــــاه أن الحيوان يسحب كميات كبيرة من الأوكسجين . ووقوف الشعر يعرض الجلد للهواء الذى يقوم بتبريد هذا الجسم الملتهب . ولذلك

لا يكون هناك خوف على الحيوان من درجات الغليان التى يصل اليها !

وكلما ارتقت الحيوانات أصبحت لها عادات وتقاليد أو طقوس فى التهديد . فالحيوان يتقدم ويتأخر ويدور وينحنى . وهذه الحركات تبين كيف استعد الحيوان للمعركة ، وهى فى نفس الوقت تخفف من حدة الحيوان .. وكثيرا ما انتهت هذه الرغبات العدوانية عند هذا الحد !

واذا انسحب الحيوان من المعركة بلا قتال أو بقتال ، استعاد جسمه نشاطه العادى .. فريقه يجرى وبوله ايضا !

والتبول عند الحيوان له دلالة خاصة عند الثدييات : فالتبول دليل على أن هذه المنطقة التى يتبول فيها خاصة به . فهو يترك اثره فيها . والكلاب عندما ترفع رجلها عند احد أعمدة النور ، فهذا هو المعنى . واذا كانت الكلاب تفعل ذلك باسراف فى المدن ، فلأن فى المدن عددا كبيرا من الكلاب . وهذا يثيرها ويدفعها الى أن يحدد كل كلب مكانه وارضه ! وقد اكتسب السيد قشطة عادة أخرى : فله ذيل عريض ، وهذا الذيل يتحرك بسرعة يمينا وشمالا ينثر مخلفاته على أوسع نطاق ممكن . وبذلك يحدد الأرض التى تخصه . وبعض الحيوانات لها غدد تفرز رائحة كريهة . هذه الروائح هى انذار لكل الحيوانات الأخرى . هذه أرض تخص حيوانا آخر .. فاحترس !

وقد اتخذ التهديد شكلا صوتيا آخر عند بعض الحيوانات : النباح والعواء والفحيح والزئير .. واحيانا الانتفاخ : عند الطيور فلها أكياس هوائية تجعل حجمها اكبر وشكلها مخيفا !

وهناك اشارات للتفاهم بين الحيوانات : فعندما يقف الشعر يدرك الحيوان الآخر ان هناك خطرا .

ولذلك فالديك له عرف والاسد له معرفة تجعل الراس اكبر .
وكذلك العرق عند الحيوانات تكون له رائحة خاصة تؤكد النزعة العدوانية ..

كل هذا يحدث للحيوانات داخليا اما التغيرات الظاهرة فهى ان عضلات الحيوانات تكون فى غاية القوة والمرونة فالحيوان يروح ويجىء ويدور وبعض الحيوانات لها طقوس فى الرقص .

رقصة القتال . أو رقصة الحرب .

فالحيوان يدور حول الحيوان الآخر . وحول نفسه . وهـــذا الدوران معناه ان هناك توازنا بين رغبته فى العدوان وبين رغبته فى الامتناع عن ذلك .. وخصوصا عندما يلوى جسمه ويحنى راسه ويدق الأرض بقدميه !

وأحيانا نرى نوعا من التراجع او المراجعة . ولذلك يقـــوم الحيوان بحركات غريبة لا علاقة لها بالعدوان كأن الحيوان قـــد وضع « غله فى شىء آخر » فياكل مثلا او يهرش فى جسمه .. أو ينظف فروته أو يجمع الأعشاب أو الأخشاب كانه يبنى عشا وهميا . وبعض الحيوانات تنام فجاة .. أو تتثاءب وتتمدد .

بعض العلماء يقول : ان الحيوان اذا اكل فهو جائع حتما .
اذا هرش فان حشرة تلسعه . ومن الطبيعى أن يجوع الحيوان عندما تتبدد طاقته الهائلة فى حالة التعب او العدوان !

ولكن هـــذه الحركات التى يأتيها الحيـــوان ليست الا محاولة

لتخفيف درجة التوتر . أو ليست الا نوعا من الانسحاب . وقد ينتهى الموقف هكذا . وينصرف كل حيوان الى سبيله .. ولكن اذا فشلت هذه الحركات فى تهدئة الحيوانات كان تكون تطعـانا كبيرة . وكان يكون هناك زحام على الأرض والطعام والسيادة استخدمت الحيوانات أنيابها واظافرها وقرونها .. وذيلها يكون كالكرباج .

ولكن من النادر ان يقتل الحيوان حيوانا آخر . ومن النادر ان يفعل حيوان ما يفعله مع فريسته . فالأسد اذا التقى بأسد فانه يضربه ويجرحه ولا يقتله ولا يأكله .. أى ان الاسد لا يقتل الاسد كما يفعل بفريسته من الغزلان .. فاذا انتصر الاسد القوى على الأسد الضعيف اكتفى بهذا النصر . وتركه . اما المنهزم فعليه ان يؤكد انه انهزم ! وعليه أن يهرب اذا استطاع .

وهناك لغة للتفاهم بين الحيوانات : من بينها أن ينكمش المهزوم وأن ينام على الأرض ويحنى رأسه ويغمض عينيه ولا يزأر .. وأحيانا نجد الحيوان المنهزم يعرض جسمه للحيوان المنتصر . كأن يقدم له احدى يديه .. وقد ينقض الحيوان المنتصر فيعض يد خصمه . أو يضربها . أو يكتفى بهذا الاستسلام .

وبين القرود نجد الشمبانزى يمد يده كأنه يتسول .. وخصوصا الاناث ، والاناث تعطى نفسها للذكر . وفى هذه الحالة يتم الاستسلام والسلام وينحسم الموقف والذكور الضعفاء تفعل ذلك أيضا !

وهذا هو قانون الغابة : الحيوان يهزم الحيوان ولا يقتله . واذا استسلم له تركه . وانتهى الخلاف ..

وكل هذه التغيرات الداخلية تحدث للانسان . مع فارق أن كل

هذه الاضطرابات تبدو على وجهه . وهذه مزايا القرد العريان — اى .. الانسان .

فوجهه يصفر ويحمر .. من الغضب ومن الخجل . أما شعر الانسان فلا يقف .. رغم اننا نستخدم هذا التعبير !

وعند الغضب تنحنى الذراع وتجتمع اصابع اليد على شكل قبضة وهذا استعداد من بعيد . أو تهديد من بعيد . وأحيانا نضرب المنضدة او الحائط أو نضرب رءوسنا . ولكن ما نزال على مسافة من الخصم .

وكثيرا ما نوجه هذا الغضب الى الشخص الذى جاء يخلصنا . ولذلك نقول : ما ينوب المخلص الا تقطيع هدومه .. والسيدة التى تكسر الأطباق فى حالة غضب مع زوجها ، لم تقصد تحطيم هذه الآنية وانما هى تقصد أن تحطم رأس زوجها ! وهذا بالضبط ما تفعله القرود فهى فى حالة الغضب تحطم الأغصان والثمار وجدران القفص !

والسلام باليد هو نوع من الاستسلام . فالذى كان فى نيته أن يضرب بيده يجدها مفرودة . واصابعه متراخية . وهى عملية تحويل الغضب الى تهدئة .. وهدوء . وكذلك « الطبطبة » على الكتف تهدئة أيضا . وخلع البرنيطة عند السلام تشبه الديك عندما يخفض « عرفه » والأسد عندما يخفض شعر رأسه .. وخلع البرنيطة مع انحناء الرأس يجعل جسم الانسان اقل طولا ، وأقل صلابة .. على خلاف ما يحدث عند العدوان او القتل . وعند العدوان نبحلق فى الخصم . فاذا اغمضنا العين او نظرنا الى الأرض كنا بذلك نهدىء انفسنا أو نعلن أن الحالة لم تعد فى حاجة الى الحذر والترقب . ونحن فى حديثنا العادى لا ننظر الى الذين

نتحدث اليهم طوال الوقت ، وانما فقط فى نهاية كل جملة لنعرف وقع الكلام ..

وكذلك وضع النظارة السوداء على العينين يجعلنا نبدو متربصين أو عدوانيين . ولذلك فالذى ينظر الينا من وراء منظار يجعلنا نشعر بأنه ليس وديا .. فالنظارة عبارة عن عينين مفتوحتين بلا أجفان ولا رموش !

وقد اكتسبت بعض الحشرات مثل هذه النظارات .. أو مثل هذه العيون نجد أن العيون مرسومة علي أجنحة الحشرات . فاذا أحست خطرا نشرت أجنحتها فظهرت هذه العيون لامعة باهرة رهيبة تخيف أعداءها !

وبعض الأسماك لها أيضا هذه العيون وكذلك الطيور . ونحن نستخدم الاقنعة ذات العيون . وبعض شركات السيارات تجعل المصابيح الأمامية ذات أشكال مخيفة . وهذا ضرورى فى الزحام فى المدن .

بل ان الشركات لم تكتف بهذه « العيون المخيفة » وانما جعلت للسيارات أسماء مخيفة أيضا !

ولذلك فالسلام باليد هو اعلان وقف اطلاق النار من العينين وتجىء القبلات بعد السلام .. كما نفعل مع رجال الدين أو الآباء . أما تقبيل يد السيدات فله معنى آخر : فالرغبة العدوانية الجنسية قد تحولت الى مجرد لمس اليد باليد وبالشفتين — اى الحد الأدنى من تحقيق رغباتنا الخفية !

ومن الغريب ان الأحاديث بين الرجل والمرأة تتخذ شكلا « طفوليا » .. فيتحول الرجل الى طفل .. أو يقول كلاما مثل كلام الأطفال فيكون ضعيفا بطيئا مثيرا للشفقة . اى انه يحول

نزعاته العدوانية الى نزعات استسلامية أو سلامية .. ويتحول الرجل والمرأة الى اسلوب الحمام . فيشرب الواحد من كوب الآخر .. أو يمسك الواحد بمنقار الآخر : وهذا نوع من التقبيل !

والمثل الذى يقول : لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك مثل سليم وصحيح .

أما « الطبطبة » فلها معنى آخر : نحن نجد عند القرود أن القرد الذى انهزم أو استسلم يقترب من القرد الآخر « ويفليه » .. وهذه « التفلية » تهدىء اعصابه . وكذلك الطبطبة هى نوع من الاقتراب البرىء .. وقبول لهذا الاقتراب . فلا خوف ولا عدوان !

وفى مواجهة العـــدوان أو الغضب نقوم نحن بأعمال أخرى لا علاقة لها مطلقا بالعدوان . مثلا نشـــعل سيجارة . او نمسح النظارة . أو نلعب فى شواربنا او ننظر الى الســـاعة أو نحرك عقاربها . أو نرتب الأوراق التى أمامنا او ننظر من النافذة . او نطلب أى رقم فى التليفون . أو نقضم أظافرنا بأسناننا او نطقطق أصابعنا ..

ونحن قادرون على الكذب بملامحنا ولكن لا نقدر على الكذب بانفعالاتنا أو بهذا النشاط الفسيولوجى فى داخل الجسم . وهناك اناس كذابون محترفون : الممثلون.فهم قادرون على الكذب بالملامح وعلى توجيه نشاط الجسم وجهة أخرى لا نقدر نحن عليها فى ظروفنا العادية .

والانسان لأنه يحرص على أن تكون له أرض خاصة وبيت خاص وزوجة خاصة . وان يكون خاصا فى كل مكان يشغله ، نجده يضع صورة أولاده على مكتبه أو صورة زوجته . وكذلك يحرص على أن يضع فى سيارته نوعا من العرائس أو الزينات لكى يجعل سيارته مختلفة عن السيارات الأخرى .. ملايين السيارات الأخرى التى

تشبهها . وكذلك السائق الذى يضع عبارات على سيارته من الخلف ومن الجوانب . انه يريد أن يجعلها مختلفة عن السيارات الأخرى .. واذا سألته لماذا ؟ قال لك : انها هكذا الطف واجمل .

ولكن هذا الجواب ليس صحيحا . وانما الصحيح انه يريد أن يجعلها مختلفة . يريد أن يجعلها خاصة به هو .. ومن الضرورى ان نتذكر هنا ما تفعله الكلاب على أعمدة النور . نفس الموقف وان كان الأسلوب مختلفا فكلاهما — كلانا نحن والكلاب — يريد ان يؤكد انه هنا .. وان هذا المكان خاص به وحده . وانه مضطر أن يفعل ذلك فى مواجهة الزحام الشديد بين الناس والكلاب !

وهناك تصرفات يومية بسيطة ولكن معناها ابعد مما نتصور.. مثلا عندما نكسر اشارة المرور . ويدركنا عسكرى المرور . فما الذى نفعله ؟ الأفضل أن تتحدث الى عسكرى المرور وانت فى سيارتك . اى فى مكانك . فى ارضك . فى بيتك . هذا يعطيك شيئا من الطمأنينة . وفى هذه الحالة يحسن أن تجعل أسلوبك متوسطا لطيفا . سوف يجىء العسكرى اليك .. اى الى حدود مملكتك .. وهو مضطر أن يحول هذا الاقتراب العدوانى الى اقتراب ودى . وبذلك تكون انت وديا وهو أيضا . ولذلك يمكن تسوية الموقف لصالحك . ولكن اذا نزلت من سيارتك ، اى تركت ارضك . وذهبت الى ارضه . فالموقف فى يده . وهو سيده .. والنتيجة ضدك عادة !

وقد تطورت وسائل الاقتراب من ارض اعدائنا .. ومن اعدائنا فكان لا بد أن يقترب الانسان من عدوه جدا ليشتبك معه ثم اخترع السهام والنبال ، فاصبح فى الامكان قتله عن بعد .. والآن تحولت ا سهام الى صواريخ وقنابل وفى هذه الحالة نحن لانصيب العدو وانما نقتله .. اما الحيوانات فهى تهزم عدوها فقط ..

رقم الإيداع ١٧٩٣ / ١٩٨٩
الرقيم الدولى . ٣ ـ ٣٠١ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ب ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف . ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)